فصول من الفكر العربي فى القديم والحديث

الناشـــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنـي قبلـي السـكة الحديـد - مسـاكن دربالة - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفـــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Website

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب : فصول من الفكر العربى في القديم والحديث

المؤلـــف : د. محمد عبد المنعم خفاجى

فصول من الفكر العربى
فى القديم والحديث

دكتور
محمد عبد المنعم خفاجى

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨- الإسكندرية



فاتحة هذا الكتاب

هذه الفصول والدراسات لأصول الفكر العربى فى قديمه وحديثه تؤرخ تأريخًا قويًا واضحًا للعقلية العربية ولأثرها البارز فى الفكر الإسلامى بل والفكر العالمى.

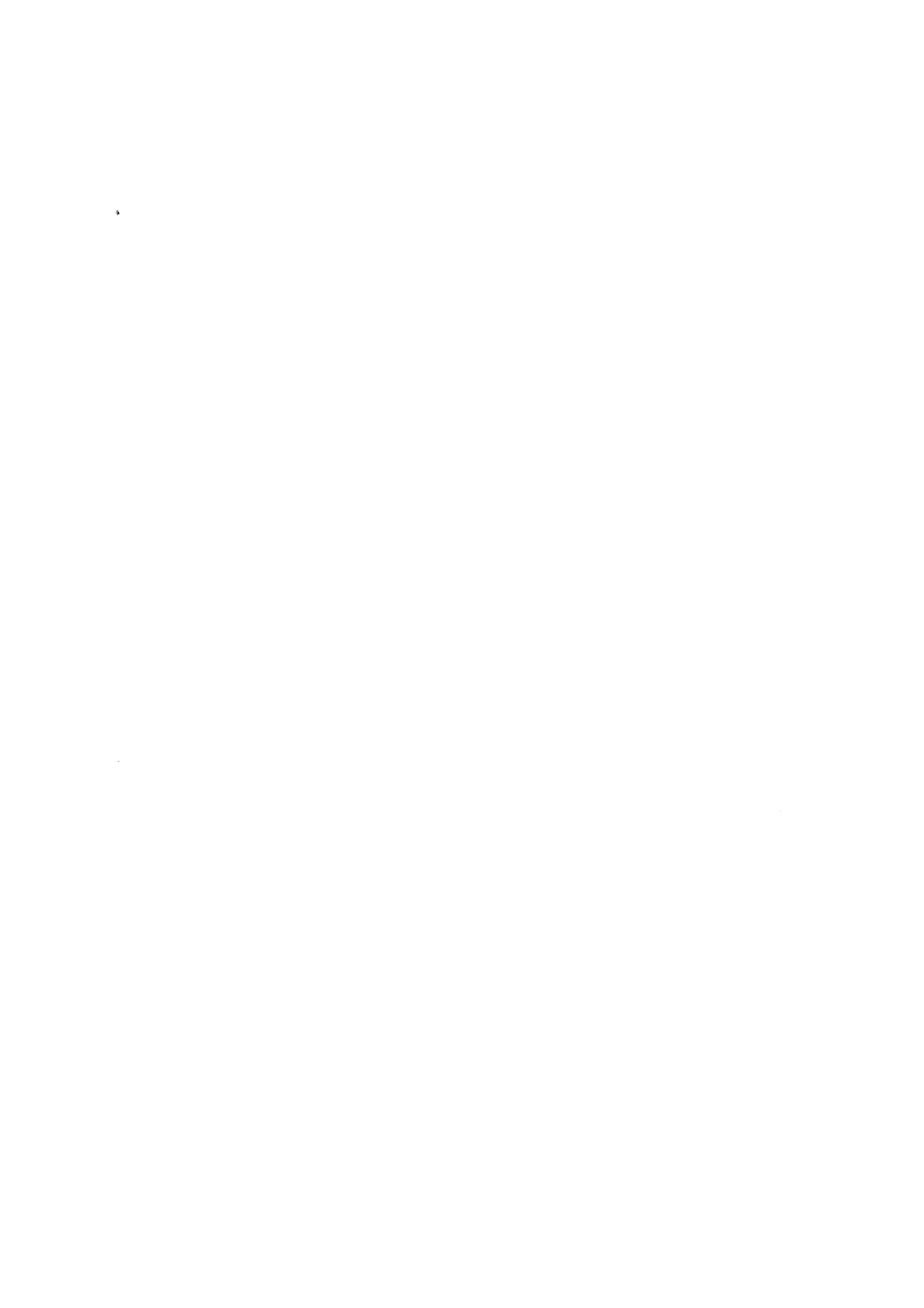
وليس أبرز فى هذا المجال من كتب المفكرين العرب فى القديم والحديث ، الذين سجلوا فيها أفكارهم وآراءهم فى مختلف قضايا الدين واللغة والأدب والاجتماع والسياسة فى مختلف العصور.

لذلك عرضنا فى هذا الكتاب لمؤلفات شامخة من أوابد التراث الفكرى العربى وذخائره فى مختلف الأجيال، ليتضح للقارئ من مطالعتها آراء رواد الفكر العربى وسدنته ، كما سجلوها فى مؤلفاتهم فى عصور متتالية متعاقبة.

ولعل فى ذلك تذكرة قوية بأهمية تراثنا وبعظمته فى تربية الصفوة من أبنائنا المتعطشين إلى المعرفة ، وإلى دراسات أثر أعلام العلماء فى فكرنا المعاصر - وقسمته إلى ثلاثة أجزاء .

والله ولى التوفيق ،

المؤلف



فصول من الفكر العربى
فى القديم والحديث

الجزء الأول

تصدير

حمدا لله وشكرًا

هذا هو الجزء الأول من كتابنا فصول من الفكر العربى فى القديم والحديث، يؤرخ لخوالد تراثنا العربى. ويخلد جهود المفكرين العرب الأوائل فى بناء الحضارة والمعرفة الإنسانية، لمن مضت بهم الأيام وبقيت لنا آثارهم وآراؤهم شامخة تناطح الأجيال، وتشع نورًا وضياءً على كل العصور، وتبنى للبشرية صروحًا عالية من الثقافة والفكر والمعرفة. وتذكرنا بماضى النهضة العربية، وبحضارة الإسلام، وبعظمة الرواد الخالدين فى بناء مجد الأمة العربية، وفى دعم صروحها السامقة فى مختلف الجوانب الفكرية والعلمية والإنسانية، التى هزّوا بها الدنيا. وشغلوا بها العالم، وأضاءوا بوهجها آفاق الحياة البشرية .

والله ولى التوفيق ،

الخليل بن أحمد وكتاب "العين"

- ١ -

الخليـل (١٠٠ - ١٧٥هـ = ٧١٨ - ٧٩١م) عبقـرى التراث العربـى الإسلامى، عاش فى القرن الثانى الهجرى، وقد أسس هو وتلاميذه مدرسة علميـة لا تضارعها أية مدرسة فى حضارات الأمم القديمة والحديثة على السواء .

إنه حقًا عبقرى التراث العربى الإسلامى، سواء التراث اللغـوى أم النحـوى أم الشعرى؛ بل إنه عبقرى الفكر العربى[1].

وكان أعجوبة زمانه فى المعرفة اللغوية .

لقد استطاع ذلك العقل الكبير - الذى لم يمتلك مخـبرًا صوتيًـا، ولا أجـهزة سمعية، ولا أية أداة من أدوات العلم اللغوى المعاصر - أن يصل إلى ما وصل إليه مـن نظريات وآراء لم يستطع العلم الحديث أن يغـير منـها شـيئًا، بـل جـاءت الكشـوف اللغوية الحديثة مؤيدة لها.

والخليل من أزد عمان، ومن مدرسـته مـن الأزديـين العمـانيين : المبرد (-٢٨٥هـ)، وابن دريد (-٣٢١هـ).. وقـد ولـد ونشـأ وبـدأ خطواتـه العلميـة الأولى فـى عمان .. ثم غادر بلده إلى أعماق الجزيرة العربية، ثم يمم وجهه شـطر البصـرة مركـز العلوم اللغوية والعربية، والإسلامية.

ثم إلى خراسان، فالبصرة، فعمان أخيرًا، حيث استقر به المقام فيها، وفيها مات ودفن أيضًا .. وكان الخليل يحج سنة ويغزو أخرى؛ ومع ذلك وضع أول معجم عرفه العرب فى تاريخهم، وهو كتـاب العـين، الـذى صار أساسًـا لكـل الدراسـات اللغوية والمعجمية إلى اليوم.

ورسم الخليل القوانين التى تنظم كـلام العـرب، وهـى المتمثلـة فـى النحـو الذى نقله سيبويه عنه فـى "الكتـاب"، ثـم كشـف قوانـين عـروض الشـعر العربـى،

---

[1] يقول الثعالبى فى كتابه "ثمار القلوب" - ط دار المعارف بالقاهرة - ص١٧٠ : أربعة لم يلحقوا ولم يُسبقوا : أبو حنيفة فى فقهه، والخليل فى أدبه، والجاحظ فى تأليفه، وأبو تمام فى شعره.

متمثلة فى دوائر العروض وفى بحور الشعر، فكشف بذلك عن موسيقى الشعر العربى وأوزانه.

كانت نشأة الخليل فى وطنه عمان، وبين قبيلته من الأزد. وتنقل فى البوادى لكسب المعرفة باللغة، والرواية لها، والجمع لشواردها ولهجاتها. وفى البصرة حط الرحال بين أبناء عمومته من الأزد المقيمين فيها، والذين يعملون فى التجارة، ويجمعون بين ثقافة البادية وعلم الحاضرة[1]؛ وقيل إن معظم سكان البصرة كانوا من الأزد، وبخاصة أن البصرة أصبحت المدينة التى استوطنها العلم، وكثرت فيها مدارسه، وتياراته، واتجاهاته .. ففى البصرة نشأ التصوف على يدى الحسن البصرى، ونشأ التأليف فى المعاجم كما نرى عند الخليل وكتابه "العين"، ونشأ النحو العربى ممثلاً فى كتاب سيبويه[2] تلميذ الخليل، وكان الخليل سيد أهل الأدب فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، فقد كان ماهرًا فى القياس، وبه عال النحو (٢: ٢٠٠ المزهرللسيوطى)، ونشأ علم العروض والمعجميات على يدى الخليل.

وكما أخذ الخليل عن علماء البصرة تتلمذ عليه: سيبويه والليث والنضر بن شميل، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، والأصمعى، وسواهم .. ومن شيوخه : أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، وعاصم الأحول، وسواهم .. وكان الخليل يوصف بأنه أذكى العرب[3] ونقل السيوطى عن محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب أزكى من الخليل ولا أجمع[4]، وهو الذى اخترع علم الموسيقى العربية وجمع فيه أصناف النغم[5]، وهو الذى حصر أشعار العرب عن طريق أوزانها فى

---

[1] راجع ترجمة الخليل فى : نزهة الألباب ٢٧ – ٣٠ طبقات النحويين ٤٣ – ٤٧، بغية الوعاة ١/٥٥٧ – ٥٦١، مرآة الجنان ١/٣٠٣، النجوم الزاهرة ١/٣١١، التهذيب لابن حجر ٣/١٦٤، شذرات الذهب ١/٢٧٥، الخليل بن أحمد للدكتور مهدى المخزومى، وفيات الأعيان ٢/٢٤٨؛ وراجع كتاب العين الذى حققه جماعة من العلماء، منهم هادى حسن حمودى، عبد الله درويش، ومهدى المخزومى وإبراهيم السامرائى. أعلام الأدب فى عصر بنى أمية لخفاجى ٢/١٥٢ – ١٥٤ .

[2] راجع آراء الخليل النحوية فيما نسبه سيبويه إلى أستاذه فى "الكتاب". وفى ضحى الإسلام : ٢: ٢٩٠ أنه هو الذى عمل النحو.

[3] اعلام الأدب فى عصر بنى أمية للخفاجى .

[4] ٢: ٢٤٩ المزهر السيوطى .

[5] ٦ : ٢٢٧ معجم الأدباء لياقوت ، ١: ٣٨ المزهر ، ٣: ٢٦٧ ضحى الإسلام لأحمد أمين.

العروض[1]، فهو أول من جمع اللغة العربية وابتكر المعجم اللغوى، واهتدى إلى بعض المسائل الرياضية.

وكان له حلقة، فى مسجد البصرة الجامع، ظلت عامرة بالدارسين والطلاب حتى وفاته .

وهكذا عاش الخليل يبحث ويدون نظرياته وآراءه فى اللغة وعلومها .. طيلة حياته .

وكان الخليل شاعرًا وبليغًا، عاش زاهدًا فى الحياة، يكتفى بالقليل، ويحيا للعلم، ويتفانى فى خدمة طلابه وتلاميذه، ويفتح أمامهم الأبواب، ومن علمه نهل طلابه، وتصدروا من بعده حلقات العلم فى كل مكان ..

أما كتاب "العين" أول معجم لغوى عربى .

فله أهميته ومنزلته العلمية باعتباره النموذج الأول فى اللغة العربية للمعاجم اللغوية فى تراثنا الحافل، وقد شغل كتاب العين العلماء على طول العصور حول مؤلف الكتاب، هل هو الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٥هـ) أو تلميذه الليث بن المظفر.

– ٢ –

وحول هذه القضية تحدث العلماء طول العصور على اختلاف آرائهم، فمنهم من نفى نسبة الكتاب إلى الخليل، ومنهم من نسبه إليه، ومنهم من اضطرب رأيه أو اتسم بالغموض. وقد سبق ابن درستويه (ت٣٤٧هـ) فألف كتابًا حول مؤلف "العين" كما ذكر القفطى فى كتاب إنباه الرواه (١/ ٣٨٧).

ويجىء د/ محمد رياض كريّم الأستاذ فى كلية اللغة العربية بالزقازيق - جامعة الأزهر - فيؤلف كتابًا كبيرًا فى هذه القضية سماه "القول الفصل فى نسبة كتاب العين إلى الخليل" فى ٢٢٤ صفحة[2] وقسمه إلى ثلاثة فصول :

---

[1] ١: ٤١ المزهر، ٢٤٣ بغية الوعاة للسيوطى، ويقول الزمخشرى عنه : أنه ينبوع العروض (١: ٤٧٩ الفائق للزمخشرى ط ١٩٤٥)، وروى ابن الأنبارى أنه أول من حصر شعر العرب (٥٥ طبقات الأدباء لابن الأنبارى)، ويقول ابن النديم: كان الخليل أول من استخرج العروض وحصر به أشعار العرب (٤٢ الفهرست لابن النديم)، ويذكر ذلك أيضا أحمد أمين فى ضحى الإسلام (٢: ٢٩٠). راجع أيضا العدد الخامس من مجلة الرسالة المصرية.

[2] الطبعة الأولى منه صدرت عن مطابع الشناوى بطنطا عام ١٩٩٢م .

الأول عن الخليل وحياته ومؤلفاته .

والثانى عن آراء الباحثين فى شتى العصور فى مؤلف الكتاب : الخليل أو الليث بن المظفر .

والثالث تحقيق نسبة الكتاب إلى الخليل بالنصوص العديدة، وبخاصة ما جاء منها فى كتاب العين نفسه، مثبتًا أن عمل الليث فى الكتاب لا يتجاوز مساعدة التلميذ لأستاذه، ولا يرقى إلى نفى نسبة الكتاب إلى مؤلفه الحقيقى الخليل.

وفى نهاية الأمر يأتى بآراء العلماء الذين أثبتوا نسبة الكتاب للخليل، يقول د. كريّم : التحقيق أن الكتاب للخيل وإن كان الليث بن المظفر عمل فيه، وقد فطن إلى هذه الحقيقة من القدماء : ابن دريد الذى نسب الكتاب إلى الخليل صراحة فى مقدمة كتابه "جمهرة اللغة" حيث يقول : ألف الخليل كتاب "العين"، فأتعب من تصدى لغايته، وعنى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغلب يعترف، والمعائد متكلف (١/٣ الجمهرة).

ويسوق د. كريّم نصوصًا كثيرة من كتاب "العين" تثبت نسبة الكتاب إلى الخليل.

يذكر د. كريم آراء العلماء الذين نفوا نسبة الكتاب إلى الخليل ومن بينهم : النضر بن شميل، وأبو حاتم السجستانى، وأبو العباس ثعلب، وأبو الطيب اللغوى، وأبو سعيد السيرافى، وأبو منصور الأزهرى، وأبو بكر الزبيدى، وأبو أحمد العسكرى، وابن جنى، والجواليقى، والمطرزى، والصفدى، وابن كثير، والسيوطى.

كما يذكر آراء العلماء الذين أثبتوا نسب الكتاب إلى الخليل، ومن بينهم :

المفضل بن سلمة، وابن دريد، والزجاجى، وابن درستويه، والفارابى، والقالى، وابن خالويه، وابن النديم، وابن قارس، والجوهرى والراغب الأصبهانى، وابن السيد، وأبو البركات الإنبارى، والقفطى، وابن خلدون، وابن حجر، وشهاب الدين الخفاجى.

ثم يذكر آراء العلماء الذين لم يجزموا فى القضية برأى ومن بينهم :

أبو هلال العسكرى، والثعالبى، والصغانى، والفيروز آبادى .

- ٣ -

ومما يدل على أن الليث كان يسير فى عمل العين بتوجيه أستاذه الخليل وإرشاده المستمر له ما جاء فى كتاب "الفهرست"، حيث يذكر صاحب "الفهرست" رواية عن الليث بن المظفر بن نصر بن سيار قال:

كنت أسير إلى الخليل فقال لى يومًا : لو أن إنسانًا قصد وألف حروف ألف وباء وتاء وثاء على ما أمثله لاستوعب فى ذلك جميع كلام العرب فقلت له: كيف يكون ذلك قال: يؤلف فلى الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى، وإنه ليس للعرب كلام أكثر منه، قال الليث : فجعلت أستفهمه فيصف لى ولا أقف على ما يصف، فاختلفت إليه فى هذا المعنى أيامًا ثم اعتلّ وحججت، فمازلت مشفقًا عليه فيبطل ما كان يشرحه لى، فرجعت من الحج وسرت إليه فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما فى صدر الكتاب "العين" فكان يملى علىّ ما يحفظ، وما شك فيه يقول لى: سل عنه فإذا صح فأثبته إلى أن عملت الكتاب "الفهرست" لابن النديم (ص٦٤ و٦٥ الفهرست - ص١٧٣ و١٧٤ القول الفصل).

- ٤ -

ولقد صنع الدكتور كريم عملاً جليلاً حقًا - فى كتابه "القول الفصل فى نسبة كتاب العين إلى الخليل" حيث عرض القضية فى مختلف وجهاتها عرضًا علميًا أمينًا، وخلص من هذا العرض إلى أن "العين" هو من مؤلفات الخليل، وليس مؤلفًا لليث، مما أعاد الحق إلى صاحبه، ودفع اللبس فى نسبة الكتاب إلى الليث، وأيد رأيه فى هذه القضية بنصوص عديدة من كتاب "العين" نفسه.

- ٥ -

ومن عجب أن كتاب العين كان يعد فى حكم المفقود .

وقد نشر الأب انستاس الكرملى قسمًا من كتاب العين فى ١٤٤ صفحة عام ١٩١٤ (طبع بغداد).

وكان للدكتور عبد الله درويش الفضل فى جمع نسخ الكتاب ثم فى تحقيقه :

حيث عثر على نسخة منه فى ألمانيا - جامعة توبنجن - وهـى منقولـة عـن نسخة بالكاظمية .

كما عثر على صورة نسخة بغدادية من الكتاب فى لنـدن، ثـم علـى نسـخة الكاظمية فى بغداد عام ١٩٥٩م.

وقد حقق د/ درويش الجزء الأول فقط مـن الكتـاب وطبعـه فـى بغـداد عـام ١٩٦٧م.

ثم قام الدكتوران مهدى المخزومى ، وإبراهيم السامرائى بتحقيق الكتاب فى ثمانية أجزاء ظهرت طبعتها ما بين عـامى ١٩٨٠ و١٩٨٥ وقـد نشـرته وزارة الثقافـة والإعلام العراقية .

وبالله التوفيق ..

محمد عبد المنعم خفاجى

البيان والتبيين – للجاحظ

– ١ –

الجاحظ عميد العمداء، وشيخ الكتاب والأدباء في عصره، والمفكر العربي الذى خلده فكره في صحائف التاريخ؛ وكتابه "البيان" من شوامخ التراث العربي، وشوارد الكتب الأدبية العالمية الرفيعة، ويجعله ابن خلدون [–٨٠٨] أحد أركان الأدب الأربعة[١]. ويعده المسعودى [–٣٤٦هـ] في كتابه "مروج الذهب" أشرف كتب الجاحظ، وقال عنه : إنه جمع فيه بين المنظوم والمنثور وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار[٢]. ونوّه به أبو هلال العسكرى [–٣٩٥هـ] في كتابه "الصناعتين"، وعده من أشهر كتب البلاغة. ثم استطرد أبو هلال إلى أنه لم يبين فيه عن ألوان البلاغة وأقسام البيان والفصاحة[٣].

وقال ابن رشيق القيرواني عن الكتاب : إنه لا يبلغ جودة وفضلاً[٤].. ومع ما في هذه الآراء من عموم وتجاوز فإنها تنويه بالكتاب وأهميته .

والكتاب بلا ريب كان مصدرًا أصيلاً لثقافة الأدباء والشعراء والكتاب العرب على طول العصور ومن مادته الواسعة نهل البلغاء والمؤلفون قديمًا وحديثًا، وقد تتلمذ على مذهب الجاحظ فيه كل الباحثين القدامى في الأدب كابن قتيبة [–٢٧٦هـ] والمبرد (–٢٨٥هـ)، وابن عبد ربه الأندلسي صاحب "القصد الضرير" (–٣٢٩هـ)، وكأبي هلال العسكرى صاحب الصناعتين (–٣٩٥هـ)، وأبي إسحاق الحصرى (–٤٨٣هـ) صاحب كتاب "زهر الآداب"، وابن رشيق (–٤٦٠هـ) في كتابه "العمدة"، وأسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤هـ) في كتابه "لباب الآداب"، وابن الأثير (–٦٣٧هـ) في كتابه "المثل السائر"، وغيرهم من الكتاب والمؤلفين .

---

(١) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون – المكتبة التجارية – القاهرة .
(٢) ٤/ ١٩٦ مروج الذهب – تحقيق محيى الدين عبد الحميد .
(٣) ٦ و ٧ الصناعتين – مكتبة صبيح – القاهرة .
(٤) ١/ ١٧١ العمدة – المكتبة التجارية – القاهرة .

و"البيان والتبيين" أول كتاب ألف فى الأدب فى تراثنا العربى، وقد ظهر جامعا لفنون كثيرة منه[١]. ولأنواع عِدّة من الأدب والخطابة والشعر واللغة، وهو من أجلِّ الوثائق الأدبية فى آداب الجاهلية والإسلام كما يقول خليل مردم[٢]، يجمع بين دفتيه الكثير بلاغات العرب، ومن أصول الأدب والنقد والبلاغة[٣].

و"البيان والتبيين" أصل من أصول الأدب، ويمثل المدرسة العربية فى منهج الكتابة والتأليف فى الأدب هذا المنهج الذى يحيطك علما بكل المعارف العربية عن الأدبى وفنونه وبلاغاته، وعن النص الأدبى وتذوقه، والكشف عن أسراره، وكل ما يتصل به من ثقافات عصره؛ وهو منهج فى الأدب يخالف منهج المستشرقين فى دراسة أدبنا العربى وتاريخه الذى بدأه المستشرق النمسوى "جوزيف هامر بورجشتال" (١٧٧٤ - ١٨٥٦) فى كتابه تاريخ الأدب العربى - ٧ مجلدات. ثم البارون فون كريمر (١٨٢٨- ١٨١٩) النمسوى فى كتابه "تاريخ الحضارة فى الشرق فى ظل الخلفاء" فى مجلدين. ثم بروكلمان (١٨٦٨- ١٩٥٦) فى كتابه المشهور "تاريخ الأدب العربى" وتأثر بهذا المنهج التاريخى الاستشراقى للأدب كل من حسن توفيق العدل (١٨٦٢ - ١٩٠٤) فى "تاريخ آداب اللغة العربية". وجورجى زيدان (- ١٩١٤) فى كتابه بالغراء السابق نفسه، ثم لفيف كبير من الباحثين والكاتبين فى تاريخ الأدب العربى وفى مقدمتهم د / شوقى ضيف[٤].

والكتاب مطبوع طبعات عديدة فى القاهرة ومختلف العواصم العربية. وطبعت منتخبات منه عام (١٣٠١ م - ١٨٨٣م) فى القسطنطينية ضمن مجموعة بعنوان "خمس رسائل"، كما نشرت منتخبات منه فى القاهرة عام ١٩١٠. وفى بيت المقدس العربية عام ١٩٣٣ فى ٢٤٨ صفحة وهى منتخبات من اختيار شريف النشاشيبى وخليل بيبرس، وطبع البيان والتبين محيى الدين الخطيب فى القاهرة

---

(١) العصر العباسى للإسكندرى.
(٢) ٣٥ الجاحظ لخليل مردم.
(٣) أبو عثمان الجاحظ - لخفاجى.
(٤) ٩٣ و ٩٤ مجلة الهلال - عدد أغسطس ١٩٩٣ - مقال لمحمود مكى.

عام ١٣٣٢هـ فى ثلاثة أجزاء، وكذلك السندوبى أيضًا فى ثلاثة أجزاء، ونشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٦١ فى أربعة أجزاء بتحقيق عبد السلام هارون.

وللمستشرق الروسى كراتشوفسكى (– ١٩٥٢) بحث عن القسم الخاص بالبلاغة من الكتاب .. ومنه نسخة خطية فى مختلف مكتبات العالم، ولأحمد أمين دراسات عن "البيان والتبين" فى الجزء الأول من ضحى الإسلام، تعرض فيها لنقد منهج الجاحظ الاستطرادى[1].

وعندما ألف الجاحظ كتابه "الحيوان" أهداه إلى محمد بن عبد الملك ابن الزيات، وكان من أشد الناس حبا للجاحظ، وإعجابا به وبأدبه، وقد قتل ابن الزيات عام ٢٣٣÷ بأمر الخليفة المتوكل ؛ وألف الجاحظ بعد ذلك كتاب "البيان والتبين" وأهداه إلى الوزير أحمد ابن أبى دؤاد (– ٢٤٠هـ)، فهو ثمرة من ثمرات أدب الجاحظ فى نهايات عمره، وأغلب الظن أنه ألفه نحو عام ٢٣٥هـ أى قبل وفاته بنحو عشرين عاما، وفيه يشير إلى كتاب "الحيوان" ويقول :"كانت العادة فى كتب "الحيوان" أن أجعل فى كل مصحف[2] من مصاحفها عشر ورقات من لطعات الأعراب ونوادر الأشعار فأحببت أن يكون خط هذا الكتاب - البيان - فى ذلك أوفر".

–٢–

وعندما يقول خلدون (٨٠٨هـ) عن الكتاب : سمعت من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة : أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان للجاحظ، والنوادر للقالى؛ وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها.

لا يعد فى قوله هذا مغاليا، وإن كانت الكتب الثلاثة المذكورة مع "البيان" لا توازن به خطرا وأهمية.

---

(1) ١/ ٢ ضحى الإسلام – أحمد أمين – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة .

(2) المصحف : الجزء من الكتاب ، وقد صار اسم المصحف ، علما على القرن الكريم .

ويصف الجاحظ كتابه "البيان" بأنه قد جمع استقصاء المعانى. واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمخرج السهل، فهو سوقى ملوكى. وعامى خاصى[1].

والجاحظ فى ذلك أيضا لا يعرفنا بكتابه التعريف الأمثل ؛ هو لا يذكر لنا مثلا أنه أول كتاب يؤلف جامعا للأدب وأصوله وفنونه، ولا أنه أهم كتاب ظهر فى القرن الثالث الهجرى يكتب عن تيارات الأدب العربى والبلاغة العربية والنقد العربى حتى تاريخ تأليفه ولا أنه وثيقة أدبية دقيقة للفكر العربى وبخاصة الفكر الأدبى حتى عصره، ولا أنه يحمل جذور الأدب المقارن فى عرف القدماء، ولا أنه كتاب يدافع عن العروبة والعربية ديناً ولغة وتاريخاً وفكراً، ولا شيئاً من ذلك كله.

- ٣ -

ولقد كان لظهور الكتاب ضجة فى شتى الأوساط الأدبية وشتى البيئات. وعند مختلف العلماء والأدباء والشعراء، والكتاب على وجه الخصوص. ولأهمية حمل الكتاب بعد ظهوره إلى الأندلس وقرطبة فيما أحمل إليها من نفائس المؤلفات. وتهافت الناس عليه لقراءته ولا قتنائه.

فى الجزء الأول من كتاب "البيان" يشرح الجاحظ معنى البيان والتبين"، ولاشك أن الجاحظ عبر بهذا الاسم قصدا، وأراد به الأدب. فالأدب عنده بيان وتبيين، أى بلاغة وإيصال لهذه البلاغة لأذهان السامعين والقارئين، أى أنه جمال التعبير الذى يجتهد الأديب فى تهذيبه ليصل ببلاغته إلى أذهان الناس ومشاعرهم وعقولهم.. ويبيِّن الجاحظ فى هذا الجزء عيوب البيان، ويضع الحدود العامة للبلاغة ومذاهبها فى استطراد واسع مثير .

أما الجزء الثانى من "البيان" فيتحدث الجاحظ فيه بأسلوبه الاستطرادى عن الخطابة والشعر وفنونها والعديد من أعلامهما.

وفى الجزء الثالث يُردُّ الجاحظ على الشعوبية ومطاعنها التى قدحت بها فى العرب لاسيما ما يؤاخذ العرب به من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفى مواقف الكلام .

---

(1) ٣٧٥/٣ البيان تحقيق السندوبى .

إن الكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتهلة، والفكر العبقرى لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. ويعد أجل مصدر لثقافة الأدباء والشعراء والكتاب العرب على طول العصور، وأدباؤنا الكبار لم يفتهم أمر الكتاب ولم ينسوا أهميته وفضله على الأدب والأدباء من مختلف الأجيال والمدارس والمذاهب، وهو مظهر لامتزاج الثقافات فى عصر الجاحظ، هذا الامتزاج الذى نراه فيه، فللثقافة العربية الحظ الأكبر، ومع هذا فحظ الثقافات الأخرى، من فارسية ويونانية وهندية وغيرها حظ غير قليل[1].

– ٤ –

وعندما ينقد صاحب "ضحى الإسلام" الجاحظ وكتابه "البيان" ويذهب إلى أن شخصية الجاحظ فيه تكاد تكون معدومة[2]، يكون بذلك لم ينظر إلى الكتاب بنظرة ثاقبة، وأثر استطراد الجاحظ فى كتابه فى هذا الحكم الجائر، وهذا خطأ دون ريب، والجاحظ إنما ألف كتابه ليكون موسوعة فى الأدب والبيان، لا ليكون كتابا منهجيا محدودا، والاستطراد فيه ليس إغفالا من صاحبه للموضوع الذى يعرض له، ولا نسيانا لغرضه المقصود، ولا إهمالا لصميم الفكر الأدبى المراد منه، وإنما هو أسلوب من أساليب التشويق والإثارة وبعث الاهتمام عند القارئ والجاحظ فى كتابه يرى البلاغة فى الأسلوب والنظم لا فى المعانى، فالبلاغة عنده ترجع إلى سحر الصياغة وبلاغة الأداء، وروعة التعبير، أكثر مما ترجع إلى دقة المعانى وعمقها، والمعانى - كما يقول - مطروحة فى الطريق، يعرفها البدوى والحضرى والعربى والعجمى، وإنما الشأن فى تخير اللفظ وجودة السبك، وتلاحم الألفاظ ومواءمتها لمعانيها، وفى صحة الطبع، وإقامة الوزن.

ويعد الدكتور طه حسين الجاحظ هو المؤسس للبيان العربى[3]. بما جمعه فى كتابه من نصوص توضح لنا كيف كان العرب حتى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى، وتعطينا صورة مجملة لنشأته[4] وكذلك رأى ابن خلدون فى

---

(1) ١/ ٤٢٥ ضحى الإسلام.
(2) المرجع السابق، ص٧ مقدمة "نقد النثر" لطه حسين.
(3) ٣ مقدمة نقد النثر لطه حسين.
(4) ٣ مقدمة نقد النثر لطه حسين.

مقدمته[1]؛ ومقارنات الجاحظ فيه بين بلاغات العرب وبلاغات الفرس والهند تعطينا أسسا صالحة لتأريخ نشأة فكرة الأدب المقارن عند العرب، وفى الكتاب ذكر للكثير من ألوان البلاغة، كالأمثال والكناية والبديع والتشبيه والأسلوب الحكيم، والاحتراس، وغيرها، والجاحظ أول من أشار إلى المذهب الكلامى[2]؛ ويذكر الجاحظ الاستطراد، وحديثه عنه يدل على أن كتابه كان محاضرات يلقيها على طلابه. وسبغ عليها من روحه ما يجعلها سائغة للعقول والقلوب .

ويذكر الجاحظ فى الكتاب "صناعة الكلام". ويعنى بها حينا "علم الكلام"[3]، وحينا آخر "البيان"[4]، كما يذكر "صناعة المنطق"[5] وصناعة الخطابة، وأصحاب الخطابة والبلاغة[6].

— ٥ —

إن الجاحظ عبقرى الفكر العربى، ومؤلف كتاب "البيان" شخصية نادرة فى تاريخ الأمة العربية والعقل العربى، إنه سجل حافل لمختلف الآراء والتيارات والفكر حول الأدب والبلاغة والنقد والشعر والخطابة وما إلى ذلك كله. ويجمع فى صفحاته الكثير من بلاغات العرب وآدابهم؛ كما يضم آراء وأفكارا كثيرة فى قوانين البلاغة وأصول النقد. إلى أنه سجل لكثير من أعلام الأدباء والشعراء والخطباء والبلغاء حتى عصره؛ ونقد الجاحظ فيه لمذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء، وإيثاره لمذهب المطبوعين يعد من أهم مسائل النقد فى الكتاب، كما يعد ما احتوى عليه الكتاب من آراء ونظريات فى البلاغة وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وألوانها وغايتها وأثرها، من أهم محتوياته ومضامينه، ومن أجل ذلك عد ابن خلدون الجاحظ من السابقين فى التأليف فى البيان[7].

---

(1) ٢٥ مقدمة ابن خلدون – ط التجارية – القاهرة .

(2) ١٠١ البديع تحقيق خفاجى – مكتبة مصطفى البابى الحلبى .

(3) ٧٦٠ العمدة لابن رشيق – ط التجارية .

(4) ١٠٨ المرجع السابق .

(5) ١/٧٩ المرجع السابق نفسه .

(6) ١٨٣/ ١ المرجع السابق نفسه .

(7) ٥٥١ المقدمة لابن خلدون .

إن الجاحظ أديب موسوعي، عاش الناس في عصره وبعد عصره عيالا عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، كما قال شيخ الكتاب ابن العميد (-٣٦٠هـ) الذى أطلقوا عليه لقب الجاحظ الثاني.

وهو صاحب مذهب في النقد، ومنشئ منهج فني في الأدب، وصاحب مذهب وطريقة في الأسلوب، احتذاه في القديم الكاتب الساخر أبو حيان التوحيدى (-٤١٤ هـ) مؤلف كتاب "تقريظ الجاحظ"، كما احتذاه في الحديث عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.

والجاحظ الذى عاش أكثر من مائة عام [١٥٠ - ٢٥٥ هـ - ٧٦٧ - ٨٦٨م]، والذى عاصر اثنى عشر خليفة من خلفاء بنى العباس، من المنصور العباسي حتى المعتز بن المتوكل المتوفى في رجب من عام ٢٥٥هـ بعد وفاة الجاحظ في المحرم من العام نفسه بسبعة شهور .. قد عاش حقبة ازدهار الحياة الفكرية في الأمة العربية والإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجرى والنصف الأول من القرن الثالث؛ عاش عصرا حافلا بالعلوم قديمها وحديثها، كما كان حافلا بالمفكرين والفلاسفة، وهو كذلك عصر نهضة الأدب والكتابة والشعر، والثقافة الأدبية والتأليف في الأدب؛ وعصر كبار الأدباء والشعراء ورواة الأدب، عصر بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية وأبي تمام والبحترى وابن الرومي، وعصر سهل بن هارون (- ١٥هـ)، وعمرو بن مسعدة (-٢١٤هـ)، وأحمد بن يوسف (-٢١٣هـ)، والحسن بن وهب (-٢٦٥هـ)، وغيرهم؛ وعصر الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٥هـ) وسيبويه (١٣٥ - ١٨٨هـ) والأصمعي (١٢٢ - ٢١٦هـ)، وابن سلام الجمحي (-٢٣١هـ)، وأبي عبيدة (١١٠ - ٢٠٨هـ)، وسواهم، يقول الجاحظ: وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين، ومن لم يرو أشعار المجانين ونصوص الأعراب ونسيبهم والأرجاز العربية القصار، والأشعار المنصفة؛ فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة؛ ثم استبرروا ذلك كله. ووقفوا على قصار الحديث والفقر من كل شيء؛ ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف؛ فما هو إلا أن أورد عليهم (خلف) نسيب الأعراب فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب. ثم رأيتهم منذ سنيات، وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن، ولقد

جلست إلى أبى عبيدة والأصمعى، مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر فى النسيب فأنشده، وكان (خلف) يجمع ذلك كله[1]..

وفى هذا النص نعرف إحاطة الجاحظ بفكر الرواة وأذواقهم وبتطور وأفكارهم فى الرواية .

ولقد كان الجاحظ بثقافته الواسعة ملما بكل معارف عصره؛ وقد عاش فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان: اتجاه يميل إلى الرجوع بالأدب إلى أسلوب الجاهليين وبداوتهم وجزالتهم، واتجاه آخر يميل إلى سهولة الأسلوب وإلى رقة المحدثين وعذوبتهم؛ فكان بذوقه وبلاغته مع الاتجاه الأخير، كما كان فى عصر يميل كثير منه إلى تفضيل بلاغة الجاهليين على بلاغة المحدثين؛ والقليلون ينصفون المحدثين ويساوونهم بالجاهليين فى البلاغة، فلا فضل لجاهلى على محدث إلا بالبلاغة والبيان، وليس الحكم فى النقد راجعا إلى العصر، بل إلى الإبداع الأدبى نفسه .

وكان الجاحظ لا يحرص على ثقافة الملوك من النسب والخبر وطرائف الأدب، بقدر حرصه على ثقافة الشعب، وكان أبو هفان "البصرى" راوية أبى نواس يقول : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع فى يده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه ليستأجر دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للقراءة، وكان كثير الحفظ واسع الرواية، قوى الحجة[2].

- ٦ -

وفى البصرة حيث نشأ الجاحظ كانت تتلاقى الثقافات من فارسية ويونانية وهندية، وكان الجاحظ يعى ذلك كله فيتابعه. وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتابه "البيان"، فنراه ينقل فيه الكثير من النصوص الفارسية فى البلاغة والخطابة والبيان[3].

---

(1) ٤ : ٢٣ البيان والتبيين .

(2) ١٦ : ١٧٤ معجم الأدباء لياقوت – فريد رفاعى .

(3) د/ إبراهيم الشواربى – مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – جـ٤ – ص١٦٩ - ١٨٦.

ولأن الجاحظ بثقافته الاعتزالية الواسعة وبتلمذته على إمام الاعتزال في عصره (النظام) (–٢٣٥هـ)، وبصداقاته لبشر بن المعتمر المعتزلى (–٢١٠هـ)، وأبى الهذيل العلاف المعتزلى (–٢٣٢هـ)، كان متصلا بالمنطق اليونانى وبمذاهب فلاسفة اليونان وحكمائها، مما يبدو أثره فى كتاب "الحيوان" بصفة خاصة، ويتحدث عن صاحب المنطق - أرسطو - وأنه كان غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام - أى بالنقد - وتفضيله ومعانيه وبخصائصه[1]، وبذكر أقسام البيان[2] كما عرفها أرسطو، ويذهب د. طه حسين إلى أن الجاحظ قد قرأ مترجمات لآراء أرسطو في كتابيه الخطابة والشعر[3].

وكان ذوق الجاحظ المرهف الخبير بأسرار الكلام يقوده دائما إلى إصدار الأحكام النقدية الصائبة على الكلام شعره ونثره على السواء. وكان أسلوب الجاحظ قريبا إلى الأفهام، ينفذ إلى القلوب، ويمتلك العواطف، وكان يقول : ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان، عذب ينابيع البيان كما يروى صاحب "معجم الأدباء"[4]. وكان يعجب بمذهب المحدثين، ويصفهم بأنهم لم يكونوا يصفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعانى المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له داء ورونق، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة، وأشارت إلى حسان المعانى. وكان لذلك يفضل أشعار المحدثين، وينقد المتعصبين عليهم ممن كانوا يؤثرون الأسلوب البدوى فى البلاغة. وقد استشهد الجاحظ فى كتبه وبخاصة فى كتابه "البيان" بشعر المحدثين. ومدح شعر أبى نواس، وقال عنه إنك إن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو كنت ممن يرى أن أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم فى شيء، فإن اعترض عليك هذا الباب فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا محكوما بالعصبية الظالمة[5].

---

(1) ٣/ ٢٧ البيان – تحقيق السندوبى .
(2) ١/ ٧١ المرجع السابق .
(3) مقدمة نقد النثر لطه حسين .
(4) ١٦ / ٨٧ معجم الأدباء لياقوت .
(5) ٢/ ٢٧ الحيوان للجاحظ = ط الخانجي .

لقد كان أبو عثمان، فى كتبه، وفى كتابه "البيان والتبيين" على وجه الخصوص صوت يضره وعصره وصورة بيئته وحياته وشخصيته وثقافته "كان كما يمثله لنا كتابه "البيان والتبيين" ذا ثقافة نادرة، وعقل ذكى ومواهب مرهفة، وذوق مدرك لأسرار الجمال فى الأسلوب، وكان يملك زمان الجماهير فى عصره ببلاغته الساحرة النادرة، لم يجامل أحدا على حساب الحقيقة ، فنراه يقول فى أسلوب نقدى حزين هدم أصحابنا - يعنى بهم العباسيين مدن الشامات لبنى مروان .

ولقد صدق أبو حيان التوحيدى فيما يقول : لم أجد فى جميع من تقدم إلا ثلاثة لو اجتمع أهل الإنس والجن فى مدحهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم! أبو عثمان الجاحظ، وأبو حنيفة الدينورى، وأبو زيد البلخى[1]. فكان يقال لأبى زيد البلخى : جاحظ خراسان .

وبعد فهذا هو أبو عثمان الجاحظ المفكر العربى الكبير، فهذا هو كتابه "البيان" الكتاب الذى تغلم الأدب عليه أجيال الأدباء والمثقفين على مر الأيام، والذى أثر أعظم التأثير فى الأدباء العرب، من ابن العميد شيخ الكتاب فى عصره، إلى توفيق الحكيم وطه حسين والمازنى والعقاد فى عصرنا اليوم ..

---

(1) ٥ : ١٥ معجم الأدباء الياقوت .

ولاة مصر وقضاتها
للمؤرخ المصرى الكبير الكندى

- ١ -

أمام المؤرخين المصريين "أبو عمر محمد بن يوسف" الكندى المصرى "٢٨٣ - ٣٥٠هـ : ١٧ يناير ٨٩٧ - أكتوبر ٩٦١م".

وكتابه "ولاة مصر"، وكتابه الآخر "قضاة مصر"، من اهم المؤلفات الأصول عن تاريخ مصر إلى نهاية الثلث الأول من القرن الرابع الهجرى، أى من بعد الفتح الإسلامى لمصر مباشرة عام ١٩هـ، حتى سنة ٣٣٥هـ. وقد عاش الكندى بعد ذلك خمسة عشر عاما، وتوفاه الله إلى رحمته عام ٣٥٠هـ.

وقد عثر على هذين الكتابين فى مخطوطة واحدة بقلم أحد كتاب خزانة بعض ملوك بنى أيوب فى دمشق عام ٦١٥هـ، وانتقلت ملكية هذه النسخة إلى القاهرة، إلى أن اشترتها مكتبة المتحف البريطانى، ونشر هذه المخطوطة "روفن جست" بعنوان "كتاب الولاة والقضاة لأبى عمر الكندى"، والقسم الأول من المخطوطة عنوانه "كتاب تسمية ولاة مصر"، والقسم الثانى منها عنوانه "كتاب تسمية قضاة مصر".

- ٢ -

وللكندى مؤلفات كثيرة منها :

- كتاب الخطط
- سيرة السرى بن الحكم .
- الجند العربى

وهى كتب مفقودة ..

وقد اختار الدكتور إبراهيم العدوى مختارات من كتاب "ولاة مصر وقضاتها". راجعها الدكتور محمد مصطفى زيادة، ونشرت هذه المختارات فى

كتاب، طبع فى دار المعرفة فى أكثر من مائـة صفحـة، وصـدر بمقدمـة قصيرة، ثـم يجىء القسم الأول وهو مختارات من كتاب "ولاة مصر"، ويشتمل على:

- تاريخ الولاة فى عصر الخلفاء الراشدين ..
- تاريخ الولاة فى عصر الدولة الأموية .
- تاريخ الولاة فى عصر الدولة العباسية .
- الدولة الطولونية .
- قيام الدولة الإخشيدية، وجانب من تاريخها حتى عام ٣٣٥ هـ.

أما القسم الثانى فهو مختارات من كتاب "قضاة مصر"، من أول القضاة وهو قيس بن أبى العاص، الذى ولى القضاء إلى ربيع الأول سنة ٢٣هـ، ثم مات، وكـانت ولايته نحوا من ثلاثة أشهر . ويتنـاول تـاريخ القضـاة فـى مصـر الإسـلامية إلى نحـو أواخر القرن الثالث الهجرى.

ومن أشهر الولاة على مصر : عمرو بن العاص، وفى عصر دولة بنى أمية : عبـد العزيـز بـن مـروان، وعبـد الله بـن عبـد الملـك بـن مـروان، وفـى عصـر الدولـة العباسية: صالح ابن على العباسى، وإبراهيم بن صالح العباسى، والفضل بـن صـالح العباسـى، وعلـى بـن سـليمان العباسـى، والسـرى بـن الحكـم "٢٠٠ - ٢٠١هـ : ٨١٦م"، ثم كانت ولايتـه الثانيـة "٢٠١ - ٢٠٥هـ : ٨١٧ - ٨٢٠م"، وغـير هـؤلاء الولاة، وهم كثير ومن أشهر القضاة على مصر :

-قيس بن أبى العاص "٢٣ - ٣٥ هـ".
-عبد الله بن لهيعة الحضرمى "١٥٥ ، ١٦٤هـ".
-الحارث بن مكين "٢٣٧ - ٢٤٥هـ" وسواهم .

والكتابان من أهم ما وجد من تراث الكندى، ومـن أهـم الكتـب الأولى التـى حفظت لنا جانبا كبيرا من تاريخ مصر فى القرن الأول والثانى والثالث الهجرى .

- ٣ -

والكندى ممن خرجتهم جامعة الفسطاط الإسـلامية الخـالدة، تلـك الجامعـة التى جلس فيها الإمام الشافعى، وكانت له حلقة فقهية فيها، وتعلم فيـها أبـو تمـام

الشاعر العباسى الخالد "-٢٣١هـ"، وجلس فى حلقاتها أبو الطيب المتنبى أثناء إقامته فى مصر فى عصر الإخشيديين ووزيرهم الكبير كافور الإخشيدى.

وهو من قبيلة "كندة" من القبائل اليمانية القحطانية، التى هاجر الكثير من أبنائها إلى مصر. ومن فروعها قبيلة "تجيب" ذات التاريخ الحافل فى مصر، ومن "تجيب" ظهر مؤرخنا الكندى المصرى الذى ولد فى العاشر من ذى الحجة ٢٨٣هـ "١٧ من يناير عام ٨٩٧م"، ودرس فى منزله، ثم على أيدى بعض الشيوخ من أسرته وغيرهم، ثم درس فى جامع عمرو أى جامعة الفسطاط الإسلامية، ونبغ فى علوم الدين واللغة فى التاريخ، وألف العديد من المؤلفات التاريخية الرائعة، ومن أشهرها الكتاب أو الكتابان التاريخيان اللذان نعرض لهما فى هذه الدراسة، وقد تناول الكندى فى الكتابين تاريخ ولاة مصر وقضاتها منذ الفتح الإسلامى عام ١٩هـ حتى عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م قبل وفاة الكندى بخمس عشرة سنة.

ويبدو من ذلك أن انتهاء المؤلف من كتابه كان فى هذا التاريخ، وهو نهايات العصر الإخشيدى على وجه التقريب وقبيل بدء العصر الفاطمى فى مصر الإسلامية بنحو عشرين عاما. ويعد الكتاب من تراث مصر الخالد، وسجلا للنظم السياسية والإدارية والقضائية فى وطننا طيلة ثلاثة قرون كاملة.

- ٤ -

ومن أهم ما دونه الكندى فى تاريخه :

-فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر لدنقلة عام ٣١هـ.

-معركة ذات الصوارى البحرية بين سفن مصر والأسطول الرومانى البالغ عدد سفنه ألف سفينة فى عهد قسطنطين بن هرقل عام ٣٤هـ، وسميت ذات الصوارى لكثرة صوارى المراكب المشتركة فى هذه المعركة واجتماعها، وكان والى مصر آنذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح "٢٥ - ٣٥هـ : ٦٤٥ - ٦٥٥م".

-ولاية عقبة بن عامر على مصر "٤٤ - ٤٧هـ". وكان عقبة قارئا شاعرا، فقيها، وهو صحابى جليل، وقد أمره معاوية أن يسير فى أسطول بحرى لفتح رودس.

-غزو الروم لشاطىء البرلس عام ٥٣هـ وهزيمتهم فى عهد والى مصر مسلمة ابن مخلد "٤٧ - ٦٢هـ" ومسلمة هو الذى أمر بابتناء منارات المساجد كلها.

-ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر "٦٥ - ٨٦هـ"، وقد اتخذ حلوان مقرا للإمارة بدلا من الفسطاط، وتوفى عبد العزيز فى ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٦هـ، ودفن بالفسطاط.

-قدوم مروان بن محمد آخر خلفاء "بنى أمية إلى مصر فى شوال عام ١٣٢هـ/ مايو عام ٧٥٠م ومقتله ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية، ودخل صالح بن على الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة معلنا بدء قيام الدولة العباسية ودخول مصر تحت سلطانها.

-قدوم أمير المؤمنين المأمون لمصر فى عشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين، ودخوله الفسطاط، وركب المأمون فنظر إلى المقياس، وأمر بإقامة جسر آخر على النيل بين الروضة والجيزة وترك القديم مكانه، وزار المأمون الصعيد، كما زار سخا، والفسطاط، وحلوان، وارتحل إلى بغداد يوم الخميس لثمانى عشرة من صفر عام ٢١٧هـ، فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما.

-ولاية عنبسة بن اسحاق الضبى على مصر "٢٣٨ - ٢٤٢هـ : ٨٥٢ - ٨٥٦م". وفى ولايته نزل أسطول الروم دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨هـ، وقتلوا بها عددا كبيرا من المسلمين، وسبوا النساء والأطفال، فمضى عنبسة إليهم، فهربوا إلى تنيس، فأمر المتوكل بابتناء حصن دمياط، وابتدئ فى بنائه عام ٢٣٩هـ.

-غزو الروم للفرما بأسطولهم عام ٢٤٥هـ فمضى إليهم والى مصر يزيد بن عبد الله التركى فلم يلقهم ..

-قيام الدولة الطولونية عام ٢٥٤هـ، واهتمام أحمد بن طولون بإنشاء أسطول مصرى وفتحه لبرقة، ورجع أحمد بن طولون الفسطاط يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب عام ٢٦٨هـ وتأسيس أحمد ابن طولون لإمبراطورية واسعة النطاق وتوفى أحمد ليلة الأحد بعشر خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٤م.

-ولاية خمارويه أحمد بن طولون على مصر "٢٧٠ - ٣٨٢هـ: ٨٨٤ - ٨٩٥م" ودعم سلطان مصر فى الشام وغيره من الولايات وفى عهده قدم رسول الخليفة العباسى المعتضد بالله "٢٧٩ - ٢٨٩هـ" فى شهر رمضان سنة ٢٨٠هـ بالهدايا، وطلب زواج المعتضد بقطر الندى بنت خمارويه وتم ذلك عام ٢٨١هـ- ٨٩٤م. وقتل خمارويه بدمشق ليلة الأحد لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين

للهجرة، ويقال: أن خدمه قتلوه. وحمل خمارويه إلى الفسطاط فدفن بها.. ولا شك أن مقتله كان مؤامرة سياسية ضد مصر.

-ولاية هارون بن خماروية على مصر "٢٨٢ - ٢٩٢هـ: ٨٩٦ - ٩٠٦م"، وقد مات مقتولا.

-ولاية شيبان بن أحمد بن طولون، وسقوط الدولة الطولونية، وحرق القطائع فى ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ، وكانت القطائع عاصمة مصر فى عهد الدولة الطولونية، بناها أحمد بن طولون، غربى القلعة، وتمتد إلى حى السيدة زينب، وفيها مسجد أحمد بن طولون.

-ولاية محمد بن طغج الإخشيدى على مصر عام ٣٢٣هـ من قبل الخليفة الراضى العباسى.

- ٥ -

أما أشهر قضاة مصر كما ذكر الكندى فمنهم :

-كعب بن يسار، وكان حكما فى الجاهلية، ولى قضاء مصر عام ٢٣هـ/ ٦٤٤م.

-عابس بن سعيد "٦٠ - ٦٨هـ".

-عبد الرحمن بن حجيرة "٦٩ - ٨٣هـ"، وكان من أفقه الناس، وكان ابن عباس يشيد بعلمه وفقهه.

-عبد الرحمن بن معاوية بن حديج "٨٦هـ" وكان أول قاض نظر فى أموال اليتامى.

-أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد "١٤٤ - ١٥٤هـ" - كان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل أبى أن يأخذ من مرتبه بقدر ما اشتغل، وقال: إنما أنا عامل للمسلمين. فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لى أخذ مالهم..

-عبد الله بن لهيعة الحضرمى "١٥٥ - ١٦٤هـ" وكان أول وال يخرج مع الشهود من الصالحين لطلب هلال رمضان بالجيزة. فهو أول القضاة الذين ساروا فى طلب الهلال.

- ٦ -

وبعد فلقد كان الكندى مؤرخا ثقة فى كل ما دونه. وكان موضع تقدير الناس عامة. ومات بعد أن ترك ذكرا خالدا وتراثا باقيا على مدى الأيام .

من ذخائر المكتبة الإسلامية
الأخبار الطوال للدينورى

- ١ -

القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى "١١ من أغسطس ٨١٥ - ١٨ من أغسطس ٩١٢م"، شهد ميلاد نهضة حضارية جديدة فى العالم العربى والإسلامى لم يشهدها "عصر" من قبل، نهضة رفعت لواءها الخلافة العباسية فى المشرق، والخلافة الأموية فى الأندلس، وكان للخلافة العباسية النفوذ الروحى والسياسى فى العالم الإسلامى.

ويعد هذا القرن من أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية، وصفحاته المشرقة من أنصع الصفحات فى التاريخ السياسى والفكرى والأدبى للعرب خاصة وللمسلمين عامة.. وقد امتد فيه نفوذ العباسيين من شواطىء المحيط الأطلسى إلى حدود الهند والصين، وارتفعت فيه راياتهم فى كل الآفاق، تأوى إليها مواكب الحضارة والعلوم والآداب والفنون، وتقوم المدارس، وتنشأ الجامعات، وتترجم الثقافات الأجنبية، ويؤدى إعلام الفكر والثقافة واجبهم من أجل خير الإنسانية، وتعيش فيه شتى العناصر والأجناس والألوان فى ظلال الإخاء والسلام والمحبة.

وفيه تألقت العواصم الكبرى، فى شتى أنحاء الوطن العربى الكبير، مزدهرة بنور المعرفة والثقافة والعلم، بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، وفاس، وقرطبة وما إليها.

ونوابغ الفكر العربى وأعلامه وعلماؤه، لا يحصى عددهم، الثقافات العالمية كلها تتجمع وتتمثل فى الثقافة العربية، وحركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية موصولة، مما أثرى به الفكر العربى ثراء كبيرا، وكان المأمون فى بغداد يمثل قمة ازدهار العقل العربى، كان عالما متضلعا واسع الثقافة، كثير الاطلاع وكان ينفق بسخاء على حركة ترجمة الثقافات إلى العربية، حتى لقد أعطى وزن ما يترجم ذهبا، وكان يحرض الناس على قراءة هذه التراجم، ويرغبهم فى نقلها. كما كان

يخلو إلى الحكماء، ويأنس بمحاضراتهم، ويأمر ولاته بأن يبعثوا له بالكتب التى تقع فى أيديهم، وجعل من شروط الصلح بينه وبين بيزنطة أن يرسلوا إليه مجموعة من الكتب النادرة، واستدعى المهندس البيزنطى "ليد" إلى بغداد، ولكن إمبراطور بيزنطة تيوفيل لم يأذن له بالسفر، فبثع المأمون إلى الإمبراطور يطلب منه السماح له بالسفر إلى بغداد ولكن الإمبراطور أقام العراقيل أمامه. وكان السلام بين الخلافة العباسية والإمبراطورية البيزنطية ضروريا للعالم كله، وكتب نيقولا ميستيكوس بطريق القسطنطينية إلى حاكم جزيرة كريت المسلم يقول: "إن أعظم قوى العالم أجمع: قوة العرب. وقوة الروم، فهما تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة".

ولقد حفل هذا القرن بإعلام كبار قادوا مسيرة الحضارة العربية إلى طريق القوة والازدهار، ومن رواد هذا الطريق: الجاحظ، وابن قتيبة، وأبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب "الأخبار الطوال" الذى نقدمه اليوم فى هذه الدراسة الموجزة.

مثل الجاحظ العقل العربى الحضارى فى تألقه وسطوعه وإحاطته بشتى المعارف والثقافات. من حيث مثل ابن قتيبة الفكر الإسلامى فى شموخه وجلاله واتساعه وتجدده تمثيلا كاملا. وأحاط أبو حنيفة الدينورى بكثير من الثقافات الأدبية والدينية والعلمية إحاطة تامة تقصر عن مداها كل ثقافات علماء عصره. حتى لقد عده أبو حيان التوحيدى أحد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم، فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم، ما بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم: الجاحظ، وأبو حنيفة، وأبو زيد البلخى. ووصفه كذلك بأنه من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، وله فى كل فن ساق وقدم، ورواء وحكم.

وكان أبو حنيفة يقرن بالجاحظ فى فصاحته ويختلف الأدباء فيهما ! أيهما أبلغ. فينتهون إلى أبى سعيد السيرافى "٣٦٨هـ"، فيحكمونه فى تلك القضية، فيقول: أبو عثمان "الجاحظ" أكثر حلاوة، وأبو حنيفة أكثر ندارة، ومعانى أبى عثمان لائطة - عالقة - بالنفس، سهلة فى السمع. ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب وأدخل فى أساليب العرب، كما ذكر ياقوت فى معجم الأدباء.

- ٢ -

وأبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى العالم المشهور، والأديب النحوى اللغوى الراوية والمؤرخ البارع فى مجال التاريخ، والمهندس المنجم النباتى .. حتى لقد قال عنه ياقوت فى معجم الأدباء "١: ١٢٤" "كان نحويا، لغويا، مهندسا، منجما، حاسبا، راوية، ثقة فيما يرويه ويحكيه" وترجمت له دائرة المعارف الإسلامية، وياقوت فى "معجم الأدباء"، والسيوطى فى "بغية الوعاة"، والبغدادى فى "خزانة الأدب"، وأحمد أمين فى "ضحى الإسلام".

كان ميلاده فى أوائل القرن الثالث الهجرى، فى عصر المأمون، فى دينور، وتلقى ثقافته الأولى فى دينور، ثم رحل إلى الكوفة، وأخذ فيها النحو على ابن السكيت.. وتلقى ثقافاته العلمية على أيدى أعلام الأساتذة فى كل مكان رحل إليه. من بغداد والبصرة وأصفهان وغيرهما. وفى عام ٢٣٥هـ - ٨٥٠م كان فى أصفهان، يرصد الكواكب، ويسجل نتائج رصده.

وكانت ثقافة أبى حنيفة واسعة فى مختلف العلوم. وكان تمكنه من الثقافة اليونانية والهندية أوسع منه عند صاحبيه الجاحظ وابن قتيبة.

وقد فاقت شهرته بالكتابة فى النبات كل شهرة. وأخذ عنه علماء عصره ومن بعدهم، ونقل عنه "ابن سيده" فى كتابه "المخصص"، وابن البيطار فى مفرداته، ولم يقتصر على النباتات العربية وحدها، بل ألم بما رآه من نباتات فى مختلف الأصقاع، وألم بما كتب عنه فى العربية وغيرها.

- ٣ -

وكتاب "الأخبار الطوال" كما يقول أبو حنيفة عنه: "فيه ذكر ملوك الأرض من لدن آدم عليه السلام إلى انقضاء ملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى ابرويز وذكر من ملك من ملوك قحطان، وملوك الروم، وملوك الترك، وذكر الأئمة والخلفاء والحروب التى كانت مثل يوم القادسية، وفتوح العراق، وانصرام دولة العجم، وحروب الجمل وصفين ويوم النهروان ومقتل الحسن، وفتنة ابن الزبير، وذكر خلافة عبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز، إلى انقضاء ملك بنى أمية، وخبر الدولة العباسية، وقصة أبى مسلم، إلى بنائه مدينة بغداد وأيام الخلفاء من بعده إلى انقضاء

أمر محمد الأمين، وخبر المأمون إلى آخر أيام المعتصم وخبر بابك وحروبه وأيامه، مختصرا من السير، مقتصرا على الاقتصاد.."

وفى الكتاب الكثير من المعلومات عن علاقة العرب بالفرس مما لا يوجد فى مصادر أخرى.

والقسم الفارسى فى الكتاب خصب غاية الخصوبة، وكذلك القسم الأموى، بما نشبت فيه من وقائع، وما قام من أحداث وما اضطرب فيه من مشكلات سياسية ومذهبية.

وبروح المؤرخ الثقة الأمين يروى أبو حنيفة الكثير من قصص التاريخ فى كتابه، موجزا، ومثيرا، وممتصا، ومؤثرا فى الوقت نفسه.

يقول أبو حنيفة فى خلافة الرشيد :

وفى ذلك العام - العام السبعين بعد المائة - استخلف هارون الرشيد، وحج وانصرف على المدينة، فوضع لأهلها العطاء، وأجزل لهم، فأقبل إلى العراق فوافى الكوفة، وعقد لأبى العباس الطوسى على خراسان، وفى سنة أربع وسبعين ومائة وقعت العصبية بأرض التمام بين المضرية واليمانية، فتحاربوا، حتى قتل بين الفريقين بشر كثير. وحج الرشيد فى ذلك العام بالناس ومعه ابناه محمد وعبد الله، وكتب بينهما كتابا بولاية العهد لمحمد، ومن بعده لعبد الله المأمون، وعلق الكتاب فى جوف الكعبة، ثم انصرف إلى مدينة السلام، قال الكسائى: ولانى الرشيد تأديب محمد وعبد الله، فكنت أشدد عليهما فى الأدب، وآخذهما به أخذا شديدا، وبخاصة محمدا. فأتتنى ذات يوم خالصة جارية أم جعفر، فقالت: يا كسائى إن السيدة تقرأ عليك السلام، وتقول لك: حاجتى إليك أن ترفق بابنى محمد، فإنه ثمرة فؤادى، وقرة عينى، وأنا أرق عليه رقة شديدة، فقلت لخالصة: إن محمدا مرشح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير فى بابه، فقالت خالصة: إن لرقة السيدة سببا أنا مخبرتك به. إنها فى الليلة التى ولدته فيها أريت فى منامها كان أربع نسوة أقبلن إليه. فاكتنفنه عن يمينه وشماله ومن أمامه وورائه، فقالت التى بين يديه: ملك قليل العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهى الأمر، كثير الوزر، شديد الغدر، وقالت التى من ورائه: ملك قصاف، مبذر، متلاف، قليل الإنصاف، كثير

الإسراف، وقالت التى عن يمينه: ملك ضخم، قليل الحلم، كثير الإثم، قطوع للرحم. وقالت التى عن يساره: ملك غدار، كثير الوزر، سريع الدمار. ثم بكت خالصة، وقالت: يا كسائى، وهل يغنى الحذر!

وذكر عن الإصمعى، قال: دخلت على الرشيد، وكنت غبت عنه حولين بالبصرة فأومأ إلى بالجلوس قريبا منه، فجلست قليلا، ثم نهضت، فأومأ إلى أن أجلس، فجلست حتى خف الناس، ثم قال لى: يا أصمعى، ألا تحب أن ترى محمدا وعبد الله؟ قلت: بلى، يا أمير المؤمنين، إنى لأحب ذلك. وما أردت القيام إلا إليهما، لأسلم عليهما قال الرشيد: تكفى، ثم قال: على بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول وقال: أجيبا أمير المؤمنين، فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما، وضربا ببصرهما الأرض، حتى وقفا على أبيهما، فسلما عليه بالخلافة، وأومأ إليهما، فدنيا منه، فأجلس محمدا عن يمينه، وعبد الله عن شماله، ثم أمرنى بمطارحتهما، فكنت لا ألقى عليهما شيئا من فنون الأدب إلا أجابا فيه، وأصابا، فقال الرشيد: كيف ترى أدبهما؟ قلت يا أمير المؤمنين، ما رأيت مثلهما فى ذكائهما وجودة ذهنهما، فأطال الله بقاءهما، ورزق الأمة من رأفتهما ومعطفتهما، فضمهما إلى صدره، وسبقته عبرته - دعمته - حتى تحدرت دموعه، ثم إذن لهما، حتى إذا نهضا وخرجا، قال: كيف بكم إذا ظهر تعاديهما، وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما، حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الأحياء أنهم كانوا موتى، قلت: يا أمير المؤمنين، هذا شىء قضى به المنجمون عند مولدهما أو شىء أثرته العلماء فى أمرهما؟ قال: بل شىء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء فى أمرهما، قالوا: فكان المأمون يقول فى خلافته: قد كان الرشيد يسمع جميع ما جرى بيننا، من موسى بن جعفر بن محمد، فلذلك قال ما قال ..

قال الأصمعى: وكان الرشيد يحب السمر، ويشتهى أحاديث الناس. فكان يرسل إلى إذا نشط لذلك. وجن عليه الليل. فأسامره. فأتيت ذات ليلة. ولم يكن عنده أحد، فسامرته ساعة، ثم أطرق وفكر، ثم قال: يا غلام، على بالعباسى، يعنى الفضل بن الربيع. فحضر. ودخل، فأذن له بالجلوس، فقال يا عباسى، إنى عنيت بتولية العهد، ومثبت الأمر فى محمد وعبد الله، فما ترى؟ قال الفضل: يا

أمير المؤمنين، إن هذا أمر خطير عظيم، وللكلام فيه مكان غير هذا، فعلمت أنهما يحبان الخلوة فقمت عنهما، وجلست ناحية من صحن الدار، فمازالا يتناظران، إلى أن أصبحا، واتفق رأيهما على تولية محمد العهد، وتصيير عبد الله من بعده، وقسمة الأموال والجنود بينهما، وأن يقيم محمد بدار الخلافة، ويتولى المأمون خراسان. فلما أصبح أمر بجمع القواد، فاجتمعوا إليه، فدعاهم إلى بيعة محمد، ومن بعده إلى بيعة المأمون، فأجابوا إلى ذلك وبايعوا.

وينتهى الكتاب بخلافة المعتصم وموته عام ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م.

ويمثل هذا الأسلوب الرفيع الدقيق البليغ الموثق بالرواية، وبالفكر السياسى العميق، يمضى الكتاب رائعا ومهيبا وجليلا إلى نهايته!.

ويمضى أبو حنيفة الدينورى بعد تأليف الكتاب يضرب فى الأرض نحو الخمسين عاما، حتى تستأثر به رحمة الله عام ٢٨٢هـ، على أرجح الآراء فى تاريخ وفاته.

لقد كان أبو حنيفة مثلا رائعا للريادة العلمية فى عصره، بعد وفاة الجاحظ وكان فى علمه الرياضى فريدا ليس له نظير من علماء عصره، ويدل على ذلك تأليفه فى الفلك والحساب، والجبر والمقابلة، والقبلة، والزوال والكسوف، والبحث فى حساب الهند، وغيرهما. كان أبو حنيفة مثلا رائعا كذلك لعصر امتزاج الثقافات، واتساع الأفق العلمى أمام الباحثين، وعصر النهضة العلمية والأدبية التى شهدها القرن الثالث الهجرى، وعاش فيها أجيال العلماء والأدباء والباحثين.

ترك ثروة علمية كبيرة، ضاعت من بين أيدينا، وبقى منها "الأخبار الطوال" هذا الكتاب التاريخى الفريد، الذى ينم عن ثقافة مؤرخ عظيم الفهم لأحداث التاريخ ووقائعه.. ومن كتب أبى حنيفة: كتاب الأنواء، وكتاب فى الفصاحة، وكتاب فى النبات، وكتاب فى الوصايا، وكتاب فى التفسير، وآخر بعنوان جواهر العلم، وكتاب إصلاح المنطق، وهو امتداد لكتاب أستاذه ابن السكيت "صلاح المنطق" أو شرح عليه، وكتاب فى الجبر والمقابلة، وكتاب فى لحن العامة.

وبحق كان أبو حنيفة من أفذاذ العلماء، الذين جمعوا بين بلاغة العرب، وحكم الفلاسفة .. وتركوا أثرا خالدا باقيا على وجه الزمان.

النيل فى مؤلف مصرى قديم[1]

- ١ -

الجلال المحلى المفسر المشهور، المعروف بجلال الدين المحلى الشافعى، عالم مصرى عاش فى القرن الثامن، وطارت شهرته فيه .

وفى عام ٧٨٠هـ ألف كتابا صغيرا سماه مقدمة النيل السعيد وشرح أحواله، وذكر عجائبه وغرائبه، ومن أين يجىء وإلى أين سينتهى (ص٢٣).

وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة منذ أكثر من مائة عام وذلك عام ١٢٨١هـ كما جاء فى آخره، "تم طبع ما جمعه الإمام الجلال المحلى الجليل فيما يتعلق ببيان أحوال النيل، على ذمة الشيخ النجيب، الشيخ إسماعيل معتوق، الشهير بالعطار، بالمطبعة البهية الكائنة بخط باب الشعرية، بتصحيح الفقير مصطفى وهبى.

ويقع الكتاب فى ٣٨ صفحة من القطع الصغير، ويشتمل الكتاب على مقدمة صغيرة وعدة فصول .

وجاء فى المقدمة : روى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال "أربعة لا تشبع من أربع : عين من نظر وأنثى من ذكر، وأرض من مطر، وعالم من خبر" ولما كان إقليم مصر مشتملا على أمور عجيبة، استخرت الله تعالى أن أجمع فيه من الغرائب مالا ينبغى لذوى العلم إهمالها وكيف..؟ وكلهم أو أكثرهم لو سئل عن نهر النيل من أين يخرج من الأرض، وفى أى مكان يذهب..؟ لما أجاب عن ذلك، وأنا إن شاء الله مبين لجميع ذلك، قاصدا فيه الاختصار".

وفصول الكتاب تبدأ بالفصل الأول فى بيان فضل النيل، ثم يليه الفصل الثانى فى المكان الذى يخرج أصل النيل منه وبيان سبب خضرته، ويلى ذلك عدة فصول عن: الأهرام، وكورة أسيوط، والحائط الممتد بالجانب الشرقى من النيل، والمقاييس لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، والمكان الذى يذهب فيه ماء النيل، والأنهار الأربعة وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل، والفرق بين البحر والنهر، وأنواع الماء وما يستعمل فى الطهارة .. وبذلك ينتهى الكتاب.

---

[1] عن مجلة الأزهر عدد رمضان ١٣٨٤ هـ.

والكتاب ذو أهمية كبيرة لما يشتمل عليه من حقائق علمية أكدتها الكشوف العلمية الحديثة .

١- يذكر الجلال المحلى فى الكتاب نقلا عن الجغرافيين العرب من أمثال الكندى والمسعودى، أن النيل يخرج من جبل القمر خلف خط الاستواء[1] من عشرة عيون، خمسة تجتمع فى بطيحة[2]، وخمسة تجتمع فى بطيحة، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان، فيجرى على وجه الأرض بعد ذلك الماءان، فيجرى على وجه الأرض نحو تسعمائة فرسخ، وقيل ألف فرسخ، فى عامرها وغامرها، من عمران وخراب، حتى يأتى بلاد أسوان، من صعيد مصر، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجرى النيل فى وسطها، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه. وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة فى النيل، وبين سفن المسلمين، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور، ثم يأتى الفسطاط فيقسم إلى خلجان: إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد وإلى إسكندرية، كل يصب إلى البحر.

ويذكر أن أحمد بن طولون فى سنة نيف وستين ومائتين بلغه: أن رجلا بأعلى مصر من الصعيد، له ثلاثون ومائة سنة، من الأنباط، ممن يشار إليه بالعلم، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبار ملكها، وأنه ممن صافر الأرض، وتوسط الممالك، وشاهد الأمم أبيضها وأسودها، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها. فبعث إليه ابن طولون، وأخلى له نفسه فى ليال وأيام كثيرة، يسمع كلامه وإيراده وحكاياته، فكان فيما سأله من طول الأجناس وممالكهم، قال: لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة، كل منهم ينازع من يليه من الملوك، وبلادهم حارة يابسة، ثم سأله عن منتهى النيل فى أعلاه، فقال: البحيرة التى لا

---

[1] حيث يستوى الليل والنهار وأضيف إلى القمر لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة والبدر والمحاق (ص١٧ من الكتاب) .

[2] مكان ينبطح من الأرض . والمراد بحيرة .

يدرك طولها وعرضها، وهى نحـو الأرض التى فيـها الليـل والنـهار مستويان طـول الدهر.

٢-ويذكر الجلال المحلى أنه حكى له بعـض مـن أقـام بالحبشـة أن الغمـام والمطـر يستمر عندهم فى أيام زيادة النيل ليلا ونهارا فى أعلى النيـل، وأن المطـر يكـثر جدا فى بعض السنين ويقل جدا فى بعضها، فيعرفون كثرة النيل وقلتـه بسـبب ذلك.

٣-ويذكر الجلال أن مصـر كـانت وطـن الأنبيـاء والمرسـلين والأسـباط وذى القرنـين الإسـكندر، والحكمـاء اليونـانيين، والفلاسـفة المتقدمـين، وذوى الهيئـة والآلـة والطلاسم والرصد والحركـات والنجامـات والمسـاحات والجـبر والمقـابلات وغـير ذلك: كهرمس، وبقراط وجالينوس وفيثاغورث ووالينوس وغيرهم.

وينقل المؤلف أوصافا شعرية جميلة عن كعب الأحبار الذى يقـول: مـن أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أزهرت، وإذا اطردت أنهارها، وتـهذبت ثمارها، وفاضت بحـارها، وغنت طيورها؛ وعن عبد الله بن عمـر حيـث يقـول: مـن أراد أن ينظر إلى شبه الفردوس فلينظر إلى مصر، حين يخضر زرعها، ويزهر ربيعها، ويكثر بالنور أشجارها.

ويروى عن المسعودى فى مصر: هى ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثـة أشـهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشـهر سـبيكة ذهـب حمـراء، فـإن مصر فى شهور أبيب ومسرى وتوت يركبها المـاء، فـترى الدنيـا بيضـاء، وفـى شـهر بابة تنكشف الأرض، فتصير أرضا سوداء وتكـثر فيـها الزراعـات، ولـلأرض روائح طيبة تشبه رائحة المسك؛ وفـى شـهر طوبـة وأمشـير وبرمـهات يكـثر عشـب الأرض ونباتها فتصير الدنيا خضراء كـالزمردة، وفـى شـهر برمـودة وبشـنس وبؤونـة يبيـض الزرع وينور العشب فيشبه الذهب فى المنظر.

٤-ويذكر الجلال أن مساحة أرض مصـر التـى تـروى بـالنيل عامرهـا وغامرهـا ٣٠ مليونا من الأفدنة .. وإذا كان هذا صحيحا فى الزمن القديم حيث تتشعب ميـاه النيل وتذهب إلى كل مكان. فإنه غـير صحيـح اليـوم حيـث أصبـح لميـاه النيـل حجار وفروع محددة.

ويقول الجلال: إن على كور مصر ١٢٠ ألف رجل معهم المساحى والآلات، سبعون ألفا على الصعيد، وخمسون ألفا لأسفل الأرض؛ لحفر الخلجان وإقامة السدود والجسور والقناطر وسد الترع وقلع القضبان والحلفاء وكل نبت يضر بالأرض[١].

٥-ويشير إلى مصب ماء النيل فى البحر عند شواطىء مصر[٢].

٦-وما ذكره عن الفرات ودجلة وسيحون وجيحون يثير العجب لدقته العلمية المتناهية[٣].

– ٣ –

والكتاب مع صغر حجمه يثير الاهتمام، لصحة معلوماته، وكثرة إحاطته، ودقة تفاصيله، وإلمامه بالوصف الجغرافى الدقيق للنيل ومصر وما يتصل بهما.

والجلال المحلى بهذا الكتاب جدير بأن يوضع مع الجغرافيين العرب فى مكان بارز.

وهذا الكتاب جزء من تراثنا القومى الذى نرجو أن تمتد إليه يد العناية، وأن يلقى من الاهتمام ما يستحقه، فينشر نشرا علميا محققا، ليحتل مكانته فى المكتبة الجغرافية العربية القديمة .

---

(١)ص٩ من الكتاب .
(٢)راجع ص٢٤ من الكتاب .
(٣)راجع ص٢٧ وما بعدها من الكتاب .

مروج الذهب للمسعودي
المتوفى عام ٣٤٦هـ - ٩٥٧م

- ١ -

مروج الذهب فى التاريخ العربى الإسلامى من أجل كتب الفكر العربى التاريخى، وأهم مصادر المكتبة العربية التاريخية - وهو مرجع أساسى لكل الباحثين والمؤرخين والمؤلفين - يعتمدون عليه فى دراساتهم ومؤلفاتهم، ويعتمدون على رواياته وآرائه، والكثير من علماء التاريخ الطبيعى وعلماء علم الحيوان يرجعون إليه وإلى مشاهداته فى أسفاره البحرية، وأهمية الكتاب ملحوظة للجغرافيين المعنيين بالجغرافيا التاريخية، ولعلماء الأجناس البشرية وعلماء الجيولوجيا والباحثين عن طبقات الأرض، وآراء المسعودى فى كتابه تستند إلى التمحيص والتحقيق .

ويروى لنا المسعودى فى الكتاب الكثير من غرائب الأخبار وعجائب الأحوال من قدماء المصريين والساميين وأهل الهند والسند وسكان بلاد الصين، مع اهتمامه بأخبار شبه جزيرة العرب. وذكر ملوك حمير وقحطان وحسم وجديس والقبائل البائدة، ويروى كذلك الكثير من أشعار العرب وحكمهم وأمثالهم، ويتحدث عن العدنانية وقبائلها وعشائرها، وعن قريش وحياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من عام الفيل حتى البعثة النبوية، وعن أخبار الدول منذ عصر الرسالة إلى الثلث الأول من القرن الرابع الهجرى؛ وفى مقدمة ذلك يتحدث عن السيرة النبوية بالتفصيل، وعن الفتوحات الإسلامية فى المشرق والمغرب من نهر السند إلى جبال البرانس.

ويعرض المسعودى لبنى إسرائيل وأنهم كانوا عند الخروج ستمائة ألف. وابن خلدون فى المقدمة ينقد ذلك ويروى أنه خارج عن دائرة المعقول.

وقد وصف المؤرخ ابن خلكان (-٦٨١هـ) المسعودى بأنه كان إمام المؤرخين. والمستشرقون يرفعون من منزلة كتاب المسعودى. قد عنوا به وبتحقيقه تحقيقا علميا متميزا.

وقد طبع الكتاب طبعات عديدة، وحققه الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، ونشر تحقيقه ذلك فى أربعة أجزاء.

ويقول المسعودى فى مقدمة كتابه: ليس من لزم جهة وطنه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأشعار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه.

- ٢ -

والمسعودى هو أبو الحسن على المسعودى نسبة إلى جده الأعلى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود كما ذكره الذهبى فى كتابه "تاريخ الإسلام" وعده من أهل بغداد، أما ابن النديم فى كتابه "الفهرست" فيذكر أنه من المغرب، وأنه ولد فى بغداد، ومع أنه رحل إلى مصر وأقام فيها طويلا، إلا أنه لم ينسب إليها، وإنما نسب إلى بغداد.

وعاش المسعودى حياته مولعا بالأسفار فى البر والبحر، وطاف بالعديد من الأمم ومن الدول، إذ ارتحل إلى الهند والصين وخراسان وأذربيجان وأرمينيا، وانتقل من العراق إلى الشام، ومن مصر إلى بلاد المغرب، وله كتب عديدة من أشهرها: مقاتل الطالبيين، ومروج الذهب، ويقول المسعودى: قطعنا بلاد السند والزنج والصين والرانج فتارة بأقصى خراسان، وتارة بأواسط أرمينية وأذربيجان.

ويذكر مؤلف كتاب "الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى" الدكتور زكى حسن - الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة - سابقا أن المسعودى ألف كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" عام ٣٣٦هـ - ٩٤٧م[١]، معتمدا على ما جاء فى آخر الكتاب للمسعودى: انتهى التصنيف إلى هذا الوقت وهو ٣٣٦هـ، ونحن بفسطاط مصر، ويذكر المسعودى فى كتابه محمد بن على العبرى الخراسانى وأنه كان علامة بأخبار بنى العباس وهو حى إلى هذه الغاية وهى سنة ٣٣٣هـ[٢]، كما يذكر مهلهل بن يموت المزرع (ابن أخت الجاحظ)، ويقول عنه: وهو شاعر مجيد من شعراء هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢هـ[٣].

(١)ص٣٧ الرحالة المسلمون - دار المعارف - القاهرة ١٩٤٥م.
(٢)٢٤٦/ ٤ مروج الذهب تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.
(٣)١٣٧/ ٤ المرجع نفسه.

ومن الجدير بالذكر أن القرن الرابع الهجرى كان عصر الرحالة المسلمين الرواد.

فالخليفة الواثق بالله العباسى (٢٢٧ - ٢٣٢هـ - ٨٤٢ - ٨٤٧م) يرسل بعثة لاستكشاف سواحل بحر الخزر (البحر الأسود) وسد يأجوج ومأجوج (سد الصين)[1].

والخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ - ٩٠٨ - ٩٣٢م) يرسل بعثة إلى بلاد الترك والخزر والروس الصقالبة برياسة ابن قضلان كما ذكر المسعودى[2].

وابن خرداذبة (٢٧٢هـ - ٨٨٥م) يصف فى كتابه المسالك والممالك مدينة روما.

واليعقوبى (٢٨٤هـ - ٨٩٧م) فى كتابه "البلدان" يصف مدينة بغداد ومدينة سامرا وصفا دقيقا.

وابن رشتة (٢٩٠هـ - ٩٠٣م) فى كتابه "الأعلاق النفيسة".

يصف الكعبة المشرفة والحرم وبئر زمزم، وكذلك كنيسة أيا صوفيا فى القسطنطينية وأهرامات مصر.

وابن فضلان يرحل إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة.

وابن حوقل البغدادى فى كتابه المسالك والممالك يصف رحلته التى بدأت من بغداد سنة (٣٣١هـ - ٩٤٣م) وطاف فيها فى العالم الإسلامى مشرقا ومغربا.

- ٣ -

والمسعودى من أهم الرحالة العرب فى القرن الرابع وهو أول أثرى عربى حقيقى، وقد زار فارس والهند وسيلان ومدغشقر وماليزيا ومشارف الصين وبحر قزوين، وتنقل بين مصر والشام طول عشر سنوات. وقد وصف فى كتابه "مروج الذهب" الآثار الساسانية وبيوت النار. كما وصف آثار انطاكية وهياكل بعلبك والجامع الأموى بدمشق، ومدافن الفراعنة وأهراماتهم بالتفصيل. ويصف مكانا فى الإسكندرية يسمى قبر الإسكندر رآه بأم عينيه، ويعرض المسعودى لبعض الآثار الإسلامية فى سوريا، ومنها مدينة الرقة، كما يعرض كذلك العديد من التنقيبات

---

(1) المسالك والممالك لابن خرداذبة - نشر المستشرق دوخوريه عام ١٨٨٩م.

(2) مروج الذهب ٢٤٨ - ٢٤٩/ ١ط دار القلم - بيروت.

التى حدثت فى عهد الأخشيد محمد بن طغج، قام بها جماعات من لصوص الآثار والحفارين المصريين، ويقول: إنهم حفروا حفرا عظيما فى عهد الأخشيد إلى أن انتهوا إلى كنز أثرى فيه تماثيل قائمة على أرجلها، وقد طليت بألوان وصور عجيبة منها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال، أعينهم من أنواع الجوهر كالياقوت والزمرد والفيروز والزبرجد، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة وكسروا بعض هذه التماثيل فوجدوا فى جوفها أجساما، وبجانب كل تمثال أنواع من الأوانى من المرمر والرخام وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب وما بقى من الطلاء متروك فى الإناء، وبإزاء كل تمثال من هذه التماثيل تمثال من الحجر أو المرمر أو الرخام الأخضر، وعليها نوع من الكتابات لم يقف عليها أحد، وذلك القلم قد فقد من الدنيا منذ أربعة آلاف عام ..

إن المسعودى يصف فى هذا النص مدفنا فرعونيا فيه مومياءات لأشخاص كبار وصغار ضمن توابيت خشبية ذات شكل إنسانى كما يذكر الأثاث الجنائزى الوفير والثمين.

– ٤ –

ولا ننسى أن نذكر أن المسعودى فى مروج الذهب يبدى اهتماما بالغا بأمور الثقافة والأدب، وبأخبار العلماء والأدباء والشعراء، ويترجم للعديد منهم ترجمات موجزة، ويصف كذلك مجالس الأدب والثقافة فى قصر الرشيد وقصر المأمون وغيرها من الخلفاء والملوك والأمراء.

وأخيرا نؤكد أن كتاب "مروج الذهب" للمؤرخ الكبير المسعودى يصعد إلى منزلة الريادة بين كتب التاريخ ومؤلفات المؤرخين المسلمين.

الإمتاع والمؤانسة

- ١ -

الجاحظ الثانى أبو حيان التوحيدى من أعلام القرن الرابع الهجرى، ومن رواد الحركة الأدبية فيه وأئمتها. عاش حياته بائسا مكدودا يشكو البؤس والحرمان، وكأنما أدركته حرقة الأدب أو صبت عليه هذه الحرفة كلكلهما حتى كادت تطحنه طحنا.

يصف حال نفسه فى مقدمة كتابه "الإشارات الإلهية" الذى حققه وقدم له د. عبد الرحمن بدوى فيقول : (ص١٨ ط القاهرة ١٩٥٠)

"أما حالى فسيئة كيفما قلبتها، لأن الدنيا لم تواتنى لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب على فأكون من العاملين لها. وأما ظاهرى وباطنى فما أشد اشتباههما، وأما سرى وعلانيتى فممقوتان بعين الحق، لخلوهما من علامات الصدق، ودنوهما من عوائق الرق، وأما سكونى وحركتى فآفتان محيطتان بى، لأنى لا أجد فى أحدهما حلاوة النجوى، ولا أعرى فى الآخر من مرارة الشكوى، وأما قرارى واضطرابى فقد ارتهننى الاضطراب حتى لم يدع فى فضلا للقرار، وغالب ظنى أنى قد علقت به لأنه لا طمع لى فى الفكاك ولا انتظار عندى للانفكاك".

ولقد عاش عصره وحياته فى شقاء دائم كان العصر البويهى (٣٣٤ - ٤٤٧هـ) عصر اضطراب سياسى كبير، شمل العالم الإسلامى كله، وخضعت فيه الخلافة العباسية للملوك البويهيين، الذين استلموا من الخلفاء كل سلطاتهم، وحكموا العالم الإسلامى باسمهم، وبدأت تنشأ الإمارات المستقلة، والدويلات المتحررة من نفوذ بغداد والبويهيين، ونشأ عن ذلك ضعف عام شمل جميع أرجاء الخلافة وكثرت الحروب، وعم الفقر، وساد البؤس والحرمان كل مناطق الولايات الإسلامية.. ووجد الأدباء أنفسهم أشد طبقات المجتمع خصاصة، وأكثرها فاقة، وأذيعها شكوى ومرارة وألما، وكان أبو حيان التوحيدى ظاهرة من ظواهر هذا المجتمع العجيب، ووجدنا طبقة من الأدباء تحترف الكدية، واتخذت لنفسها لقب

"الساسانيين" وقد صورهم أبو دلف الينبوعى الخزرجى فى قصيدته الدالية المشهورة وكذلك البديع الهمذانى فى مقاماته، تصويرا واضحا..

ومع أن التوحيدى عاش قريبا من بلاط الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد، فقد هجاهما، وألف فيهما كتابا سماه "مثالب الوزيرين"، وآثر أن يعيش مع "الغرباء والمحتدين الأدنياء الأردياء" - (ج١ ص٧ الإمتاع والمؤانسة ط القاهرة ١٩٣٩" - وكما يقول محقق كتاب "الإشارات الإلهية" د. عبد الرحمن بدوى نقلا عن ياقوت فى "معجم الأدباء": "لقد عرف الشقاء الذى لا يستحقه، ولقى الأهوال من الأحياء، بينما وجد التافهين يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف فى الدنيا، وسعى ما استطاع لطلب المثالة بين الناس، ولعقد الرياسة بينهم، ولد الجاه عندهم". ولكنه حرم من ذلك كله، وزاد من شعوره بالألم أنه طلب المجد عند أناس مهنتهم مهنته. أعنى حرفة الأدب، لكنهم بلغوا مرتبة الوزارة، وهو لم ينل إلا البؤس والحرمان (ى) من مقدمة كتاب "الإشارات الإلهية".

وكان صديقه أبو بكر القومسى الفيلسوف مثله، ويقول عنه التوحيدى: كان بحرا أجاجا وسراجا وهاجا، وكان من الضر والفاقة ومقاساة الشدة بمنزلة عظيمة، فهو عظيم القدر عند ذوى الأخطار، منحوس الحظ منهم، وقال له التوحيدى ذات يوم: ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغ منى، إن قصدت دجلة لاغتسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدا أملس (ى من مقدمة "الإشارات" - عن ياقوت فى معجم الأدباء ص١٠ جـ ١٥).

وكم كان يكرر: "معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجهال، والصبر على الوخيم الوبيل أولى من النظر إلى محيا كل ثقيل"، وعاش مترفعا على الفقر وعلى الناس وعلى السادة فى عصره.

إن التوحيدى كان شاهدا على عصره، وعلامة واضحة من علامات بيئته. فهو يعيش حياته غريب الروح والفكر، غريب الدار والوطن لا يستقر به قرار، ولا ينعم بأن يؤويه سكن أو دار، ولكنه غنى النفس، غنى الفكر، غنى الأدب. يشعر بعظمته وبنفسه وبقيمة أدبه وفكره فى الحياة، ويقول مثل هذه العبارة الرفيعة:

"استشعر العظمة، فإنك بهذا الاستشعار تستحق التكرمة" - ص١٠٤ الإشارات الإلهية.

وهكذا عاش التوحيدى حياة البائسين، وحياة المفكرين، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، كما يقول عنه د. زكى نجيب محمود - تراث الإنسانية العدد العاشر من المجلد الأول.

- ٢ -

"الإمتاع والمؤانسة" حققه ونشره أحمد أمين وأحمد الزين فى ثلاثة أجزاء، وقالا عنه: إنه مجموع مسامرات فى فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة، حاضر المؤلف بها الوزير أبا عبد الله العارض فى أربعين ليلة.

وأقول أن التوحيدى عرض فى هذا الكتاب الجليل كل مشكلات الثقافة والفكر والأدب في عصره، فى ندوات أدبية كان يعقدها فى أمسيات جميلة فى دار الوزير أبى عبد الله العارض.

إن الكتاب حديث متصل عن كل التيارات الفكرية والأدبية فى عصر التوحيدى، مما كان موضوع سمر ومنادمة وحوار فى مجلس هذا الوزير .

وكما ألف بعض الأدباء فى هذا العصر فى باب السمر أصول كتاب ألف ليلة وليلة، فقد ألف التوحيدى لذلك هذا الكتاب الممتع الرائع، الذى يقص علينا فيه كل ما كان يعنيه من مشكلات الفكر والثقافة والأدب فى أدب رفيع من أدب السمر والحوار، فى مجلس وزير جليل.

وتشابه "ألف ليلة وليلة" مع كتاب "الإمتاع" فى أن كلا منهما يتوزع السمر والحديث فيه فى ليال متعاقبة ليلة بعد ليلة.

والكتاب موزع على أربعين ليلة، وإن كانت الليلة العاشرة والحادية عشرة حملتا فى ليلة واحدة، وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب.

وينتهى الجزء الثالث من الكتاب بالليلة الأربعين وكان الحديث فيها عن أبى تمام والبحترى شاعرى القرن الثالث الهجرى العظيمين، وعن تباين الأفكار والمذاهب وتخاصمها، وعن بعض الزائفين الذين ذهبوا إلى أن الله عز وجل لم يخلق

السباع الضارية ولا الهوام، ولا سلطها على الناس، ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام - ص١٩٠ جـ٣ الإمتاع، ويرد عليهم التوحيدى هذا الرأى.

ثم ينقل التوحيدى عن بعض المتكلمين ببغداد قوله: إذا كان الله عدلا كريما، جوادا عليما، رؤوفا رحيما، فإنه سيصير جميع خلقه إلى جنته.

ثم يقول الوزير للتوحيدى: هات ملحة المجلس، فيقول التوحيدى عن أبى همام: لو كان النخل لا يحمل بعضه إلا الرطب، وبعضه إلا البسر، وبعضه إلا الخلال، وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين، ما كان بذلك بأس، ثم قال: استغفر الله، لو كنت تمنيت بدل نواة التمر زبدة كان أصوب.

ويذكر التوحيدى كذلك بعض المأثورات عن أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، فيصفها الوزير بفصاحة اللسان، وشجاعة الجنان.

كما يذكر مأثورات أخرى لأدباء متعددين .

وفى آخر الكتاب يخاطب التوحيدى صديقه أبا الوفاء المهندس فيقول:

وأما ما قلت لى أيها الشيخ أنه ينبغى أن تكتب رسائلك إلى الوزير، حتى أقف على مقاصدك فيها، وأستبين براعتك وترتيبك بها، فأنا أفعل ذلك فى هذه الورقات.

ثم يلحق بالليلة الأربعين رسالتين كتبهما إلى الوزير.

وفى الرسالة الأولى يتحدث التوحيدى إلى وزيره فيقول:

كنت وصلت إلى مجلس الوزير وفزت بالشرف منه، وخدمت دولته وتصرفت من الحديث بأذنه فى شجونه وفنونه، كل ذلك آملا فى جدوى أخذها، وحظوة أحظى بها، وزلفى أميس معها، فتقبل ذلك كله، ووعد عليه خيرا، ولم يزل أهله، وانقلبت إلى أهلى مسرورا، بوجه مسفر، ومحيا طلق، وأمل قد سد ما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس: هذا جناب الوزير ومحضره، فاطمئنى راضية مرضية، حصلت من ذلك الوعد والضمان، على بعض فعلات الزمان، ولا عجب فى ذلك من الزمان، فهو بمثله ملىء. وبقيت محمولا بينى وبين أذكاره، حيران لا أرش ولا أبرى، ثم رفعت ناظرى، وسددت خاطرى، وفصلت الحساب لى وعلى، فوضح العذر المبين، المانع من استزادة المستزيد..

وليس بعد هذا الأسلوب أسلوب أمعن فى التهكم، ولا أبلغ فى السخرية، منه ..

وتمضى الرسالة الثانية كذلك جامعة بين الجد والهزل، والسخرية والتهكم ثم يلحق التوحيدى بهاتين الرسالتين رسالة ثالثة فى شكوى البؤس وجه بها إلى أبى الوفاء المهندس الذى كتب له التوحيدى هذا الكتاب، وختم كتابه بها .. وفى هذه الرسالة يقول التوحيدى لأبى الوفاء الذى قربه إلى الوزير:

خلصنى أيها الرجل من التكفف، أنقذنى من لبس الفقر، أطلقنى من قيد الضر، اشترنى بالإحسان، اكفنى مؤونة الغذاء والعشاء.

ويسترسل فى كلامه قائلا:

إلى متى الكسيرة اليابسة، والقميص المرقع، إلى متى التادم بالخبز والزيتون قد والله بح الحلق وتغير الخلق، الله، الله فى أمرى أجبرنى فإننى مكسور، اسقنى فإننى صد - ظمآن -أغثنى فإننى ملهوف، حلنى فأننى عاطل، شهرنى فأننى غفل. قد أذلنى السفر من بلد إلى بلد، وخذلنى الوقوف على باب باب، ونكرنى العارف بى، وتباعد عنى القريب منى.. أيها الكريم .. ارحم، والله ما يكفينى ما يصل إلى فى كل شهر من هذا الرزق المقتر، الذى يرجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهما مع هذه المؤونة الغليظة، والسفر الشاق، والأبواب المحجبة، والوجوه المقطبة، والنفوس الضيقة، والأخلاق الدنيئة.

ثم يقول فى هذه الرسالة: وأنا الجار القديم، والعبد الشاكر، ولكنك مقبل كالمعرض، ومقدم كالمؤخر.

إن التوحيدى يعرض فى هذه الكلمات قصته مع الوزير، عرض الساحر البليغ الذى لا يجارى بيانه بيان.

والوزير العارض الذى وصله أبو الوفاء المهندس به من وزراء الدولة البويهية استوزره - كما يقول أحمد أمين - صمصام الدولة البويهى عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة، وكان له ندوة يجتمع فيها العلماء والمفكرون والأدباء، ومن بينهم: التوحيدى، وابن زرعة الفيلسوف ومسكويه وأبو الوفاء المهندس، وسواهم.

وهذا الوزير هو أبو عبد الله الحسين بن أمجد بن سعدان .. أما أبو الوفاء "٣٢٨ - ٣٧٦هـ" فهو من كبار المهندسين في العصر البويهي.

- ٣ -

وكتاب "الإمتاع" يحتوى أعظم الوثائق الأدبية والفكرية، التى تمخض عنها القرن الرابع الهجرى العظيم، قرن الثقافات الرفيعة والأدب المزدهر، والفلسفة الذائعة.

والكتاب أحد كتب التوحيدى الرائعة، التى تعرف منها: الإشارات الإلهية، الهوامل والشوامل الذى حققه أحمد أمين والسيد أحمد صقر: والمقابسات، والصداقة والصديق، والذخائر والبصائر.

فى كل ليلة من ليالى "الإمتاع والمؤانسة" الأربعين، يجرى الحوار والسمر حول موضوع محدد، يمينه ابن سعدان الوزير، وإن كان عقل التوحيدى الواسع الثقافة، المحيط بجوانب شتى من المعرفة، كثيرا ما يسلك سبيل الاستطراد فينتقل من طرفة إلى طرفة، ومن فكرة إلى فكرة، ومن شىء إلى آخر شبيه به، حتى ليتناول موضوعات عدة، ويختم الليلة غالبا بملحة وداع، أى بطرفة يختتم بها الأمسية الأدبية.

- ٤ -

إن كتاب "الإمتاع والمؤانسة" لهو خلاصة رائعة لمشكلات الفكر والثقافة والأدب فى القرن الرابع الهجرى، وهو زاد رفيع من المعرفة، وكما نجلس فى عصرنا الراهن فى أنديتنا الأدبية لنتحدث ونتناقش ونتحاور فى مختلف مسائل الثقافة، كان أبو حيان التوحيدى الجاحظ الثانى، بأسلوبه البليغ، وبيانه الرفيع، وكلامه العذب، يجلس فى مجلس هذا الوزير البويهى الكبير، ليتحدث فى مختلف مسائل العلوم والمعرفة والفلسفة، حديث الإنسان المثقف الداهية، البليغ الأديب، فيملك الأسماع، ويستولى على الألباب، ويثر الدهشة من كل مكان، ويتصل الحوار بينه وبين أعلام عصره فى ندوة الوزير، ويحتج كل لرأيه، وتكون نتيجة ذلك كله ثراء ما بعده من ثراء للفكر وللعقل وللإنسان.

رحم الله أبا حيان شيخ المفكرين وشيخ الأدباء فى عصره، والجاحظ الثانى، الذى خلف للعربية زادا رفيعا من الثقافة، مازلنا ننهل من ينابيعه العذاب.

رسـالة الغفـران
لأبى العلاء

\- ١ -

أبـو العـلاء المعـرى "٣٦٣ - ٤٤٩هـ ٩٧٥ - ١٠٥٩م" مـن أشـهر الشـعراء العرب، ومن أبعدهم صيتا، وذيوع ذكر: و"رسالة الغفران" له مشهورة، وهـى رحلـة تخيلها أبو العلاء فـى الصـراط والجنـة والنـار، كـى يبـدى آراءه فـى مسـائل الديـن والأدب والنقد واللغة من خلالها.

وتذكرنا "رسالة الغفران" برسالة ابن شهيد "التوابع والزوابع"، وبالكوميديـا الإلهية لدانتى، وبالفردوس المفقود لملتون.

و"التوابـع والزوابـع" تشـابه "رسـالة الغفـران" للمعـرى مشـابهة كبـيرة، فالموضوع واحد وهو عرض المشـكلات الأدبيـة والبيانيـة والفكريـة بطريقـة قصصيـة. والخلاف فى جوهـر الموضـوع إنمـا يرجـع إلى روح الأديبـين الكبـيرين: ابـن شـهيد والمعرى، فابن شهيد يحرص على عرض المشـكلات الأدبيـة والبيانيـة، وأبـو العـلاء يحرص على عرض المشكلات التى تتعلق بالدين والفكر والفلسـفة.. وقـد وجـه ابـن شهيد رسالته إلى أبى بكر بن حزم، ويوجه المعرى رسـالته إلى ابـن القـارح علـى بـن منصور الحلبى الأديب الشاعر "٣٥١ - ٤٣٠هـ" الذى كان يمدح الوزيـر أبـا الحسـن المغربى وآله، ثم لما ذهب سلطانهم هجاهم، و"التوابع والزوابع" رسالة طريفة وفيـها فكاهات حلوة، وأسلوبها يميل فيه ابـن شـهيد إلى السـجع، وكـان مولعـا بمعارضـة كتاب المشرق وشعرائه، وحريصا على إظهار تفوقه عليـهم. ويرجـع د. زكـى مبـارك فى كتابه "النثر الفنى" أن ابن شهيد قد ألفها ما بين عامى ٤٠٣هـ و٤٠٧هـ، لقولـه فيها "انتضى على لسانه عند المستعين"، والمستعين حكم ما بين عامى ٤٠٢ و٤٠٧هـ حين مات مقتولا فى العام الأخير..

وهذا النص لا يدل على ذلك، فمن الجائز أن يكون ابن شهيد قد قال ذلـك بعد مقتل المستعين عام ٤٠٧هـ لا فى حياته .. أما رسالة الغفران فيرجح أنها ألفـت

عام ٤٢٤هـ لقول المعرى فيها: "لا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة ٤٢٤هـ اسمه فلان بن فلان". ويرجع د. زكى مبارك أن رسالة ابن شهيد "توفى عام ٤٢٦هـ: ١٠٣٥م" كتبت قبل رسالة المعرى بعشرين سنة، من حيث يرجح أغلب النقاد أن رسالة الغفران هى الأصل الذى احتذاه ابن شهيد، ويعرض ابن شهيد فى رسالته صورا من شعر الشعراء وينقدها، ويتحدث عن التقائه بشياطين الشعراء وعما جرى بينهم من مناظرات وحوار أدبى.

على أن الرسالتين ترتكزان فى أساسهما على رحلة الإسراء والمعراج الروحية. والغفران أشمل وأعمق وأكثر غنى فى جوانبها الفنية والقصصية من "التوابع والزوابع".

– ٢ –

وكان ابن القارح قد بعث برسالة إلى أبى العلاء، فرد عليها أبو العلاء برسالة الغفران.

ويعلل كامل كيلانى لتسميتها "الغفران" أن الفكرة الرئيسية فيها، والتى دفعته إلى إنشائها، مناقشة من فازوا بالمغفرة، ومن حرموها فى الدار الآخرة. وكان المعرى يكثر فيها من سؤال الذين يلقاهم فى الجنة بقوله: "بم غفر لك؟" كما كان يكثر من سؤال من يجده فى النار: "لم لم يغفر لك قولك"..

ويبدأ المعرى الرسالة بقوله. يخاطب ابن القارح:

وصلت الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور، ومن قراها لا شك مأجور، وغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة وفى قدرة ربنا - جلت عظمته - أن يجعل كل حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور .. ولعل سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء بدليل الآية: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه".

ثم يقول: وفى تلك السطور كلم كثير كله عند البارىء - تقدس - أثير. وقد غرس لمولاى الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ الاجتناء.

ويصور أبو العلاء ابن القارح وقد ركب نجيبا - أى جملا كريما - من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر، ويسير به فى الجنة على غير منهج. ومعه شىء من طعام الخلود ويلتقى بالأعشى ويحاوره، كما يلتقى بزهير، وبعبيد بن الأبرص، وعدى بن يزيد وبأبى ذؤيب الهذلى، وبالنابغتين وبلبيد.

ويلتقى برضوان خازن الجنة، يرفع صوته ويقول له: يا رضوان، يا أمين الملك الجبار الأعظم على الفراديس، ألم تسمع ندائى بك، واستغاثتى إليك، فقال: لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك فما الذى تطلبه أيها المسكين؟ فيرد عليه: أنا رجل لا صبر لى على العطش وقد استطلت مدة الحساب، ومعى صك - أى وثيقة - بالتوبة، وهى للذنوب كلها ماحية، وقد مدحتك بأشعار كثيرة، ووسمتها باسمك، فقال: وما الأشعار؟ فقلت: الأشعار جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس، وكان أهل العاجلة - الدنيا - يتقربون به إلى الملوك والسادات، فجئت بشىء منه إليك لعلك تأذن لى بالدخول. فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا ضعيف، ولا ريب إننى ممن يرجو المغفرة، وتصح له بمشيئة الله تعالى، فقال: إنك لغبين الرأى، أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات، هيهات.

ويلتقى بحمزة سيد الشهداء، فينشده مدحا له فيه، ويستشفع به، فيحيله على ابن أخيه على بن أبى طالب ليخاطب رسول الله ﷺ فى أمره.

ويتركه إلى شيخه أبى على الفارسى .. كل ذلك على لسان ابن القارح على بن منصور بن طالب الحلبى الذى كتب المعرى الرسالة من أجله.

ثم يستشفع فيه آل البيت إلى فاطمة الزهراء ليراح من أهوال الموقف: ويصير إلى الجنة فيتعجل الفوز، فتأخذه، ويقف عند رسول الله، فيشفع له، ويؤذن له فى الدخول. ويعبر الصراط، فلما صار إلى باب الجنة وقف دونه رضوان يطالبه بالجواز. إذ لا سبيل إلى الدخول إلا به، وهنا يلتفت إليه إبراهيم بن رسول الله ﷺ ويجذبه جذبة يدخل بها الجنة، بعد أن أقام فى الموقف ستة شهور.

ويحاور حميد بن ثور ولبيدا فى الجنة وفى الجنة يحضر المآدب. ويسمع الغناء، ويلتقى بالشعراء ويسحره جمال الحور، ويصنع رحلة إلى جنة العفاريت.

فيلتقى بالجن، ويسمع شعرهم ولغتهم، ويرى الحطيئة، والخنساء وينظر إلى الجحيم من أقصى الجنة، ويطلع فيرى أبليس، ويشاهد بشارا، ويتحدث إلى امرئ القيس، وإلى عنترة وعلقمة. وعمرو بن كلثوم، والحارث اليشكرى، وطرفة بن العبد، وأوس بن حجر، والأخطل والمهلهل، والشنفرى وتأبط شرا ..

ثم يعود إلى محله فى الجنة، فيلقى آدم عليه السلام، ويستمر به المطاف ليلتقى بحورية، ثم بالرجاز: رؤبة والعجاج.

ويفيض فى الجزء الأخير من الرسالة فى الحديث عن النفاق والزندقة والزنادقة، وعن الحلاج ومذهب الحلول والتناسخ، ويجره الحديث إلى ابن الرومى، وإلى أبى تمام، وأبى مسلم الخراسانى، وإلى ابن الراوندى وسواهم ..

- ٣ -

إن هذه الرسالة التى تحمل فكر المعرى ونظرته إلى الحياة، وآراء كثيرة له فى نقد الشعر والشعراء، لهى من أنفس الذخائر فى تراثنا العربى الخالد.. وهذه الرحلة الطريفة إلى العالم الآخر تحمل روحا قصصية عالية، تصلح لأن تكون من أرفع النماذج القصصية الأسطورية، أو الخيالية لو صيغت بأسلوب جديد.

ومن الطريف أن نعرف أن فى دار الكتب المصرية أربع نسخ خطية من الرسالة اثنتان منها فى مكتبة تيمور، كما توجد نسخة من الرسالة فى مكتبة سوهاج وأخرى فى مكتبة جامعة الإسكندرية.

وقد طبعتها مكتبة أمين هندية بالقاهرة عام ١٩٠٣، وكتب خاتمة لها عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان. ثم نشرتها دار المعارف والمكتبة التجارية بالقاهرة بتحقيق المرحوم كامل كيلانى.

وفى عام ١٩٥٠ نشرت دار المعارف رسالة الغفران بتحقيق الأستاذة عائشة عبد الرحمن، ثم قدمت دراسة عن الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٥٣م، وقد استعانت الدكتورة بنت الشاطئ بنسخة خطية من مكتبة كوبريللى ناده باستانبول موثقة النسب بأبى العلاء برواية تلميذه الخطيب التبريزى.

وكانت الرسالة قد لقيت عناية كبيرة فى دوائر المستشرقين. فنشر نيكلسون عام ١٩٠٢ ملخصا للقسم الثانى منها مترجما فى المجلة الآسيوية الملكية وكان قد

حصل على مخطوطة للرسالة كانت فى مكتبة المستشرق شكسبير، وقدم نيكلسون عام ١٩٠٠ وصفا موجزا للمخطوطة وترجمة موجزة للقسم الأول منها مع فقرات كثيرة من الأصل العربى.

وفى عام ١٩١٦ ظهرت فى مدريد باللغة الأسبانية دراسة عن الرسالة للمستشرق الأسبانى المشهور بلاسيوس أكد فيها أن أصولا إسلامية، من بينها "رسالة الغفران" قد كونت أسس الكوميديا الإلهية، وقد ترجم بلاسيوس بعض النصوص من الرسالة وقارن بينها وبين نصوص من كوميديا دانتى.

– ٤ –

ورسالة الغفران تعد فى مقدمة تراث أبى العلاء، الذى وصلنا، وحفظته الأقدار لنا من الضياع، ويضاف إليها ديوان سقط الزند، واللزوميات. وعبث الوليد، وملقى السبيل الذى نشره حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة المقتبس – السنة السابعة – عن مخطوطة بالاسكوريال.

كما بقى من تراث المعرى مجموعة من رسائله نشرها مرجليوث عام ١٨٩٨ وطبعت فى اكسفورد.

وكذلك الفصول والغايات، وقد طبع جزء منه فى القاهرة بتحقيق الزناتى.

وكذلك رسالة الملائكة التى نشرت فى دمشق عن مخطوطة بالظاهرية بتحقيق محمد سليم الجندى.

وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى.

والذى فقدناه من تراث المعرى كثير ومنه كتاب "الأيك والغصون" الذى زادت أجزاؤه على المائة .. وغير ذلك.

– ٥ –

على أن أدب الرحلات الخيالية إلى العالم الآخر، وإلى الجنة والنار مدين لرسالة الغفران ولصاحبها أبى العلاء بدين كبير. فالرسالة فى جوهرها وروحها عمل فنى كبير وإبداع أدبى لا مثيل له.. ومع أن فى رحلة الإسراء والمعراج طرائف روحية رائعة. فإن أبا العلاء ولا ريب قد احتذاهما فى "الغفران"، وتأثر بها تأثرا كبيرا، كما تأثر برحلة الموبد الزرادشتى إلى الأعراف والجنة والنار.

وتصور لنا الرسالة - الغفران - عبقرية فكر أبى العلاء تصويرا رائعا، فهذا الحوار الرفيع فيها، وهذا الخيال الممتع المتأنق الكثير التنقل، وهذا التصوير الدقيق البارع، وهذا الفكر الشرود الذى يلتفت إلى الدقائق فى يقظة ووعى تام .. كل ذلك عناصر أصيلة فى إبداع حقيقى يتفرد به شيخ المعرة أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان الذى نال من اهتمام الأدباء والشعراء والنقاد والدارسين والباحثين مالم ينله شاعر من قبل.

وكم كانت الأحداث والأياحم والخطوب تعصف بأبى العلاء فى شتى مراحل حياته، مرحلة بعد مرحلة، وجيلا بعد جيل، ووقتا إثر وقت .. رحمه الله.

الفصول والغايات
لأبى العلاء

- ١ -

أبو العلاء "٣٦٣ - ٤٤٩هـ: ٩٧٤ - ١٠٥٧م" .. من أشهر الشعراء العرب، ومن أبعدهم صيتا وهو أحد المفكرين العرب، الذين يعتز بهم تاريخنا الطويل.

وكتابه "الفصول والغايات" من أشهر كتبه الباقية وبخاصة أن بعض القدماء اتهم أبا العلاء بأنه كتبه ليعارض به القرآن الكريم. وليس فى الكتاب كلمة أو حرف يشير إلى هذه المعارضة، أو يحمل أية صورة من صورها، وأسلوب الكتاب بعيد كل البعد عن قضية كبيرة، مثل قضية معارضة كتاب الله الخالد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والموجود بين أيدينا اليوم من "الفصول والغايات" هو جزء منه، وكان العثور على هذا الجزء معجزة من معجزات القدر.

لقد كان من السابقين إلى العثور على هذا الجزء من "الفصول والغايات" محب الدين الخطيب صاحب مجلتى الفتح والزهراء. إذ عثر عليه فى أوراق متناثرة مخطوطة "دشت" اشتراها من شيخ وراقى مكة المكرمة عام ١٣٣٧هـ - ١٩١٩م، فاستخرج هذا الجزء من الكتاب منها ورتبه، وكتب عنه فى مجلته "الزهراء" - "المجلد الأول عام ١٣٤٣هـ"، وذكر بأن أحمد تيمور باشا أدخله فى خزانته فى رمضان من السنة نفسها صيانة له وحفظا. وكتب عنه طاهر الطناحى فى مجلة الهلال "المجلد ٤٢ - يناير ١٩٣٤"، ويحمل المخطوط رقم "٨٣٨ أدب - دار الكتب المصرية - التيمورية"، وبه بنز من أوله وأربعة خروم فى وسطه فى الصفحات ٣٤ - ٣٦ - ٥٠ - ٧٨. وهو مضبوط بالشكل الكامل.

وقد حبب صاحب "الرسالة" المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى صديقه الأثير لديه. محمود حسن زناتى، رحمهما الله، آنذاك أن يولى هذا الكتاب عنايته وجهده. فأخذ من يومئذ فى تحقيقه، وجهد فى ضبطه وتفسير غريبه، وتزود فى

ذلك بما قرأه وسمعه العالمين الكبيرين: محمد محمود بن التلاميذ التركزى الشنقيطى، وسير بن على المرصفى "-١٩٣١م" فى الأزهر الشريف. حتى انتهى من تحقيق الكتاب - وطبع فى يناير ١٩٣٨م.

والكتاب بحق، وكما قال محققه متعة الأديب وأمنية العالم، إذ ملأه المعرى بشتى المعارف والعلوم من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والفقه والحديث، وشتى الثقافات الدينية واللغوية والأدبية.

وكان المعرى يملى الفقرة من كتابه على تلاميذه، ويسميها فصلا، ثم يختمها بخاتمة يسميها غاية وهى عنده بمنزلة القافية من البيت الشعرى، وقد تطول الفقرة وقد تقصر، وبعد ذلك يأخذ فى إملاء التفسير والشرح للفقرة، لتوضيح ما يخفى على طلابه، من معنى بعيد، أو لفظ غريب. فإذا انتهى من التفسير، وأراد العودة إلى الإملاء، قال "رجع"، يريد نفسه، أو رجع السياق فى الكتاب و"الفصول والغايات" كله على هذا النسق المأثور.

وما وصل إلينا من الكتاب هو جزء منه، ونشر باسم الجزء الأول، ويبدأ بحرف الهمزة وينتهى بحرف الخاء، وباقى الكتاب مفقود..

والكثير من القدماء، ممن كتبوا عن المعرى، لم يبلغهم نبأ هذا الكتاب، فلم يذكروه أو يشيروا إليه. ومن ذكره منهم حملوا على المعرى بسببين مدعين أن أبا العلاء المعرى قد عارض به القرآن الكريم، مع أن الكتاب كله فصول فى تمجيد الله جل جلاله، وتنزيهه، وفى المواعظ والحكم والأخلاق والآداب.

وفى فصول الكتاب ما يدحض هذا الافتراء الذى يبدو أنه كلام حساد شانئين .

وقيل أن المعرى بدأ فى تأليف هذا الكتاب فى الشام، وأتمه بعد عودته من بغداد. ويقول المعرى فى أوائل الكتاب: "ما آمل؟ وقد فقدت أبوى، وأخذت الشبيبة من يدى".

ويقول أيضا : أعنى ربى، حتى تغنينى عن أمى وأبى. فقد ذهبا. وأنا إلى رحمتك فقير.

وقد توفى والد أبى العلاء بالشام عام ٣٧٨هـ - ٩٨٩م. والمعرى الابن فى الخامسة عشرة من عمره. أما والدته فقد توفيت وهو بالعراق عام ٤٠٠هـ - ١٠١٠م،

وكان قد وصله ما ينبئه بمرضها، فأسرع بالسير إليها، فلم يدركها، ووجد المنية قد سبقته إليها عام ٤٠٠هـ، فالكتاب إذا قد ألف بعد هذا التاريخ، وأبو العلاء فى السابعة والثلاثين من عمره.

ومؤلفات المعرى لم يبق منها إلا القليل الأقل، وفى مقدمتها: "رسالة الغفران" التى حققتها الدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطىء"، تحقيقا علميا دقيقا، ويضاف إليها: "اللزوميات، وديوان سقط الزند، وتعليقات على ديوان البحترى. سماها "عبث الوليد"، وله شرح مفقود على الحماسة، ومن تراثه كتاب "ملقى السبيل" الذى نشره حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة المقتبس "السنة السابعة" عن مخطوطة بالاسكوريال.

كما بقى من تراثه مجموعة من رسائله، نشرها المستشرق الإنجليزى مارجليوث عام ١٨٩٨م، وطبعت فى اكسفورد. وكذلك رسالة الملائكة التى نشرت فى دمشق عن مخطوطة بالظاهرية، بتحقيق محمد سليم الجندى، وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى. والذى فقدناه من تراث المعرى كثير، ومنه كتابه "الأيك والغصون" الذى زادت أجزاؤه على المائة، وسوى ذلك.

وبعض مؤلفات المعرى ضاع أثناء الأحداث التى مرت بالعالم العربى الإسلامى خلال الحروب الصليبية المدمرة فى مصر والشام، وبالغزو المغولى المخرب كذلك. وقد سقطت المعرة فى أيدى الصليبيين عام ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م.

ولقد شغل المعرى الدنيا والناس، منذ وفاته، وألفت الكتب والدراسات الكثيرة عنه وعن أدبه منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، وبقى ذكره محاطا بهالة من المجد والخلود إلى اليوم.

- ٢ -

وشيخ المعرة هو الشاعر الحكيم أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخى .

وقد ولد بمعرة النعمان عام ٣٦٣هـ - ٩٧٤م فى بيت مذكور بالعلم. مشهور بالأدب والفضل. وكانت المعرة من بلاد الدولة الحمدانية آنذاك، ويتنازعها الحمدانيون والفاطميون ضمن إقليم حلب، الذى تقع المعرة فيه.

وفقد أبو العلاء بصره وهو في الثالثة من عمره، وبعد أن اجتاز مرحلة الطفولة، ودخل في عصر الشباب، عكف على العلوم الإسلامية والعربية دراسة وحفظا، وأصبح نادرة عصره في جودة الحفظ، وسرعة الفهم، وكثرة التحصيل، حتى لقد ضرب به المثل في ذلك كله.

وعاش في المعرة، متنقلا في بعض بلدان الشام، ولما ضاقت به بلده، رحل إلى بغداد عام ٣٩٨هـ - ١٠٠٨م، وهي دار الإسلام، ومنارة الثقافة، وصرح العلوم والآداب، وسوق التجارة العالمية، وموطن الحضارة الإسلامية التالدة، وتموج بالوافدين عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وفي بغداد لقي العلماء والفضلاء والأدباء، ولم يلبث أن بلغه مرض أمه فأسرع بالعودة إلى المعرة، ولكنه قبل أن يبلغها بلغه موت أمه ..

أسرار البلاغة للجرجانى

- ١ -

أسرار البلاغة كتاب مشهور رائع، ألفه الإمام عبد القاهر الجرجانى (٤٠٠ - ٤٧١هـ)، ويعد من أهم الأصول والمصادر - فى النقد والبلاغة العربية.

ويشرح لنا عبد القاهر غرضه من الكتاب فيقول :

اعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته، والأساس الذى وضعته، أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى، كيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنواعها، وأتتبع خاصها ومشاعها، وأبين أحوالها، فى كرم منصبها من العقل، وتمكنها فى نصابه، وقرب رحمها منه، أو بعدها حين تنسب عنه، وكونها كالحليف الجارى مجرى النسب، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه[1]. ثم يردف ذلك بقوله : وإن من الكلام ما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز، الذى تختلف عليه الصور، وتتعاقب عليه الصناعات، وجل المعول فى شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها، ما دامت الصورة محفوظة عليها، قيمة تغلو، ومنزلة تعلو[2]، ثم يقول: وأول ذلك وأولاه، وأحقه بأن يستوفيه المنظر ويتقصاه، القول على التشبيه والتمثل والاستعارة فإن هذه أصول كثيرة، جل محاسن الكلام إن لم نقل كلها، متفرقة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعانى فى متصرفاتها[3].

وفى هذه النصوص يوضح لنا فيها عبد القاهر أمورا كثيرة:

١-فهو يذكر أولا أن جل اهتمامه فى الأسرار موجه إلى التشبيه والتمثيل والاستعارة وقد عنى بها حقا عبد القاهر فى الكتاب عناية فائقة، وأشرك معها فى البحث

---

(1) ١٧ و١٨ أسرار البلاغة تعليق محمد رشيد رضا، ط١٩٥٩ - مكتبة محمد صبيح. بدب يدافع .

(2) ١٨٠ المرجع .

(3) ١٨٠ أسرار البلاغة .

في هذا الكتاب الكناية والمجاز وبعض ألوان المحسنات البديعية كالتجنيس والسجع والمبالغة والطباق والأخذ والسرقة، وغير ذلك.

٢-ويذكر ثانيا أنه يعنى بذلك لبيان أمر المعانى فى اتفاقها واختلافها وصلتها بالعقل وقربها منه أو بعدها عنه، ويريد عبد القاهر بالمعانى هنا ما يريده بها فى قوله: إن المطابقة والاستعارة وسائر أقسام البديع لا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بها إلا من جهة المعانى خاصة[1]، ويفسر لنا ذلك رأيه فى أن الاختصاص - أى البلاغة - فى ترتيب الكلم يقع فى الألفاظ مرتبة على المعانى المرتبة فى النفس[2]، مريدا بالمعانى هنا معانى النحو التى يذكرها فى تعريف النظم وأنه توخى معانى النحو فيما بين الكلم، فليس المراد من كل ذلك إلا تقرير أن بلاغة التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها راجعة إلى النظم أو هى بسبب منه، فحديثه عنها فى هذا الكتاب إنما هو تطبيق على نظريته فى النظم التى يجعل بلاغة الكلام راجعة إليه، ويؤكد ذلك قوله فى آخر كتابه "دلائل الإعجاز": وجملة الأمر أنا ما رأينا فى الدنيا عاقلا اطرح النظم والمحاسن التى هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز، وصد بوجهه عن جميعها، وجعل الفضل كله والمزية أجمعها فى سلامة الحروف[3] حيث يقرر أن البلاغة إنما هى فى النظم وفى المحاسن التى هو السبب فيها فى الاستعارة والتمثيل والكناية إلخ، ونظريته فى النظم هى موضوع كتابه "دلائل الإعجاز"، ورأيه فى المحاسن - التى يرجع السبب فيها إلى النظم - فى الاستعارة والتمثيل إلخ هو موضوع كتابه "أسرار البلاغة".

٣-فعبد القاهر إذا تدور أفكاره التى كتبها فى كتابيه حول فكرة واحدة لا فكرتين، وهذه الفكرة هى أن البلاغة ترجع إلى النظم والصياغة سواء فيما يتصل بالأسلوب أو بأهم عناصره من التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والمجاز إلخ، وقد بحث بلاغة النظم فى الدلائل وبلاغة التشبيه وأخواته فى الأسرار

---

(1) ١٤ سطر ١ و ٢ أسرار البلاغة.

(2) ص٢ و١٣ المرجع نفسه.

(3) ص٤٠٢ دلائل الإعجاز (طبع المنار ١٣٣١هـ)، ٣٣٢ الدلائل طبع المكتبة المحمودية.

الذى يقرر فيه أن بلاغة هـذه الألـوان راجعـة فـى الحقيقـة إلى النظـم، فبلاغـة الاستعارة عنده راجعة إلى نظم عبارتها وما بين المعانى من الارتبـاط[1]، وليسـت المزية التى يثبتها للكنايـة علـى الإفصـاح راجعـة إلى نفـس المعنـى الـذى يقصـد المتكلم إليه، ولكن المزيـة فـى طريـق إثبـات هـذا المعنـى[2]، وكذلـك الأمـر فـى التشبيه، فبلاغة كل هذه الألوان تعود إلى الذى هو ارتباط معـانى الكلـم بعضـها ببعض وترتب بعضها على بعض على وفق ترتبها فى الذهن، وانظر إلى قول عبد القاهر فى دلائله فى شرح الاستعارة فى بيت ابن المعتز المشهور:

سألت عليه شعاب الحي حين دعا   أنصـــاره بوجــــوه كالدنانـــير

قال : فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنمـا تم لهـا الحسـن، وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخـير، ونجدهـا قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته[3].

فمن الخطأ ما ذهب إليه خلـف الله فـى كتابـه "مـن الوجهـة النفسـية فـى دراسة الأدب ونقده" من أن دراسة الفن الأدبى تعتمد على ناحيتين: ناحيـة البنـاء والنظم والتركيب، وهذا ما درسه عبد القاهر فى دلائـل الإعجـاز، وناحيـة الصياغـة والتصوير والجمال وهى - ما درسه عبد القاهر فى أسرار البلاغـة[4]. ذلـك أنـه ليـس هناك فاصل فكرى بين الكتابين، فضلا عن أن هاتين الناحيتين اللتين ذكرهما خلف الله إنما هما ناحية واحدة وفكـرة واحـدة. ويتـابع خلـف الله شـرح رأيـه فيقـول إن مقياس الجودة الأدبية عند عبد القاهر هو تأثير الصورة البيانية فـى نفس متذوقـها، وهذه هى الفكرة الرئيسية التى تبرز فى أسرار البلاغـة[5] وهـو يريـد ربـط (الأسـرار) بالمذهب النفسى فى دراسة الأدب ونقده، وقد يكون ذلك صحيحا لو أننا جعلنا هـذا الربط هو أحد ما اتجه إليه عبد القاهر فى كتابه أسـرار البلاغـة مـن أهـداف، لا أن نجعله هو كل ما اتجه إليه، أو الغاية والهدف له من الكتاب.

---

(1) الأسرار ط ١٩٣٩ - عيسى الحلبى ص١٤، ١٥ .
(2) الدلائل ط ١٣٣١ ص٥٦ (ط ١٣٣٧).
(3) الدلائل ص٦٨ ط المكتبة المحمودية وتحقيق المراعى .
(4) ٧٤، ٧٥ من الوجهة النفسية ط١٩٤٧ .
(5) ٩٢، ٩٦ المرجع .

فإذا كان عبد القاهر قد دارت فكرته فى الدلائل حول البلاغة وأنها تكون فى النظم، وأن النظم هو تعليق معانى الكلم بعضها ببعض، فإن فكرته فى الأسرار تدور حول ذلك أيضا لإظهار أسرار هذه المعانى فى التشبيه وأخواته، فدلائل الإعجاز موضوع نظرية عامة فى الأدب لاتصالها بالإعجاز أما "أسرار البلاغة" فشرح وتطبيق لهذه النظرية على التشبيه وأشباهه، لأن ذلك وثيق الصلة بالخلق الأدبى، ففى الدلائل يتناول الجرجانى شرح المقياس الذى يقاس به الإعجاز وهو النظم، وفى الأسرار درس أبواب التشبيه ونظائره دراسة يتضح منها اعتماد هذه الأبواب على فكرة النظم. فلا تنكشف بلاغتها إلا على أساسها، ففكرة النظم التى بسطها عبد القاهر فى الدلائل هى الفكرة نفسها فى الأسرار[1] وهذه الفكرة تقوم على الربط بين ألفاظ الأسلوب ومعانيه، فالمعانى التى يؤديها الأسلوب، وهى معانى النحو وأحكامه، ينظر إليها عبد القاهر فى كتابيه نظرة أساسية ويجعلها أساس كل خلق فى العمل الأدبى وهذه نظرة سائدة فى الكتابين معا[2].

٤-فليس هناك على الإطلاق أى اختلاف فى كلام عبد القاهر فى كتابيه، وليس هناك اضطراب فى موقف عبد القاهر من البلاغة - ومن قضية اللفظ والمعنى.

- ٢ -

إن البلاغة عند عبد القاهر :

١-لا ترجع إلى اللفظ وحده، وفى ذلك يقول عبد القاهر فى أول كتابه "أسرار البلاغة": أما رجوع الاستحسان إلى اللفظ، من غير شرك من المعنى فيه، فلا يكاد يعدو نمطا واحدا، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم، ولا يكون وحشيا غريبا، أو عاميا سخيفا[3]، ويؤكد أن البلاغة ليست فى اللفظ بل فى النظم بما يقرره من أن الاختلاف فى فصيلة الكلام وبلاغته ليس بمجرد اللفظ بل بالنظم.

---

(1) راجع ١٨٥ البيان العربى لطبانة - طبعة ثالثة .
(2) ص٣ سطر ٦ - ٩ أسرار البلاغة ط١٩٥٩ - تعليق محمد رشيد رضا .
(3) ص٢ سطر ٢ - ١٠ المرجع .

ويرد على من يحاول الاعتراض على عبد القاهر بالتجنيس فيقرر أن بلاغة التجنيس ليست باللفظ وحده، بل لا تتم إلا بنصرة المعنى أى النظم .. وهذا هو ما يقرره عبد القاهر من أن البلاغة إنما هى فى النظم لا فى اللفظة المفردة.

٢-وكذلك لا ترجع البلاغة عند عبد القاهر إلى المعنى وحده، فإن من الداء الدوى غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل من الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى، يقول: ما فى اللفظ لولا المعنى، وهل الكلام إلا بمعناه، فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر، فإن مال إلى اللفظ شيئا لم يعرف غير الاستعارة، وإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق لأنا لا نرى متقدما فى علم البلاغة إلا وهو ينكر هذا الرأى ويعيبه[1] وليس ذلك فى رأى عبد القاهر ناشئا عن الجهل بأن المعنى إذا كان أدبا أو حكمة أو كان غريبا نادرا، كان أشرف من غيره، ولكن لأن التقديم إذا كان على أساس المعنى - هذا - لم يكن للكلام من حيث هو شعر وكلام[2]. وهذا هو نفس ما يقرره عبد القاهر فى الدلائل وفى أسرار البلاغة، وما قرره الجاحظ من قبل من أن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى[3].

٣- وإنما ترجع البلاغة عند عبد القاهر إلى النظم باعتباره توخيا لمعانى النحو فيما بين الكلم، فالبلاغة تعود إلى معانى الأسلوب، والنظم هو مظهر هذه البلاغة، وهذه المعانى التى يفيض عبد القاهر فى شرحها وبيان أسرارها فى كل أسلوب وفى كل تصوير: وهو ما أشار إليه الجاحظ من قبل من أن الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج. وفى صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير.

---

(1) راجع ١٦٤ دلائل الإعجاز المكتبة المحمودية.

(2) ١٦٦ المرجع نفسه.

(3) ٣: ٤٠ و ٤١ الحيوان طبعة الشاسى - القاهرة ١٣٢٣هـ

وهكذا تجد عبد القاهر فى الأسرار يؤكد نظرته التى ذهب إليها، وهى أن البلاغة لا تعود إلى اللفظ بل إلى النظم من حيث هو مراعاة لمعانى النحو فيما بين الكلم، ويؤكد هذه القضية فى كل مجال حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه[١]. وكذلك لا شبهة فى أن المطابقة والاستعارة وسائر أقسام البديع لا يعترضها الحسن والقبيح إلا من جهة المعانى خاصة[٢] ثم يفسر لنا عبد القاهر غرضه من كتابه (الأسرار)، ويؤكد نظريته فى النظم ومعانى النحو.

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام على الاستعارة[٣]، ثم التشبيه والتمثيل[٤]، ثم الفرق بين الاستعارة والتمثيل[٥]، ويشرح الاستعارة التمثيلية[٦]، ويتحدث عن الأخذ والسرقة[٧]، ويبدأ بتقسيم المعانى إلى عقلية وتخييلية ويتكلم عن كل قسم منها وصوره وألوانه[٨] .. كما يتكلم على الأخذ والسرقة. وعلى أقسام المعانى من عقلية وتخييلية، وعن المجاز العقلى واللغوى والمجاز بالحذف .. وبذلك ينتهى الكتاب.

ويشرح لنا عبد القاهر سر ترتيب فصول الكتاب فيقول: اعلم أن الذى يوحيه ظاهر الأمر أن نبدأ بجملة من القول فى الحقيقة والمجاز، ونتبع ذلك القول فى التشبيه، التمثيل، ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما، ونأتى بها فى أثرها، وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة، والواجب أن نبدأ بالعام قبل الخاص، والتشبيه كالأصل فى الاستعارة، وهى شبيهة بالفرع له. أو صورة تقتضيه من صوره، إلا أن ها هنا أمورا اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة وبيان صور منها، والتنبيه على طريق الانقسام فيها، حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها، عطف عنان الشرح إلى

(١) ص٧ سطر ! و٢ أسرار البلاغة ط ١٩٥٩ .
(٢) ص١٤ سطر ١ و ٢ أسرار البلاغة ط ١٩٥٩ .
(٣) ٢٠ - ٦٤ المرجع .
(٤) ٦٤ - ١٩٢ المرجع .
(٥) ١٩٢ - ٢٠٧ المرجع .
(٦) ٢٠٧ - ٢١٠ المرجع .
(٧) ٢١١ المرجع وما بعدها .
(٨) فالمعانى العقلية يتحدث عنهافى ٢١١ - ٢١٣ الأسرار، والمعانى التخييلية كذلك (ص٢١٤ وما بعدها).

الفصلين الآخرين، فوفى حقوقهما، وبين فروقهما، ثم ننصرف إلى استقصاء القول في الاستعارة[1].

– ٤ –

وإذا كان عبد القاهر قد عرض للتشبيه والاستعارة والكناية فى الدلائل، فإنما عرض لها البيان ارتباطها بالنظم والمعنى، بينما عرض لها فى الأسرار لمعرفة أقسامها والفروق بين بعضها وبعض، ومعرفة القوى والضعيف من هذه الأقسام والأمر في السرقة كذلك، فقد عرض لها فى الدلائل لبيان أن اللفظ تابع للمعنى وأن المعنى يغير بتغير الصور، وفى الأسرار لبيان أنها إنما تكون فى المعانى خاصة.

إن المعنى وحده – الغرض والفكرة – مشترك عام بين الناس جميعا، ولكنه ملك لمن يصوره ويثبته فى الأذهان، فللناس أفكار واحدة بوجه التقريب، ولكن الأسلوب هو الذى يفرق بين كاتب وكاتب كما يقول فولتير.

وإلى هذا يذهب العقاد، ويقرر عبد القاهر خاصية الأسلوب، وملكية كل أديب لأسلوبه، وأن الأسلوب هو الذى يميز بين موهبة وموهبة، وبين شاعر وشاعر، وهذا الأسلوب ليس سردا لألفاظ، بل ترتيبا لمعانيها وفق ترتبها فى النفس. فهو المقصود من كلام عبد القاهر على المعنى، وأنه الذى يستحق أن تكون فيه المزية والفضيلة والاختصاص.

ففكرة عبد القاهر فى البلاغة أنها راجعة إلى النظم والأسلوب والصياغة والتصوير، وأن هذا الأسلوب هو مجال الإبداع الفنى، وموطن الخلق الأدبى، ففيه تتميز المواهب وتختلف الأذواق، وتتباين المراتب والأقدار، ومن ثم فقد شرح فى "الدلائل" هذه النظرية، وبنى عليها تطبيقا واسعا فى "أسرار البلاغة" لفنون التشبيه والتمثيل والمجاز والكناية وألوان المحسنات البديعية.

ومن ثم فإن دلائل الإعجاز أسبق فى التأليف على الأرجح من أسرار البلاغة. فدلائل الإعجاز يتضمن قضية وشرحها، والأسرار يتضمن تطبيقا واسعا على بعض دعائم هذه القضية، ولذلك نراه فى صدر الكتاب يوجز فى بيان هذه والنظرية التى بسط الكلام عليها فى الدلائل. وهى نظريته فى النظم. ثم يبنى عليها أحكامه

---

[1] ٢٩ و ٣٠ الأسرار ١٩٥٩ .

الواسعة الجيدة التطبيق على الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية والمجاز والأخذ والسرقة، وضروب المعانى التحقيقية والتخييلية .

- ٥ -

العلاقة بين الشكل والمضمون

على أن عبقرية العمل الأدبى تظهر فى أمرين :

١-الشكل الذى يختاره الأديب مظهرا للحقيقة الجمالية .

٢-الكلمة من حيث علاقاتها اللزومية المرتبطة بمعناها.

أما الشكل (النظم أو الصورة أو الصياغة أو الأسلوب) فقد درس عبد القاهر وجوهه البلاغية فى كتابه "دلائل الإعجاز" دراسة مفصلة.

أما ما يتصل بالشكل وهو الكلمة من حيث دلالتها على معانيها اللزومية فى المجاز والاستعارة والكناية، وصلة ذلك بالتشبيه والتمثيل، ومن حيث دلالتها كذلك على المعانى التحقيقية والتخييلية والعامية والخاصية، فإن ذلك كله وثيق الصلة بالخلق الأدبى من ناحية، وبالنظم والصياغة من ناحية أخرى، وهو ما بحثه عبد القاهر فى "أسرار البلاغة" بحثا مفصلا، وجعله من المحاسن التى يكون النظم السبب فيها.

- ٦ -

أهمية الكتاب فى النقد

وفى كتاب "أسرار البلاغة" تظهر بوضوح ملكة عبد القاهر الجرجانى كناقد من أعظم النقاد العرب، الذين يدركون بأذواقهم أسرار الكلام، ودقائق بلاغاته، ويفرقون بمشاعرهم الفنية بين أسلوب وأسلوب، ولفظة ولفظة، وحرف وحرف.. ومع أن عبد القاهر قد استفاد من جهود النقاد العرب قبله فإنه كان ذروة لم يصل إليها أحد من قبله ولا من بعده، وكان قوة تجديدية كبيرة فى الأدب ونقده وفهم موازينه وإدراك أسرار بلاغاته على السواء.

وفى الأسرار أروع الفصول التحليلية فى النقد، والجديد المبتكر من الدراسات لخصائص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية، وأعمق الآراء وأطرفها فى الكثير من مشكلات البيان حتى عصر الجرجانى، ويمتاز كتاب الأسرار

بربطه بين النقد والتأثير النفسى للنص الأدبى، وبمحاولاته الجديدة فى سبيل الكشف عن مدى هذا التأثير، وأثره فى بلاغة النص، وكل ذلك مما جعل للكتاب أهمية كبيرة، ومنزلة ضخمة فى النقد الأدبى.

- ٧ -

عبد القاهر ومذهبه النقدى

ولقد كان النقاد قبل عبد القاهر الجرجانى يفصلون بين اللفظ والمعنى أو بين الشكل والمضمون، أو بين الصورة والمحتوى، ويتحدثون عنهما كعنصرين مستقلين تمام الاستقلال، وجاء ابن رشيق صاحب العمدة، فحاول إيجاد صلة بين هذين العنصرين. فقال: اللفظ جسم وروحه المعنى، وإذا كان لا يمكن الفصل بين الجسم والروح فكذلك لا يمكن الفصل بين اللفظ والمعنى، إذ هما متلازمان، وهذه هى كانت نظرة النقد اليونانى، فقد أشار أرسطو إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى، وإلى وحدة العمل الأدبى، وأن بين المعنى واللفظ تلازما دقيقا، وعند الفلاسفة الجماليين الغربيين المحدثين كذلك أن الفصل بين الصورة والمضمون غير ممكن فى فهم الجمال الفنى وتذوقه والحكم عليه، فهما وجها النموذج الأدبى فليس هناك مضمون وصورة، بل هما شىء واحد، فلا فارق بين المعنى واللفظ فى أى نموذج أدبى، إلا إذا جعلنا المعنى هو الأحاسيس الأولى عند الأديب قبل أن تستوى فى الصورة الأدبية. وهذه لا شأن لنا بها، إنما الشأن فى المعانى التى يحتويها النموذج الأدبى، وهى لا توجد قبل وجوده إلا وجودا غامضا، إنما يتم وجودها حين تصاغ، وحين تأخذ شكل قالبها المعين، وتبرز واضحة فيه بكل خصائصها الفكرية واللفظية، فمادة النموذج الأدبى وصورته لا تفترقان، فهما كل واحدة .. وكان عبد القاهر الجرجانى من أعظم النقاد العرب الذين اهتدوا إلى هذه العلاقات بين الألفاظ والمعانى فى الأدب، وسماها النظم. وعرفه بأنه تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض. وفند رأى من يجعل مدار البلاغة على اللفظ أو على المعنى. ورأى أنها إنما هى فى العلاقة بين الألفاظ فى العبارات وبين المعانى. وأكد أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق، بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل. وهو ما اهتدى إليه فيما بعد أعلام الفلسفة الجمالية مسترشدة بمثل بحوث عبد القاهر الرائدة فى الجمال الأدبى وسره وتحليله، بينما تجد أن

الكلاسيكيين يرفعون من شأن الصورة أو الشكل، والرومانسيين يهتمون بالمعنى ويقدمونه على اللفظ، ودعاة مذهب الفن للفن يحررون النص الأدبى من كل قيود المضمون والمحتوى، ما دام النص يغذى حاسة الجمال فينا، ودعاة الرمزية يهتمون اهتماما خاصا بما توحيه الصورة والألفاظ من رموز ومجازات عن طريق موسيقاها وأصواتها، ودعاة الواقعية يعودون للاهتمام بالمضمون فى النص الأدبى وإن كانوا لا يجردون الشكل من الجمال الفنى[1]، فإن فلسفة الجماليين تبرز دائما هذه الصفات النقدية صورة للمشاعر الفنية التى تؤكد وحدة العمل الأدبى، وتربط بين مضامينه وأشكاله برباط وثيق من الوحدة والالتحام، وفلسفة عبد القاهر اللغوية واضحة كل الوضوح فى أنها ذات قيم جمالية معبرة فلا فارق بين المعنى والصورة عنده فى النص الأدبى، واللفظ يستمد بلاغته من أنه ظل للمعنى والمعنى يستمد مزيته من حيث إنه المادة التى يصوغها اللفظ.

وهكذا يصح لنا أن نقول: إن عبد القاهر كان مقدمة رائعة للفلسفة الجمالية كما صورها دعاتها فى أوروبا بعد عبد القاهر بقرون كثيرة.

وإذا كان الناقد الإيطالى المشهور كروتشيه (١٩٥٢م) يعتد بالشكل الأدبى ويرى أن الحقيقة الجمالية إنما هى فيه، لا فى المضمون، ولا قيمة عنده للفظ المفرد، فإن فلسفته الجمالية تكاد تكون مأخوذة من عبد القاهر الجرجانى، ومقتبسة منه، فالشكل[2] عنده هو النظم عند عبد القاهر، وهما معا يجمعان بين اللفظ والمعنى فى الأسلوب، ويتفق الناقدان الكبيران فى الاعتداد بالشكل أو النظم وحده فى الحقيقة الجمالية، وهكذا تتجلى لنا عظمة ناقدنا العربى الكبير، الذى كانت فلسفته الجمالية قمة عالية وصل إليها النقد الأدبى.

---

(1) راجع فى هذا ١٦٢ – ١٩٦ فى النقد الأدبى لشوقى ضيف.

(2) يحدد كروتشيه المضمون بأنه الأحاسيس أو الناحية الانفعالية قبل صقلها صقلا جماليا، أما الشكل عنده فهو صقلها وإبرازها فى تعبير عن طريق النشاط الفكرى، ولا قيمة عنده فى الشكل للكلمات المفردة، من حيث هى مادة للتعبير، ولا من حيث الجرس والصوت منفصلين من المعنى والصورة. ومن الجماليين من يجعل المضمون هو التعبير أو الحقيقة النفسية المتجلية فى التعبير، ويقصد بالشكل المادة الغفل للتصوير الفنى كالألوان للتصوير مثلا، وهذا عكس ما ذهب إليه كروتشيه الذى ذهب إلى أن البلاغة فى الشكل والجمالية فيه، كما هو رأى عبد القاهر، فالشكل أو النظم لا فصل بينهما عند الناقدين العالميين، أى بين اللفظ والمعنى على ما قررناه.

- ٨ -

فالغاية الأولى التى يقصدها عبد القاهر من الأسرار هى تحقيق أمر المعانى[١]، وإن ضروب البيان ترجع إلى ائتلاف المعنى أكثر مما ترجع إلى سحر اللفظ، وإن المعنى هو الذى يتطلب كل شىء، وإن المعانى قسمان: معان عقلية ومعان تخييلية، فالمعانى العقلية قد تكون حقيقة، وقد تكون مجازا واستعارة وتشبيها وتمثيلا ومجازا عقليا أو لغويا، وأما المعانى التخييلية فلها ضروب شتى وأنواع ساحرة.

ثم المعانى خاصية وعامية، والعامية قد تصير بالتحوير والصياغة خاصية، والمعانى الخاصية هى التى يحكم فيها بالسرقة دون العامية .

- ٩ -

وخلاصة بحوث "أسرار البلاغة" هى بيان ما يأتى :

أ - يذكر فضيلة البيان وألوانه الساحرة، وأن سحر الكلام فى حسن نظمه وتأليفه[٢]:

وقد أوضح عبد القاهر إثر ذلك غايته وفكرته التى يريد إيضاحها فى كتابه، وهى بيان أمر المعانى وأحوالها وتفصيل أجناسها وأنواعها[٣].

ب- وتكلم على الاستعارة وأقسامها وألوانها فى إفاضة[٤].

جـ - وذكر التشبيه والتمثيل ومظاهرهما وحقيقتهما وبلاغتهما وأقسامهما فى إفاضة ودقة وتحليل[٥].

وعقد موازنات جيدة بين التشبيه والتمثيل[٦]. وذكر أسلوب التجريد ومنع أن يكون استعارة أو تشبيها[٧].

---

(١) ١٩ أسرار البلاغة .
(٢) ١٠ - ١٨ الأسرار .
(٣) ١٩ - ٢٠ المرجع .
(٤) ٢٢- ٧٠ المرجع .
(٥) ٧٠- ١٧٦ المرجع .
(٦) ١٧٧ - ٢٠٦ المرجع .
(٧) ٢٩١ - ٢٩٢ المرجع .

ثم فرق بين الاستعارة والتمثيل فى إفاضة[١]. وفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ[٢].

د - ثم تكلم عن المعانى العقلية والتخييلية وألوانها وبلاغة كل منها، وآثر جانب الحقيقة على جانب الخيال وذكر أنه أعز جانبا وأكثر اتساعا مما يظنون، وحلل معنى قولهم : أعذب الشعر أكذبه، وأنهم إنما أرادوا به التدقيق فى المعانى والتعمل فيها، ولا وصف الوضيع بأوصاف العظيم وما شاكله.

كما تكلم على الأخذ والسرقة والاستعانة[٣].

هـ - وأفاض فى شرح حدى المجاز والحقيقة، وفى الكلام على المجاز العقلى وحقيقته[٤]، وتكلم على أنواع من المجاز اللغوى والمجاز بالحذف، وعلى بعض جوانب الاستعارة .. وبذلك ينتهى الكتاب .

ولقد أساء عبد القاهر عرض أفكاره فى كتابه الأسرار وكذلك فى الدلائل، فخرج تأليفه مشوها مضطربا معادا مكرورا.

ولذلك نجد البحث الواحد قد يكرره فى الكتاب، وقد يذكر بعضه فى كتاب ويكمله فى كتاب آخر:

فالتجنيس والسجع مثلا بحثهما عبد القاهر فى الأسرار[٥] وفى الدلائل[٦].

والتعقيد اللفظى تجده مفرقا فى الأسرار[٧].

والاستعارة فى مواضع متعددة من الأسرار والدلائل .. وكذلك التشبيه والتمثيل.

والاتفاق والأخذ والسرقة عرض لها عبد القاهر فى الأسرار[٨] وفى الدلائل[٩].

---

(١) ٢٠٧ – ٢٢٣ المرجع .
(٢) ٢٧٧ – ٢٩٠ المرجع .
(٣) ٢٦٣ – ٣٠٢ المرجع .
(٤) ٣٠٢ – ٣٤٢ المرجع .
(٥) ٤ – ١٤ الأسرار .
(٦) ص ٤٠ الدلائل .
(٧) ١٥ و ١٢٠ الأسرار .
(٨) ٢٩٣ – ٣٠٢ الأسرار .
(٩) ٢٦٩ – ٢٧٢ – ٣٩١ الدلائل .

والمجاز العقلى واللغوى أفاض فى الحديث عنهما فى الأسرار والدلائل، وذكر بلاغة المجاز الحكمى فى الدلائل[1].

وتكلم على الكفاية فى الصفة وفى الإثبات[2] فى مواضع عدة.

وذكر الشعر وأثره وسحره موزعا فى الكتابين .. إلى آخر هذه البحوث الموزعة المفرقة.

وعبد القاهر عالم لا مؤلف، وحسبك أن كتابه الدلائل صورة مشوهة للتأليف، فهو لا يعرف أن يكتب الفكرة فى صفحات مستقلة وإنما هو يبدئ، ويعيد، ويأتى من هاهنا وهاهنا، ويكرر ويكثر التكرير حتى يخرج إلى الهذر، ويذكر جزءا من الفكرة هنا وجزءها الآخر هناك، كذلك كان صنيعه فى "الأسرار"، وحسبك أنه بدأ الكلام على الاستعارة وبنى الكلام على فرع لم يذكر أصله (وهو التشبيه) فأداه ذلك إلى التكرار والإحالة.

وقصارى القول إن عبد القاهر قد بحث فى أسرار البلاغة والمعانى ووجوهها، وكيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وتتبع خاصيها ومشاعها، وفصل أجناسها وأنواعها[3]، وخص كثيرا من كتابه ببحث المجاز والاستعارة والتمثيل والتشبيه والتخييل لأنها صور المعانى ولأنها القطب الذى تدور حوله البلاغة[4].

وألف كتابه "دلائل الإعجاز" وأثبت فيه أن المزية والوصف الذى كان به الإعجاز هو الفصاحة والبلاغة والبيان، وأن هذه المزية والفصاحة ليست إلا حسن الدلالة وتمامها وتبهرجها فى صورة رائعة من النظم. أو هى أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو أخص به[5]، وأنه لا مزية للعبارة على الأخرى إلا بقوة دلالتها على الغرض المقصود، وذلك راجع إلى النظم[6]،

---

(1) ٢٢٧ – ٢٣٦ الدلائل.
(2) ١٣٥ – ٢٤٢ و٣٤٣ الدلائل.
(3) ص١٩ الأسرار.
(4) ٤٩٩ الدلائل.
(5) ٣٥ الدلائل.
(6) ١٩٩ المرجع.

ولا مزية فى اللفظة المفردة إلا من جهة ضئيلة[١]، وأن الفصاحة والبلاغة راجعة إلى المعانى وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها[٢]، فالألفاظ تبع للمعانى لا العكس[٣]، والفصاحة صفة للفظ من حيث إنه دال على المعنى[٤]، وليس النظم إلا توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم[٥]، فالنظم فى معانى الكلم دون ألفاظها بتوخى معانى النحو فيها[٦]، ومداره على معانى النحو ووجوهه وفروقه[٧]. وليس للمزية موضع تكون فيه إلا معانى النحو وأحكامه[٨].

ورد على من جعل الألفاظ من حيث هى ألفاظ موضع الفصاحة والبيان وكشف شبههم[٩]، كما نعى على من أغفل النظم، وأخذ يبحث عن المعنى وحده بدون التفات إلى الصورة التى خرج فيها والنظم الذى ظهر به[١٠]، فهو يعيب على من يخص بالمزية الألفاظ من حيث هى ألفاظ، ومن حيث هى كلم مفردة، ويعيب على من ينظر إلى المعنى من حيث هو معنى بدون التفات إلى صورته.

ويجعل البلاغة والبيان والفصاحة راجعة إلى النظم الذى هو ألفاظ منظومة اقتفى فى نظمها آثار المعانى وخرجت وفق أحكام النحو ومعانيه ووجوهه.

ولعبد القاهر آراء وأحكام أدبية متعددة على الأدباء والشعراء. فى الأسرار:

أ – فقد ذكر أبا تمام واستكراهه للألفاظ فى سبيل طلب التجنيس[١١] وأشار إلى تعسفه فى اللفظ وإلى أخطائه مما جناه عليه التهاون، وعدم مبالاته فى كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين اللفظ[١٢].

---

(١) ٣٥ و٣٦ و٤٦ و٤٠١ و٥٠ و٣٥٣ المرجع.
(٢) ١٩١ و٣١٨ و٣٩٨ المرجع.
(٣) ٤٥ و٢٨٥ و٣٢٠ المرجع.
(٤) ٢٥٠ الدلائل.
(٥) ٣٠٠ و ٤٠٣ الدلائل، ص١، من المدخل للدلائل، ٦٤ ، ٦٨ الدلائل.
(٦) ٣١٧ الدلائل.
(٧) ٦٩ الدلائل.
(٨) ص٣٠١ الدلائل.
(٩) ٢٨٨ و٣٠١ و ٣٤٨ المرجع.
(١٠) ١٩٤ – ١٩٨ المرجع.
(١١) ١١ الأسرار.
(١٢) ١٢٠ و١٢١ الأسرار.

ب- وذكر البحترى وتقريبه المعنى البعيد بالتسهيل فى الأسلوب[1].

جـ - وذكر ابن المعتز وأن طريقه طريق أبى تمام وأنه لم يكن من المطبوعين[2].

- ١٠ -

هذا هو جوهر كتاب أسرار البلاغة .. غير أن لى نقدا عليه فى جعله الاستعارة من المعانى التحقيقية دون التخييلية، وإنى أرى أنها تخييل لا تحقيق:

قال عبد القاهر : إن الاستعارة ليست من باب التخييل .. إنما هى من باب التحقيق :

أ - لأن المستعير لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة وإنما يقصد إثبات شبه هناك.

ب- ووجودها فى القرآن والحديث يؤيد ذلك.

جـ- ثم هى تعتمد التشبيه والتشبيه قياس والقياس يجرى فى المعقول[3].

د - وفرق بين التخييل الذى هو إثبات أمر غير ثابت أصلا بين الاستعارة التى يثبت بها أمر عقلى صحيح[4].

هـ - وآراء علماء النقد كالآمدى والجرجانى وسواهما تؤيد ذلك[5].

وأقول : إن الاستعارة لا تعتمد التشبيه أبدا وإنما هى مبنية على جعل حقيقة أخرى على سبيل المبالغة[6].

ودليلنا على ذلك ما يأتى :

أ - أن نوعا من الاستعارة وهو العنادية لا تشبيه فيه[7].

ب- الاستعارة مبنية على التخييل لا على الحقيقة، والتخييل لا يعتمد التشبيه.

جـ - قالوا : إن هناك استعارة شديدة التخييل يتناسى فيها المستعير التشبيه. ويصرف النفس عن مذهبه، مثل:

---

(1) ١٢٤ الأسرار.
(2) ٢٦٢ الأسرار.
(3) ٤١ و٢٣٧ الأسرار.
(4) ٢٣٨ و٢٣٩ المرجع.
(5) ٣٤٦ المرجع.
(6) ٢٧٨ المرجع.
(7) ٦٨ المرجع.

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء[1]

د - في الاستعارة الصحيحة ما لا يحسن دخول أدوات التشبيه فيها[2].

وذلك كالنور إذا استعير للعلم والظلمة للجهل مثلا، وكلما كان الشبه بين الشيئين أخفى وأدق وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن.

هـ - على أن الاستعارة في الادعاء لا في النقل[3].

وقد تكلم عبد القاهر في الأسرار عن الاستعارة المكنية وحلل أساليبها. وهي عندي استعارة تمثيلية حذف بعض أجزائها بدليل ما يأتي:

أ - أن المشبه فيها لا يمكن أن يكون ذاتا أو شبه ذات ينص عليه ويشار إليه.

ب- وأن المشبه به في مثل يد الشمال ليس هو اليد التي ذكرها لبيد في بيته بل هو ما أضيف إليه اليد[4].

جـ - ويظهر روح التمثيل في بعض أمثلتها بوضوح وجلاء، وفي البعض الآخر تدق فيها فكرة التمثيل.

---

(1) ٢٦٢ - ٢٧٧ الأسرار.

(2) ٢٨٨ و٢٨٩ المرجع.

(3) ٣٥٤ الأسرار، ٢٨ الدلائل.

(4) ٣٤ - ٣٦ الأسرار.

الكامل فى التاريخ
لابن الأثير

— ١ —

"الكامل فى التاريخ" للعلامة الكبير، والمؤرخ الأمين، أبى الحسن عز الدين على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، المعروف بابن الأثير الجزرى .. من أسرة علمية كبيرة.

بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم وتجويده ورواية الأحاديث النبوية، ودراسة تراجم العلماء والرواة والمحدثين، وكان ثالث اثنين من إخوته، طارت شهرتهم، وذاعت أسماؤهم فى العالم الإسلامى.

وعرف كل واحد منهم باسم "الأثير".

فأولهم هو المؤرخ الحجة صاحب كتاب الكامل المتوفى عام ٦٣٠هـ.

وثانيهم: هو الأديب الناقد صاحب كتاب "المثل" السائر فى الأدب والنظر والبلاغة" وتوفى عام ٦٣٧هـ.

وثالثهم : هو المحدث الفقيه المتوفى عام ٦٣٥هـ.

وقد شهد لثلاثتهم بالفضل والعلم الغزير، والمكانة العلمية الرفيعة.

— ٢ —

اتجه مؤرخنا فى صدر شبابه إلى العناية بعلوم العربية من لغة ونحو وأدب، واستظهر الكثير من أشعار الجاهليين والإسلاميين، قضى جل حياته فى بلاد الموصل، وكثيرا ما ارتحل فى طلب العلم والأخذ عن شيوخه، وعنى أكثر ما عنى بالتاريخ وكتب الطبقات حتى صارت له مدرسة علمية متميزة فى التاريخ، وتتلمذ عليه جيل كبير من الطلاب، وله كتب كثيرة، أشهرها كتاب "الكامل".

ويجمع الباحثون والمؤرخون من علماء المغرب والمشرق المعاصرين، المهتمين بالتراث الإسلامى وبالتاريخ ودراساته على أن كتابه "الكامل" من أجل المصادر وأصدقها وأوثقها فى التاريخ الإسلامى، وفى أخبار الشعوب العربية وما جاورها من

الأمم الأخرى التى عايشتها فى أقطار المشرق والمغرب، واتصلت بها اتصالا سياسيا أو ثقافيا، أو تعاملت معها فى مختلف المجالات الاقتصادية منذ عهد الدولة السبئية التى اشتهر أمرها فى بلاد اليمن قبل الإسلام بنحو ألف عام، حتى عصر الدولة الأيوبية فى مصر والشام فى عصر الحروب الصليبية حروب التتار، وهو العصر الذى ألف ابن الأثير فيه كتابه "الكامل" منذ سقوط الدولة الفاطمية فى مصر عام ٥٦٧هـ، وابتداء عهد الدولة الأيوبية فى مصر والشام وتولى صلاح الدين الأيوبى حكم مصر.

– ٣ –

وقد أجمل ابن الأثير العوامل والأسباب التى دعته لتأليف كتابه "الكامل" فى مقدمة كتابه، فقال: "لقد ترك كلهم العظيم من الحادثات – يريد الذين ألفوا فى التاريخ قبله – والمشهور من الكائنات وسود الكثير منهم الأوراق بصغائر الأمور، وقد أرخ كل منهم إلى زمانه، وجاء بعده من ذيل عليه، وأضاف المتجددات بعد تاريخه إليه، والمشرقى منهم قد أخل بذكر أخبار المغرب، والمغربى قد أهمل أحوال المشرق، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج إلى مجلدات كثيرة، وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال.

ومن أجل ذلك كله كتب ابن الأثير كتابه على نسق فريد، ونحو جديد؛ فتدارك فيه على سابقيه ما كانوا قد أجملوه، وأوضح ما أغمضوه، وجمع فيه شتى الفوائد، واحتوى أجل الأحداث، وأصدق الوقائع؛ مع تحرى صحة الرواية وحسن الدراية، بغية استفادة الطلاب وتحصيلهم.

– ٤ –

فى الجزء الأول من "الكامل" تحدث ابن الأثير عن علم التاريخ وأهميته ومذاهبه ومدارسه ومصادره، ونوه بدراسات التاريخ، فإن الإنسان كما يقول صاحب "الكامل" إذا ما عرف أحوال السابقين. ووقف على أخبار الغابرين، وحين يقرأ أخبار هذا الملك أو ذاك الخليفة، أو هذا العالم أو ذلك الأديب. فإنه يشعر وكأنه كان يعيش معه، ومن ثم فإنه – أى القارئ – يشعر بطول العمر، ويتذوق طعم أمد

البقاء، كما أنه - أى الذى يدرس التاريخ - يعتبر بما وقع للماضين، ويتعظ بما جرى للسالفين، ويذكر ابن الأثير أن دراسة التاريخ تدعو الدارس إلى التجمل بالصبر والتحلى بالإيمان، ولا غرو فإن الإنسان إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبى مكرم ولا ملك عظيم، بل ولا أحد من البشر، فإنه - لا شك - يعلم علم اليقين أنه قد يصيبه ما أصابهم، وينتابه ما انتابهم، ويقع له من الخير والشر فى العاجلة والآجلة ما قد وقع لأولئك السابقين.

ويحدثنا ابن الأثير فى مستهل تاريخه عن بداية التأريخ فى الإسلام فيقول: قيل لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أمر بعمل التاريخ، والصحيح المشهور أن عمر بن الخطاب أمر بوضع التاريخ، وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس للمشورة فقال بعضهم: أرخ بمبعث النبى ﷺ ، وقال بعضهم بهجرة رسول الله ﷺ فقال عمر : بل نؤرخ بهجرة رسول الله ﷺ ، فإن هجرته فرق بين الحق والباطل، وبهذا أصبح عام هجرة النبى ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، هو مبدأ التاريخ الهجرى الذى عمل به فى أوائل دولة الإسلام، وهو مازال معمولا به حتى اليوم.

وقد اختتم ابن الأثير كتابه "الكامل" بذكر بعض حوادث عام ٦٣٠هـ - ١٢٣٣م، وهو العام الذى توفى فيه مؤلف "الكامل".

وقد كان من أهم الحوادث التى ذكرها ابن الأثير فى الجزء الأخير من الكتاب أمر تسليم بيت المقدس لملك الصليبيين فى "عسقلان" حيث أن السلطان الكامل محمد بن العادل شقيق صلاح الدين الأيوبى قد نزل عن بيت المقدس صلحا إلى ملك عسقلان، ليتفرغ للاستيلاء على دمشق من أخيه الملك الأشرف.

وقد علق ابن الأثير على ذلك الحدث الكبير بقوله : ومازال المسلمون مغمومين بسبب ذلك حتى الآن - أى حتى عام ٦٣٠هـ - ثم اتبع ذلك بالدعاء والتضرع إلى الله عز وجل أن يعيد بيت المقدس إلى المسلمين .

والكامل من أهم المصادر فى زحف المغول التتار على العالم الإسلامى قبل سقوط بغداد فى أيديهم بربع قرن عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م.

- ٥ -

كان من أهم مصادر ابن الأثير التاريخية في كتابه "الكامل" تاريخ شيخ المؤرخين، وإمام المؤلفين في التاريخ ابن جرير الطبرى (المتوفى عام ٣١٠هـ - ٩٠٢)، وفى هذا يقول مؤلف "الكامل" ابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الإمام أبو جعفر الطبرى، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة.

ثم أضاف ابن الأثير إليه ما ليس فى كتاب الطبرى، مما طالعه فى المصادر الأخرى من الأخبار والحوادث التى لم يكن الطبرى قد ذكرها، إما لعدم صحتها لديه أو أنها لم تحدث فى القرون الثلاثة الأولى من العصور الإسلامية، وإنما وقعت فى الأعوام التالية لوفاة الطبرى.

ومنهج ابن الأثير فى الكامل أدخل فى مجال التحقيق العالى، والتثبت التاريخى، والتحرى فى الرواية والرجوع إلى كتابات المؤرخين الذين سبقوه بالتأليف والكتابة فى هذا المجال.

وابن الأثير يجمع فى تاريخه أخبار الحادثة أو الواقعة، وإن تعدد زمنها، أو اختلفت بواطنها، فى مكان واحد، وزمن واحد، بحيث تأتى متناسقة متتابعة فى منظومة واحدة، قد أخذ بعضها برقاب بعض، كما أنه يخص كل حادثة ذات بال بترجمة خاصة، مع الإعراض عن شغل الوقت برواية الحوادث الصغار، كل على حدة، بل يجمعها كلها فى سياق واحد فى آخر كل سنة من سنوات تاريخه، فيذكر فى آخر كل عام فرغ من رواية أحداثه ووقائعه وما جرى فيه من حرب أو سلم، تراجم العلماء المشهورين والإعلام النابهين، والفضلاء المعروفين، ملتزما بضبط الأسماء المشتبهة، مما يتحد فى الخط، ويختلف فى اللفظ، كى لا يخلط المتأخرون بين أسماء الأعلام من الرجال والنساء وأسماء المدن والبلدان المختلفة فى البقاع والأصقاع.

وقد ضرب المثل كاملا فى أمانة العالم، وصدق المؤرخ، وصحة الحقيقة، أثابه الله عنا خير الثواب.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

★ ليس فى العالم أحد مثل السيوطى فى كثرة مؤلفاته .

★ السيوطى جدد للأمة الإسلامية دينها فى القرن التاسع الهجرى .

★ كان مفتونا بمصر وعجائبها التى لا يصدقها عقل .

يعتبر هذا الكتاب من أهم الموسوعات التاريخية التى كتبت عن مصر الإسلامية. فلم يفت مؤلفه الإمام جلال الدين السيوطى أن يؤرخ فيه للفكر المصرى وللآثار والخطط المصرية حتى عصره.

ويبدو أن الكتاب من تراث السيوطى الذى كتبه فى أواخر حياته، ففى ترجمته لنفسه فيه يقول عن نفسه فيما يقول: "وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر".

وإذا كان السيوطى قد توفى عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، فلعله يكون قد ألفه فى نهايات القرن التاسع الهجرى وقبل وفاته بنحو أحد عشر عاما أو يزيد قليلا.

وقد طبع الكتاب فى القاهرة طبعات كثيرة طبع بالحجر عام ١٨٦٠م - ١٢٢٧هـ، وطبع فى مطبعة الوطن العربى عام ١٨٨٢م/ ١٢٩٩هـ، وطبع فى مطبعة الموسوعات عام ١٩٠٣م/ ١٣٢١هـ، وفى مطبعة السعادة عام ١٩٠٦م / ١٣٢٤هـ، وقد ذكر هذه الطبعات كلها سركيس فى كتابه "١٠٧٨/١" ولكن الطبعة التى لدى هى طبعة المطبعة الشرقية، وعليها تاريخ الطبع وهو عام ١٣٢٧هـ، وقد طبع فى القاهرة طبعة حديثة محققة عام ١٩٦٧ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ومن قبل طبع جزء صغير منه مع ترجمة لاتينية فى خمسين صفحة فى أوبسالا عام ١٨٣٤م باهتمام ترنبرج .. وفى مكتبة جامعة الرياض نسخة خطية منه برقم ١٠٥٦، تم نسخها عام ١٠٠٦هـ وتقع فى ٢٨٣ ورقة.

★ آية فى سرعة الكتابة

وللسيوطى آثار كثيرة فى التاريخ، من مثل كتبه: تاريخ الخلفاء، وتاريخ السلطان الأشرف قايتباى، وتاريخ الصحابة، وتاريخ أسيوط، ومن أجلها كتابه

"حسن المحاضرة". وله فى التراجم لأعلام الثقافة العربية الإسلامية كتب كثيرة من مثل: طبقات المفسرين، وطبقات الحفاظ، وطبقات الأصوليين، وطبقات الشافعية، وطبقات الأولياء الذى سماه "حلية الأولياء"، وطبقات الكتاب، وطبقات شعراء العرب، وطبقات النحويين، ومناقب أبى حنيفة، ومناقب مالك، و"نظم العقيان فى أعيان الأعيان" الذى يحتوى على مائتى ترجمة لأعلام عصره، ونشره فيليب حتى، وله كذلك: الرحلة الملكية، والرحلة الفيومية، والرحلة الدمياطية إلى غير ذلك من تراثه الذى يتصل بالتاريخ.

وقد عاش السيوطى حياته كلها وهو يؤمن بوطنه العظيم، مصر الخالدة، إيمانا كبيرا، ويؤمن بحضارتها الفكرية والمادية، ويؤمن بتاريخها وعروبتها وإسلامها إيمانا راسخا.

وكان السيوطى مولعا بقراءة التاريخ المصرى، ومتأثرا بمدرسة المؤرخين المصريين الذين عاشوا فى القرن التاسع الهجرى خاصة، والذين عاشوا قبل ذلك عامة، وكان فيه انطباعات كثيرة عن فلسفة ابن خلدون للتاريخ، وكان ابن خلدون قد هاجر من تونس إلى القاهرة عام ١٣٨٢هـ، وأقام فيها، وألقى محاضراته فى الجامع الأزهر وفى المدرسة القمحية وغيرهما، وتوفى فى القاهرة عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م. كما تأثر السيوطى بالمقريزى، وابن حجر وغيرهما من أعلام المؤرخين فى القرن التاسع وكان من بينهم معاصر السيوطى، المؤرخ ابن إياس، صاحب كتاب "الضوء اللامع" فى أعيان القرن التاسع.

وكان السيوطى من الأعلام الكبيرة التى عاشت جل حياتها فى القرن التاسع الهجرى "٨٤٩ - ٩١١هـ: ١٤٤٥ - ١٥٠٥م"، وكان والده من كبار علماء عصره وقضاته، وكانت أسرته تنتمى فى أصولها البعيدة إلى أصول بغدادية، وهاجرت إلى مصر فى عصر الدولة الأيوبية على وجه التقريب، ولعل مما يؤيد هذا تقرب هذه الأسرة إلى الخلفاء العباسيين فى القاهرة، ونجد السيوطى يجعل عنوان كتاب من كتبه "المتوكلى" نسبة إلى الخليفة العباسى المتوكل على الله فى القاهرة، وقد ولى أبوه مشيخة الجامع الشيخونى فى القاهرة، وتولى السيوطى نفسه كذلك تدريس الفقه فيه أيضا، كما تولى منصب المشيخة فى المدرسة الشيخونية، وهو

المنصب الذى كان يشغله أبوه من قبل، كما شغله أيضا أستاذه الكمال بن الهمام الحنفى "٨٦٢هـ". وتولى السيوطى كذلك منصب الأستاذية فى الحديث والفتوى فى الجامع الطولونى، ودرس الحديث بالخانقاه "بيوت الصوفية" الشيخونية، وتولى مشيخة التصوف بمقبرة برقوق الناصرى، ثم مشيخة المدرسة البيبرسية، وهى أكبر خوانق القاهرة آنذاك، وأكبرها أوقافا فى عصره.

وعاش السيوطى حياته كلها مع الكتاب والتأليف والتدريس والفتيا، ومع تلاميذه ومريديه، ولكنه فى العشرين سنة الأخيرة من حياته اعتزل الناس، ولزم بيته للتأليف والكتابة والقراءة، وكان من ثمرة ذلك كله كتبه الموسوعية الكبيرة فى مختلف فروع الثقافة الإسلامية التى عد من أئمتها وروادها الكبار، وقد بلغت مؤلفاته ستمائة كما يذكر ابن إياس المؤرخ الكبير، وذكر السيوطى فى كتابه "حسن المحاضرة" إن مؤلفاته بلغت حتى وقع تأليفه لهذا الكتاب ثلاثمائة.

ويذكر بروكلمان أنها تبلغ أكثر من أربعمائة، وأحصى له المستشرق فلو كل ٥٦١ مؤلفا، وقد تكون بعض مؤلفاته وريقات قليلة ككتابه "المتوكلى" مثلا، وقد تكون أجزاء كثيرة ضخمة ككتابه "الدر المنثور". وغيره.

ويقول تلميذه الداودى "٩٤٥هـ" الشافعى المحدث العلامة فى انبهار بعظمة شيخه السيوطى: كان السيوطى فى سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله".

★ رأس المائة التاسعة

وليس فى العالم من بلغ ما بلغه السيوطى فى كثرة المؤلفات سوى "رامون لول" الأسبانى أحد كتاب العصور الوسطى الذى بلغت مؤلفاته نحو الخمسمائة، وقد كتب فى الفقه والحديث والتفسير، وعلوم العربية، والبلاغة، والأدب، والتاريخ، والتراجم، والرحلات، والأصول، وابتكر علم أصول اللغة، وغيرها.

وانتشرت مؤلفاته فى العالم الإسلامى كافة، وأقبل عليها الطلاب والعلماء والدارسون بشوق ولذة، واعتمد على العقل والنقل، وأضاف إضافات كثيرة وجديدة إلى ما سبق إليه أسلافه من العلماء وكان يعد نفسه المبعوث الإلهى فى القرن التاسع الهجرى، ليجدد للأمة الإسلامية دينها، مصداقا للحديث الشريف: "إن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها".

ومن عظمة إيمان السيوطى بالفكر المصرى الإسلامى أنه قال: "ومن اللطائف أن المبعوثين على رأس أكثر القرون مصريون عمر بن عبد العزيز فى المائة الأولى، والشافعى فى الثانية، وابن دقيق العيد "٧٠٢هـ" فى السابعة، والبلقينى "٧٩١ - ٨٦٨هـ" فى الثامنة، ثم استدرك السيوطى الذى يرى نفسه هو إمام علماء المسلمين فى القرن التاسع الهجرى، فقال: "وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر"، وهو بذلك يعنى نفسه ..

وفى مقدمة كتاب "حسن المحاضرة" يذكر مصادر كتابه العديدة، من مثل: فتوح مصر لابن عبد الحكم، وفضائل مصر للكندى، وتاريخ مصر لابن زولاق، وتاريخ مصر لابن يونس، والخطط للمقريزى، والمسالك لابن فضل الله، والإصابة لابن حجر، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى، وتاريخ الإسلام للذهبى، والعبر للذهبى كذلك، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها من مختلف المصادر.

★ الوظائف السياسية فى عصره

وفى صدر المقدمة يقول السيوطى: "هذا كتاب سميته "حسن المحاضرة، فى أخبار مصر والقاهرة"، أوردت فيه فوائد سنية، وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس، وتكون للوحيد نعم الأنيس".

ثم يتحدث السيوطى فى الجزء الأول من الكتاب عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى ورد فيها ذكر مصر، تنويها بها، وتشريفا لها، ثم يتحدث عن تاريخ مصر القديمة قبل الفتح العربى لها، مما اطلع عليه من روايات ونصوص للمؤرخين من قبله، ويتحدث عن الفتح الإسلامى لها طويلا، ثم يذكر امتدادات الفتح لكل أقاليمها، ومن دخل مصر من الصحابة، ومن التابعين، ومن تابعى التابعين. ويفيض فى ذكر عظمة التاريخ الفكرى والعلمى لمصر، فيتحدث عمن ظهر فى مصر من الأئمة المجتهدين، ومن رواة الحديث وحفاظه، ومن المحدثين، والفقهاء، وأئمة القراء، والأعلام فى العربية، ومن نبغ فيها من الفلاسفة والأطباء والمهندسين وغيرهم.

وفى الجزء الثانى يتابع الحديث عن وطنه العظيم مصر، فيتحدث عن الجوانب السياسية، وعن أمراء مصر وملوكها منذ الفتح الإسلامى إلى عصره، فيذكر

ولاة مصر وملوكها من الفاطميين، والأيوبيين، وسلاطينها من المماليك، والخلفاء العباسيين الذين جلسوا فيها على عرش الخلافة العباسية فى القاهرة.

ويتحدث عن الوظائف السياسية فى عصره وعن قضاة مصر، وعن آثارها الإسلامية: جامع عمرو، وجامع ابن طولون، والجامع الأزهر، وغيرها، كما يتحدث عن المدارس العلمية فى القاهرة، وعن الآثار المصرية وعن النيل، والروضة، والمقياس والخليج المصرى، وغيرها من مختلف الآثار والمشاهد والأحياء.

والسيوطى يكاد يجعل كتابه فى وصف الحياة العلمية والفكرية فى مصر الإسلامية، وفى تاريخها السياسى منذ الفتح الإسلامى، وفى آثارها ومدارسها ونيلها وأحيائها، وكل ما يتصل بها سياسيا وفكريا وحضاريا.

★ عجائب لا يصدقها عقل

والكتاب موسوعة كبيرة فى التاريخ المصرى، وهو مصدر مهم للمؤرخين منذ تأليف الكتاب إلى اليوم، والسيوطى فيه مفتون بمصر: فكرا، وطبيعة، وآثارا.

نقرأ له فى آخر الكتاب وهو يقول: "وكنت أبيت بعض الليالى فى الفسطاط على ساحلها، فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل، أما سور هذه الجزيرة - أى الروضة - الدرى واللون، فلم ينفصل عن مصر، وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها، وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء، وأبصرت فى هذه الجزيرة - الروضة التى كان يقيم السيوطى فيها، وكان منزله بها - إيوانا لجلوسه لم تر عينى مثالا له، ولا يقدر ما أنفق عليه، وفيه من الكتابة بصفائح الذهب والرخام الأبنوسى والكافورى ما يذهل الأفكار، ويستوقف الأبصار، وقد تفرجت كثيرا فى طرق هذه الجزيرة، فقطعت بها عشيات مذهبات، لا تزال لأحزان الغربة مذهبات".

وينقل السيوطى عن على بن سعيد صاحب كتاب "المغرب" أن الخليفة الفاطمى الآمر بنى فيها لزوجته البدوية التى هام فى حبها بناء شبيها بالهودج. كما يذكر أن قلعة الروضة كانت عمدها الضخمة منقولة من مراكز الآثار فى مصر. وأن السلطان قلاوون قد أخذ أعمدة هذه القلعة ليبنى بها المارستان والقبة والمدرسة المنصورية. وكذلك فعل ابنه السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. والسيوطى فى كتابه

مفتون بمصر وبطبيعتها الجميلة، ونيلها الساحر الآثار المصرية ليس مثلها، وعجائبها لا يصدقها عقل.

ويذكر أن بمصر من المدارس والزوايا وبيوت الصوفية "الخوانق" والعمائر الجليلة الفائقة المعدومة المثيل، المفروشة بالرخام، المسقوفة بالأخشاب المدهونة الملمعة بالذهب واللازورد ما لا يحصى.

وينقل السيوطى عن الجاحظ أن عجائب الدنيا ثلاثون: عشرة منها فى بلاد الدنيا، وعشرون فى مصر، ومنها الهرمان.

ويقول عن الأهرام أنها أطول بناء وأعجبه وليس على الأرض بناء أطول منه.

ويذكر منارة الإسكندرية العجيبة، فيقول : ويقال أن الذى بنى منارة الإسكندرية قليوبطرة الملكة "كليوباترا".

ويروى أنه فى عام ٢٤٤هـ/ ٨٥٩م اتفق عيد الأضحى وعيد الفطر لليهود وعيد الشعانين للنصارى فى يوم واحد.

مصر كما يذكر السيوطى ذكرت فى القرآن فى أكثر من ثلاثين موضعا، كما ذكرت فى الحديث النبوى الشريف مرات كثيرة. وفى اعتزاز كبير بمصر يذكر السيوطى من دخل مصر من الأنبياء، ويتحدث عن معجزات الفتح الإسلامى لمصر حديثا طويلا ويمزج السيوطى فى كتابه بين الحقائق التاريخية والأساطير المروية التى تخدم التاريخ، فيذكر نبوءة كاهن مصرى لعمرو بن العاص بأنه سيملك مصر.

ويذكر السيوطى أن القبط الذين كانوا بمدينة "الفرما" حين قدوم عمرو بجيشه الإسلامى كانوا يومئذ لعمرو أعوانا، ويذكر أن القبط كان منهم معظم الجند فى جيش مصر قبيل الفتح العربى لها، ولاشك أن مثل هؤلاء إذا كفوا عن الحماس فى قتال جيش عمرو كان ذلك مدعاة للنصر الكبير الذى ناله القائد العربى المسلم عمرو بن العاص بفتح مصر.

★ الفكر المصرى البناء

ومن عظمة الفكر الإسلامى فى الفتح ما ذكره السيوطى عن حديث حاطب بن أبى بلتعة مع المقوقس أمير مصر من قبل قيصر الروم، وأن حاطبا قال للمقوقس:

"ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل".

ويذكر السيوطى أن سكان مصر فى زمن الفتح العربى كانوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس "أى ستة ملايين". ويفيض فى ذكر فتح الإسكندرية.

ويتتبع السيوطى تاريخ مصر بعد الفتح الإسلامى. مبينا عظمة مصر. التى طبعت العرب الفاتحين بطباعها، وأكسبتهم الروح المصرية الباهرة الأصيلة.

ويحدد السيوطى حدود مصر من رفح والعريش إلى الفرما إلى دمياط ورشيد والإسكندرية وبرقة على الساحل الذى يقع على ضفافه حوض البحر الأبيض المتوسط الجنوبى.

ويذكر بناء القاهرة وسبب تسميتها بهذا الاسم بعد أن كان جوهر قد سماها المنصورية، فلما قدم المعز إليها غير اسمها وسماها "القاهرة".

ولقد عاش السيوطى فى عصر المماليك الذين حكموا الدنيا، ودان لهم المشرق، وامتد نفوذهم من الهند إلى ساحل المحيط الأعظم "الأطلسى"، بعد هزيمتهم للتتار فى عين جالوت، وبعد إجلائهم للصليبيين أجلاء كاملا من سواحل الشام. وكانت مصر فى أيامه بأصالتها وحضارتها وعظمتها ومجدها الكبير، وبامتلاكها لناصية السيطرة العالمية على الشرق، أكبر قوة عسكرية فى العالم، ولم يكن يضارعها على أيامه إلا دولة آل عثمان التى فتحت جيوشها القسطنطينية فى عهد السلطان محمد الفاتح عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م.

وكان السيوطى هو أشهر علماء عصره، وهو مثال رائع للفكر المصرى المتوثب البناء العامل من أجل استمرار الحياة والحضارة والتقدم والازدهار فى بلاده.

كان الشعب المصرى على أيامه يملك زمام التجارة العالمية. وقد جاء البرتغاليون مزاحمين لمصر ولسيادتها البحرية، ولتفوقها التجارى، حتى لقد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح فأخذت تجارة أوروبا تتحول إلى هذا الطريق الجديد. وكان ذلك عاملا كبيرا فى بدء ظهور الأزمة الاقتصادية التى أضرت باقتصاد مصر وبتجارها وتجارتها العالمية.

وقد توفى السيوطى قبيل الغزو العثمانى لوطنه باثنى عشر عاما، فلم يشهد الأحداث الدامية التى حدثت مصاحبة لهذا الغزو المدمر، الذى حطم الإمبراطورية المصرية. ونقل مصر من دولة لها السيادة على الشرق ولها مكانتها العالمية الكبرى إلى دولة مغلوبة على أمرها. الخلافة الإسلامية تنتقل منها إلى القسطنطينية، وكانت قبلا فى القاهرة منذ عام ٦٥٩هـ، بل كانت مصدرا من مصادر عظمة مصر وجلالها. حتى ليقول السيوطى فى كتابه:

"واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وصارت محل سكنى العلماء، ومحط رحال الفضلاء، ومقصد الأدباء والشعراء".

★ جسور على النيل

لقد هزت حضارة مصر ومجدها وازدهارها فى عصره وجدان هذا العالم الكبير، فكان كتابه "حسن المحاضرة" سجلا رائعا لعظمة مصر ومدنيتها ورخائها، ولازدهار الحياة الفكرية والعلمية والأدبية فيها، بل كان نشيدا ملحميا رائعا فى وصف جلال مصر ومجدها وآثارها ومدارسها وعظمة الحياة العقلية فيها. كل ذلك مع حرص السيوطى حرصا كاملا على روح البحث، وحقائق العلم ومع المحافظة التامة على المنهج التاريخى الذى التزم به فى الكتاب التزاما كاملا.

ومن الغريب أن السيوطى الذى توفى عام ٩١١هـ فى عهد السلطان قانصوه الغورى "٩٠٦ - ٩٢٢هـ"، والذى ألف كتابه "حسن المحاضرة بعد عام ٨٨٨هـ بقليل، يوالى كتابة الحديث عن ملوك مصر حتى عام ٩٢٨هـ، أى حتى بعد دخول الجيش العثمانى القاهرة، ويبدو أن هذه الزيادات التى كتبت وزيدت على الأصل الذى كتبه السيوطى نفسه هى من صنع أحد تلاميذ هذا الأستاذ المؤرخ العظيم.

ولا أنسى أن أذكر أن الجسور "الكبارى" الموجودة بين مصر القديمة والروضة وبين الروضة والجيزة ليست بالأمر الجديد على العقل المصرى. فقد كانت هناك جسور كذلك على النيل فى عهد السيوطى الذى يقول فى كتابه: "كان فيما بين ساحل مصر والروضة جسر من خشب، وكذلك فيما بين الروضة والجيزة جسر من خشب يمر عليها الناس والدواب من مصر إلى الروضة. ومن الروضة إلى الجيزة، وكان هذان الجسران من مراكب مصطنعة بعضها بحذاء بعض، وهى موثقة

"بالحبال"، ومن فوق المراكب أخشاب ممتدة، فوقها تراب، ولم يزل هذا الجسر قائما، إلى أن قدم المامون، فأحدث جسرا جديدا، فاستمر الناس يمرون عليه، وكان عبور العساكر التى قدمت مع جوهر على هذين الجسرين..".

وأخيرا فكتاب "حسن المحاضرة" كتاب رائع حقا، وهو من أمهات المصادر فى تاريخ القاهرة خاصة وفى التاريخ المصرى الإسلامى عامة، ويضيق المجال فى استقصاء روائع ما اشتمل عليه من حقائق ومعلومات وإحصائيات وتحليل ونقد ووصف لمظاهر الحياة المصرية فى القرن التاسع الهجرى العظيم.

من ذخائر المكتبة الإسلامية
الإفادة والاعتبار للبغدادى

"الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" لموفق الدين عبد اللطيف البغدادى من أهم كتب التراث المتصلة بحضارة مصر ومواريثها الإنسانية، وقد فرغ البغدادى من تأليفه فى العاشر من شعبان عام ثلاثة وستمائة للهجرة بالبيت المقدس وهو وصف عام لمصر فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى - السادس الهجرى، ويتضمن مقالتين:

المقالة الأولى تتضمن ستة فصول:

فالفصل الأول فى خواص مصر العامة.

والفصل الثانى فيما تختص به من النبات .

والفصل الثالث فيما تختص به من الحيوان.

والفصل الرابع فيما بقى من آثارها القديمة.

والفصل الخامس فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن.

والفصل السادس فى غرائب أطعمتها.

أما المقالة الثانية فتتضمن ثلاثة فصول: الأول فى النيل وكيفية زياداته وإعطاء علل ذلك وقوانينه.

والثانى فى حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ويقول المؤلف فى مقدمة كتابه :

"إنى لما أنهيت كتابى فى "أخبار مصر" المشتمل على ثلاثة عشر فصلا، رأيت أن أفرد منه الحوادث الحاضرة، والآثار البادية المشاهدة، إذ كانت أصدق خبرا، وأعجب أثرا، فألفيت ذلك فى فصلين منه، فجردتهما. وجعلتهما مقالتين فى هذا الكتاب، وزدت بحسب ما اقتضته الحال.

والبغدادى له مؤلف كبير مفقود، هو كتاب أخبار مصر الكبير، وقد جمله مصدرا لكتابه "الإفادة والاعتبار"، فأخذ منه وأضاف إلى ما أخذ بعض زيادات أكمل بها هذا الكتاب، فكتاب الإفادة يحتوى على موجز لفصلين من فصول كتابه "أخبار

مصر الكبير" الذى كتبه فى ثلاثة عشر فصلا، مع إضافات جديدة، وزيادات ليست فى الأصل الذى أخذ منه.

والبغدادى مفكر كبير، وعالم موسوعى من الطراز الأول، عاش فى عصر الدولة الأيوبية وشاهد طموحاتها وانتصاراتها، واتصل بصلاح الدين الأيوبى ووزيره العالم والأديب الكبير القاضى الفاضل. وكان موضع رعايتهما واهتمامهما، وصاحب الخطوة عندهما.

ومع ثقافته الفلسفية العميقة نبغ فى علوم العربية وآدابها، وتفوق فى ذلك تفوقا كبيرا. وفى كتاب ألفه البغدادى عن سيرته الذاتية، وفقدناه مع ما فقدناه من كتب تراثنا، وبقيت منه نصوص نقلها ابن أبى أصيبعة فى كتابه "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" يذكر البغدادى أنه حفظ "اللمع فى النحو لابن جنى" بشرح الثمانينى وشرح الشريف عمر بن حمزة وشرح ابن برهان، وغيرهم. وحفظ "أدب الكاتب" لابن قتيبة، "ومشكل القرآن" و"غريب القرآن" له أيضا ودرس "الإيضاح" لأبى على الفارسى وشروحه و"المقتضب" للمبرد، وكتبا أخرى. ودرس الحديث والفقه على ابن فضلان بدار الذهب وهى مدرسة بناها فخر الدولة، وقرأ كتب أستاذه كمال الدين الأنبارى. كما قرأ كتاب سيبويه وشرحه للسيرافى، و"العروض" للتبريزى، ومعانى القرآن للزجاج، ومقدمة ابن يابشاذ فى النحو .. ثم أمعن فى كتب الكيمياء والطلسمات وما يجرى مجراها ودروس الفلسفة التى كان قد تبحر فيها أستاذه المغربى ابن التلميذ، فأخذها عنه، وأكب على كتب الغزالى وابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية وغيرهم .. كما قرأ كتب السهروردى (المقتول عام ٥٨٧هـ/ ١١٩٢م).. فكان البغدادى صاحب ثقافة واسعة، وعقلية عميقة، تبدو مظاهرها فيما ألف من كتب: فله فى المنطق نحو عشرين كتابا.

وله فى الفلسفة كذلك أكثر من عشرين كتابا.

وله فى السياسة والأخلاق نحو عشرة كتب وهى كلها كتب مفقودة. ماعدا كتابه "مختصر فيما بعد الطبيعة"، وهو مخطوط فى المكتبة التيمورية - المجموع رقم ١١٧ حكمة تيمور وما عدا مقالتين له فى الحواس وفى المسائل الطبيعية وهما فى الاسكوريال - فهرست دار بنور رقم ٨٨٩ -.

وفى الطب اختصر البغدادى كتب القدماء فى الطب وتبلغ مختصراته أكثر من عشرين كتابا.

وكتب فى الطب مقالات وكتبا عدة تبلغ نحو الخمسة والثلاثين. ولا ريب أنه متأثر فى الطب بابن سينا تأثرا كبيرا، وطب ابن سينا هو الذى عرفته البيئات العلمية فى العصور الوسطى، وفيه آثار من طب ابقراط وجالينوس وغيرهما.

وللبغدادى كتب فى النقد والبلاغة، من أهمها اختصاره للصناعتين، وكتابه فى شرح نقد الشعر لقدامه بن جعفر.. وغير ذلك مما أشار إليه ابن شاكر فى كتابه "فوات الوفيات جـ٢ ص٧".

– ٢ –

وقد ولد البغدادى فى بغداد عام سبعة وخمسين وخمسمائة للهجرة – ١١٦١م، وتلقى ثقافته الأولى فى بغداد على أيدى أساتذة المدرسة النظامية، ومنهم كمال الدين الأنبارى (–٥٧٧هـ/ ١١٨٢م) وغيره.

ثم رحل إلى الموصل عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م إذ كانت الموصل موطن آبائه الأول، فأخذ عن الكمال بن يونس بعض الرياضيات والطب، وصار مدرسا فى بعض مدارسها .. ومن الموصل رحل إلى دمشق عام ٥٨٦هـ، فاتصل بعلمائها وآبائها وكتابها ومن هناك رحل إلى القدس، ثم لقى القاضى الفاضل وزير صلاح الدين بالقرب من أسوار عكا .. ومن ثم توجه إلى مصر فى ضيافة القاضى الفاضل وذلك فى السابع عشر من جمادى الأخرى من سنة سبع وثمانين وخمسمائة -١١٩٢م فأكرمه نائب القاضى الفاضل وهو الشاعر الكبير ابن سناء الملك (–٦٠٨هـ/ ١٢١٢م).

وأقام البغدادى فى القاهرة معلما ومتعلما مفيدا ومستفيدا، يشغل نفسه بالقراءة والكتابة والتأليف، ورحل إلى بيت المقدس ولقى صلاح الدين فيها. وقال عنه: رأيت ملكا عظيما، يملأ العين روعة، والقلوب محبة، قريبا بعيدا، سهلا محببا. وزار فى هذه الرحلة عـم ٥٨٨هـ دمشق، وأمعن فى قراءة كتب الفلسفة اليونانية، وكان قصده من هذه الزيارة أن يكون قريبا من صلاح الدين، ومات صلاح الدين (عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) فى دمشق وبكاه الناس. وبكاه البغدادى. وعاد البغدادى إلى القاهرة ..

وفى مصر كان يقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة، ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار يرجع إلى الجامع الأزهر، فيقرأ قوم آخرون، ويقضى جزءا كبيرا من ليله فى القراءة والتأليف.

وفى (عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م) رحل من القاهرة إلى بيت المقدس، وطوف بالعالم الإسلامى: دمشق، حلب، وبلاد الروم ثم عاد إلى حلب، فأتم فيها كتابه "الحيوان" عام ٦٢٨هـ، ومنها توجه إلى الحجاز فبغداد حيث لقى أجله فى ثانى عشر من المحرم عام تسعة وعشرين وستمائة - الثامن من نوفمبر عام ١٢٣١م.. ودفن فيها بجوار أبيه.

- ٣ -

تحدث البغدادى فى كتابه "الإفادة" عن الآثار المصرية حديث العالم. وقد ذكر الأهرام وأبا الهول والمصاطب والمقابر والمعابد والتماثيل والتحنيط.

ويتحدث عن الأهرام حديث المذهول أمام عظمتها، فيقول: إنك إذا تبحرتها - أى الأهرام، أى دققت الفكر فيها - وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هى غاية إمكانها. حتى أنها تكاد تحدث عن قومها، وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم.

ويقول البغدادى فى كتابه : وعند هذه الأهرام آثار أبنية جبارة، ومقابر كثيرة، متقنة، وقلما ترى من ذلك شيئا إلا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول - الخط الهيروغليفى بالطبع.

ويقول : وعند هذه الأهرام صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم. يسميه الناس أبا الهول .. وسألنى بعض الفضلاء: ما أعجب ما رأيت؟ فقلت: تناسب وجه أبى الهول، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة. كما تصنع الطبيعة الصورة متناسبة .. والعجب من مصوره، كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها، وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه.

وتحدث البغدادى عن آثار عين شمس. ومعابد الصعيد، وآثار الإسكندرية. ومن أهمها عمود السوارى .. ووصف مدينة منف ذات التاريخ العريق الممتد عبر ثمانية وأربعين قرنا من الزمان.

ويتحدث عن التماثيل المصرية، فيقول: إنها أمر يفوق الوصف، ويتجاوز التقدير وأما إتقان أشكالها، وإحكام هيئتها، والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة، والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظمة النظام الطبيعى والتناسب الحقيقى.

ويقول : وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم على الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة، وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة، وتوفر العزيمة، ومصابرة العمل، والتمكن من الآلات، والتفرغ للأعمال. ولكى يدرس البغدادى التشريح درسا عمليا، يذهب موفق الدين إلى المقس، حيث هناك تل أثرى كبير كانت فيه مدافن قديمة، وبه أكثر من عشرين ألف هيكل آدمى، فيدرس لتلاميذه تركيب جسم الإنسان على هدى الهياكل الآدمية الكثيرة .. ثم ينتقل إلى مدافن بوصير الأثرية وهكذا ..

وحين يتحدث البغدادى عن النيل معجزة الله فى وادى النيل، يتحدث بلغة العالم الثبت الأمين فى كل كلمة يقولها .. ويصف الفيضان والطبيعة المصرية حيوانا ونباتا وأرضا، وتاريخا حديثا دقيقا موزون الكلمات.

وينقل نصا عن أبقراط الفيلسوف اليونانى: من أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر، فإن شعبها قد عنوا بذلك عناية تامة، ومن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيئتها - تشريح الجسم - فينبغى له أن يقصد الإسكندرية ويشاهد موتى القدماء - أى هياكلهم الآدمية.

وبعد فكتاب "الإفادة" الصغير الحجم، الذى طبعته "المجلة الجديدة بالقاهرة منذ نحو الخمسين عاما، والذى عنى به الباحثون فى الشرق والغرب. ملىء بالمجد المصرى. وأخبار الحضارة المصرية، وعجائب التاريخ وأحداثه فى مصر. وهو

صورة كبيرة واضحة لمصـر الأيوبيـة فـى عـهد بطلـها صـلاح الديـن الأيوبـى ووزيـرة القاضى الفاضل .. رحمهما الله ..

والحديث عن الكتاب وعن مؤلفه، حديـث لا ينتـهى عنـد حـد .. ويرتبـط أوله بآخره وكلما ذكرنا شيئا منه عمدنا إلى ترك أشياء كثيرة.

ولسنا ننسى أن المجلس الأعلى للفنون والآداب قد احتفل فى يونيـو ١٩٦٣ بذكرى مرور ثمانمائة عام علـى ميـلاد موفـق الديـن عبـد اللطيـف البغـدادى .. وإن البغدادى فى الثامن من نوفمبر عام ١٩٨١م يكون قد مضى علـى وفاتـه سـبعة قـرون ونصف القرن ولا تزال مؤلفاته وكنوز تراثه محتاجة إلى التنقيب عنها فى كل مكان.. رحمه الله .

بدائع الزهور
لابن إياس

- ١ -

"بدائع الزهور فى وقائع الدهور" للمؤرخ المصرى الكبير محمد بن أحمد بن إياس الحنفى، من أشهر موسوعات التاريخ المصرى، ومن أهم ما خلفه المؤرخون المصريون من تراث جليل على طول الأجيال.

وقد بدا ابن إياس التأليف فيه عام ١٤٩٣م - ٨٩٩هـ، وانتهى من الجزء الرابع منه فى أوائل عام ١٤٩٥م - ٩٠١هـ، وبعد نحو ثلاثة عشر عاما كان قد انتهى من الجزء الثامن ٩١٣هـ - ١٥٠٧م، وبعد ذلك بثمانية أعوام كان قد انتهى من الجزء العاشر من هذه الموسوعة التاريخية، أى عام ٩٢٢هـ - ١٥١٦م، وهو عام دخول العثمانيين مصر، وبعد ذلك بستة أعوام أتم كتابة الجزء الحادى عشر، أى عام ٩٢٨هـ - ١٥٢٢م، وبدأ فى كتابة الجزء الثانى عشر منه، وهو فى السادسة والسبعين من عمره، ولكنه مات فى العام التالى، أى عام ٩٢٩هـ - ١٥٢٣م، ولم يوقف على شىء من هذا الجزء "الثانى عشر"، ولا يدرى: هل بدأ فيه وكتب منه شيئا أو لم يكتب فيه على الإطلاق.

وصار "بدائع الزهور" مصدرا كبيرا من مصادر التاريخ المصرى، وتداوله النساخ بالكتابة وبالاختصار أحيانا.

وطبع الكتاب فى مطبعة بولاق عن نسخة مختصرة فى أواخر القرن التاسع عشر، ثم نشرت جمعية المستشرقين الألمان فى استنبول ثلاثة أجزاء منه ضاعت خلال الحرب العالمية الثانية، ونشرت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى القاهرة جزءا من هذه الموسوعة، حققه د. محمد مصطفى زيادة وعملت وزارة الثقافة المصرية بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم وعدة هيئات علمية فى مصر والخارج على نشر الكتاب نشرا علميا محققا كاملا، وطبعت دار الشعب مختصرا للكتاب فى عدة أجزاء صغيرة، بدءا من عام ١٩٦٠م.

وابن إياس ولد فى القاهرة عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، وتوفى فيها عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م عن سبعة وسبعين عاما ميلاديا، وهو من أسرة جركسية الأصل، فهو من الطبقة المملوكية الأميرية، وأسرته يرجع تاريخها فى مصر إلى نحو عام ٧٧٥هـ، وبمرور الزمن أصبحت مصرية فى جميع جوانب حياتها، فلقد جاء جده لأمه ازدمر العمرى الناصرى رقيقا مملوكا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وصارت نسبته إليه، وتوفى عام ٧٨٥هـ - ١٣٦٦م - وجده لأبيه وهو إياس الفخرى كان من المماليك الجراكسة الذين جلبهم السلطان برقوق، ونسبوا إليه.

ووالد ابن إياس، وهو أحمد بن إياس كان من الطبقة المملوكية التى تشمل أبناء الأمراء من المماليك المتدرجين بالوفاة، وهى طبقة على هامش المجتمع المملوكى، وتسمى "فرقة أولاد الناس"، وكان أحمد بن إياس مشهورا فى طبقته، كثير الاتصال بأمراء الدولة وكبار المسئولين فيها. وكان ابنه شيخ المؤرخين واحدا من خمسة وعشرين ولدا هم إخوته ما بين ذكور وإناث وقد ماتوا فى حياة والده ما عدا ابنه المؤرخ وأخا له اسمه يوسف وبنتا واحدة.

وحياة ابن إياس غامضة فلم يكتب هو عن حياته شيئا، ولم يكتب عنه أحد من المؤرخين ترجمة تذكر، وحين بلغ الخامسة من عمره كانت القسطنطينية قد فتحها السلطان العثمانى محمد الفاتح عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، واحتفلت القاهرة بهذا الحدث الإسلامى الكبير، فأقيمت الزينات والأفراح فيها ثلاثة أيام متوالية، وكان ذلك فى عهد السلطان المملوكى اينال الذى كان شيخا كبيرا فى الرابعة والسبعين من عمره آنذاك والذى تولى بعده السلطان خشقدم، وثم جاء بعده السلطان قايتباى المحمودى "١٤٦٨م : ٨٧٢هـ - ١٤٩٦م : ٩٠١هـ"، وبعد ذلك بسنوات حكم السلطان الغورى عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠١م.

وقد قضى ابن إياس حياته عاكفا على العلم، وعلى التبحر فى التاريخ. وكانت مدرسة المؤرخين المصريين ذات شهرة كبيرة، ومن أعلامها فى عصر ابن إياس: المقريزى، والسيوطى، والسخاوى، وابن تغرى بردى وابن طولون، وابن الصيرفى، وخليل بن شاهين الصفوى، وسواهم. وكان من أساتذته من المؤرخين

شيخه عبد الباسط بن خليل "الحنفى. ولابن إياس كتب أخرى عدا بدائع الزهور منها:
-نزهة الأمم فى العجائب والحكم .
-مروج الزهور فى وقائع الدهور .
-عقود الجمان فى وقائع الأزمان .
-نشق الأزهار فى عجائب الأقطار انتهى من تأليفه عام دخول العثمانيين مصر "٩٢٢هـ/ ١٥١٦م".

- ٢ -

و"بدائع الزهور" من المصادر الأصلية فى تاريخ عصر السلطان الغورى وقصة الغزو العثمانى لمصر. وهو فى ذلك يعد مصدرا فريدا فى بابه. فقد سجل الأحداث التى شاهدها بنفسه فى هذه الفترة الحافلة بالأحداث من تاريخ مصر، وكانت قمة المأساة فى هذه الفترة هى هزيمة مصر العسكرية فى "مرج دابق" عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م أمام الجيش العثمانى، بعد خيانة عسكرية فى صفوف الجيش المصرى، سقط فيها الغورى ميتا ولم يعثر على جثته، ودخل سليم الأول العثمانى القاهرة، وبددت الامبراطورية المصرية العظيمة التى أقامها المماليك والمصريون بدمائهم وأرواحهم منذ أن هزموا التتار فى عين جالوت، وأخرجوا الصليبيين من سواحل مصر والشام، وحموا العالم الإسلامى كله من الدمار.

وقد بدأت الأحداث فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل القرن العاشر بطواف البرتغاليين حول أفريقيا وفى المحيط الهندى ووصولهم إلى سواحل الهند، ثم هزيمة الأسطول المصرى أمام الأسطول البرتغالى فى جنوب البحر الأحمر ومداخل المحيط الهندى، واستيلاء البرتغاليين على مفاتيح التجارة العالمية من أيدى مصر، ثم بتهديد الجيش العثمانى لحدود مصر فى الشمال حول أطراف الشام باستمرار. ونفذت إرادة الله الغالبة، وقضاؤه النافذ، ولا راد لقضائه. وضاعت إمبراطورية مصر الممتدة شرقا نحو سواحل الهند وشمالا فى أطراف حدود الشام، ووضع العثمانيون أيديهم على مقاليد الأمور فى كل مكان كانت مصر وجيش مصر واسم مصر فيه. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ويسجل ابن إياس كل هذه الأحداث الدامية والدموع فى عينيه، والأحزان فى قلبه، والمأساة تتمثل دائما فى خواطره، وهو لا يعرف ماذا يكتب وماذا يقول؟

وفى مقدمة كتابه يقول ابن إياس فى مطلع الجزء الأول منه :

"هذا جزء من كتابنا المؤلف فى التاريخ الموسوم ببدائع الزهور فى وقائع الدهور، ذكرت فيه ما وقع فى القرآن العظيم من الآيات المكرمة فى أخبار مصر، كناية أو تصريحا، وما ورد فيها من الأحاديث الشريفة النبوية فى ذكرها، وما خصت به من الفضائل، وما جاء فيها من المحاسن دون غيرها من البلاد. وما اشتملت عليه من عجائب وغرائب ووقائع وغير ذلك، ومن نزلها من أولاد آدم ونوح عليهما السلام، ومن دخلها من الأنبياء عليهم السلام ومن ملكها من مبتدأ الزمان. من الجبابرة والعمالقة والفراعنة واليونان والقبط وغير ذلك، ومن وليها فى صدر الإسلام من الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، ومن وليها من طائفة الأخشيدية والفاطمية العبيدية، ومن وليها من بنى أيوب، وهم الأكراد، ومن وليها من ملوك الترك والجراكسة إلى وقتنا هذا وهو افتتاح عام إحدى وتسعمائة "٩٠١هـ" وهذا بالطبع تاريخ الانتهاء من تأليفه للجزء الأول من موسوعته - ومن كان بها من الحكماء، والعلماء والفقهاء، والمحدثين، والقراء ومن كان بها من الصلحاء والزهاد، ومن كان بها من الشعراء، وغير ذلك من أعيان الناس.

ويشيد المستشرق الإنجليزى مارجليوث بأسلوب ابن إياس فى تاريخه الكبير هذا، وبنهجه فيه فى التفكير والنقد، مما ينم عن فردية واستقلال فى الرأى، ومما لا يدانيه فيهما معظم المؤرخين ..

ووطنية ابن إياس جعلته وهو يكتب عن العثمانيين فى مصر، وعن تدميرهم لجيش مصر وامبراطورية مصر يكاد يبكى، ويكاد يذرف الدموع حزنا على هذا المجد العظيم الذى بناه المصريون بأرواحهم ودمائهم، وبناه جيش مصر ببطولاته وتضحياته. ويذكر الكثير من أسماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى استنبول، ويشير إلى ما أخذ من أموال مصر وكنوزها، ومن شحنهم على سفن الأسطول العثمانى من العمال والفنيين وأرباب الصناعات وغيرهم ليبنوا حضارة القسطنطينية فى ظلال الراية العثمانية، والله غالب على أمره.

ويذكر ابن إياس أخبار العالم القديم، ثم البعثة المحمدية، وتاريخ الإسلام، وتاريخ الفتح الإسلامى لمصر، وابتداء دولة الإسلام فيها، ثم تاريخ الدولة الطولونية فى مصر، والدولة الأخشيدية، فالفاطمية فالأيوبية، فابتداء دولة المماليك فى مصر، فإذا ما وصل إلى السلطان بيبرس، بدأ يؤرخ الأحداث بالسنين على نظام الحوليات، من سنة لأخرى حسب الحوادث .

– ٣ –

يكتب ابن إياس عن سنة ٩٠١هـ "١٤٩٥ - ١٤٩٦م"، يقول:

"ختمها الله بخير، وهو أول القرن العاشر، وكان أول مستهلها بالأحد، وأول افتتاح العام بالأحد، ففى المحرم كان خليفة الوقت الإمام المتوكل على الله العباسى، وسلطان العصر الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى.

ثم يتحدث عن حكم قانصوه الغورى "٩٠٦ - ٩٢٢هـ: ١٥٠١ - ١٥١٦م" عاما بعد عام، ويصف مأساة هزيمة معركة "مرج دابق" المشئومة فى شعبان من عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، ويعقب على ذلك بقوله: "وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر، وغلت أيديهم عن القتال، وشخصت منهم الأبصار".

ثم يقول : ومات السلطان من شدة قهره، فلم يعلم له خبر، ولا وقف له على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلى، فكأن الأرض قد ابتلعته فى الحال، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر .. وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فإنه ولى ملك مصر فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة للهجرة "٩٠٦هـ"، وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٩٢٢هـ.

ويقول ابن إياس فى حزن عميق: "ولم يقع قط للملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة، بل أن تيمور لنك حارب أحد أجداده فلما حاربه انكسر فأسره تيمور ووضعه فى قفص حديد، ولم يقع لأحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة - النكبة - ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله بيد عدوه غير الغورى".

ويصف ابن إياس حزن القاهرة على إثر علمها بهزيمة مرج دابق، ويتحدث عن تولى الملك الأشرف أبو النصر طومان باى ابن أخى الغورى أمور البلاد بعد عمه.

ثم يصف ابن إياس معركة الريدانية بين طومان بأى وسليم الأول يوم الخميس التاسع عشر من ذى الحجة عام ٩٢٢هـ وهزيمة طومان باى أمام جيوش سليم ودخوله سليم القاهرة وما صنعه فيها من نهب وتدمير طيلة ثلاثة أيام مكللة بالسواد ويقول: انفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر، من كل شيء جليل، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط فى بلادهم، ولم يروها قبل ذلك، ومع ذلك أخذ طومان باى يعلن المقاومة فى القاهرة، ويحارب جيوش سليم، إلى أن كل عزمه وعزم أعوانه، فهرب، ووقعت فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها قط فيما تقدم من الزمان، وهى أنه لما هرب السلطان طومان باى صبيحة يوم السبت ثامن المحرم "٩٢٣هـ" أحرقت العثمانية جامع شيخو فاحترق سقف الإيوان الكبير والقبة التى كانت به، وهجموا على الجامع الأزهر، وجامع الحاكم، وجامع ابن طولون وغيرها، وقتلوا من وجدوه من المماليك الجراكسة فيها، ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط، وقد وقع مثل ذلك فى بغداد فى فتنة هولاكو، وهجم العثمانية على مقام الإمام الشافعى ونهبوا ما فيه، وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه وخرب ابن عثمان غالب الأماكن التى بالقلعة وفك رخامها ونزل به فى المراكب إلى القسطنطينية.

ويتحدث ابن إياس عن مقاومة طومان باى والمصريين لسليم فى الصعيد، وعن المعارك العديدة التى خاضوها مع الجيش العثمانى. وعن فظائع سليم وغدره وسفكه للدماء، ونهبه للأموال، وعن قبضه على طومان باى وشنقه له على باب زويلة.

وهنا تتجلى أصالة شعب مصر ووطنيتهم، يقول ابن إياس: فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف، وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان، وفتك فى عسكره، وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات، وهو فى نفر قليل من عسكره، ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال.

ويسجل ابن إياس فى كتابه قصيدة له فى رثاء دولة المماليك، ومنها:

أين الملوك بمصر من ساداتها

مثل البدور تضى، وكانت أنورا

يـا لهـف قلبـى للمواكـب كيـف لا

تلقـى بقلعتـها الحزينـة عسـكرا

– ٤ –

ويقول ابن إياس: ومن العجائب أن مصر صارت نيابة "أى ولاية يتولاها نائب" بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد. لأنه خادم الحرمين الشريفين وحاوى ملك مصر الذى افتخر به فرعون. وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر. وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها ويتم أطفالها. وأسر رجالها وبدد أحوالها، وأظهر أهوالها. وقد خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة، عدا ما غنمه من التحف. وغيرها حتى نقل منها الرخام الفاخر، وأخذ منها من كل شىء أحسنه، مما لم يفرح به أباؤه ولا أجداده من قبله أبدا. وكذلك ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة. وكذلك عسكره فإنهم غنموا من النهب مالا يحصى. وفى أثناء إقامة ابن عثمان "سليم" بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل. وبطل منها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها، وكانت مدة إقامته ثمانية أشهر إلا أياما قلائل.

ويصف "سليما" وجيشه وصفا يدل على صدق وطنيته، وعلى روح مصر العظيمة فى نفسه.

وفى آخر الكتاب يقول ابن إياس:

انتهى ما أوردناه فى هذا التاريخ من الأخبار العجيبة، والوقائع الغريبة. وقد اشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية. وقد وقع لى من المحاسن فى هذا التاريخ مالم يقع لغيرى من المؤرخين فيما أوردوه من تواريخهم القديمة. وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير. ولله الحمد والمنة على ذلك.

– ٥ –

إن شخصية ابن إياس فى تاريخه. وصدق أحكامه التاريخية. ودقة ملاحظته. وبعد فراسته وصدقها. وعمق فهمه للأمور ونقده لسياسة الملوك والأمراء. لشىء مذهل حقا هذا إلى صدق وطنيته. ووضوح مصريته. وعمق إيمانه بالشعب. ونضاله الواضح ضد الظلم والظلام والجبروت والطغيان.

وما أروع ابن إياس وهو يتحدث عن عظمة مصر حينا، أو عن بعض مآسيها وأحزانها حينا آخر.

فهو ولا شك جدير بتقديرنا وتكريمنا واحترامنا، ولقد مضى على وفاته اليوم أربعة قرون وستون عاما ميلاديا "٤٦٠ عامـا" وجديـر بنـا أن نذكـر ابـن إيـاس كـل لحظة، وكل وقت هذا المصرى الوطنـى العظيـم، وذاك المؤرخ العـالم الكبـير، الـذى خلدته موسوعته التاريخية هذه على امتداد الأيام والأجيال.

فصول من الفكر العربى
فى القديم والحديث

الجزء الثانى

تصدير

هذا هو الجزء الثانى من كتابنا "فصول من الفكر العربى فى القديم والحديث".

نلخص فيه أفكار رواد الحضارة العربية فى بناء المعرفة، ودعم الفكر، وتأسيس النهضة العربية الإسلامية، التى أضاءت آفاق الدنيا، وأشعلت مصابيح العلم والثقافة والمعرفة فى كل ركن من أركان الحياة البشرية .

وبالله التوفيق ،



كتاب المدينة الإسلامية

- ١ -

الحضارة الإسلامية نلمسها فى جميع جوانب الحياة ونشاطاتها واضحة بارزة متفردة فى خصائصها وسماتها. وقد وجدت فى التشريع الإسلامى المتصل بنواحى العمران دستورا كاملا سارت عليه، واهتدت بهديه فى جميع تحركات المجتمع المسلم، بل والمجتمع الإنسانى كله، بصورة متفردة منقطعة النظير، لاسيما أن هذه التشريعات قد سدّت النقص الذى اعترى الفكر البشرى فى المداخل الإنشائية العمرانية، وأعطت القواعد الصالحة لكل زمان ومكان من أجل بناء حضارة سامقة ومزدهرة، سعى لها فكر الإنسان، وسما لها عقله، على مراحل تاريخه فى رؤيته النظرية للمدينة الفاضلة، وتنامتْ الأحكام الإسلامية مع النظرية الإنسانية التى تكيفت معها فى سهولة ويسر وتدرج وهذب الإسلام طبائع النفس البشرية، وارتقى بها، وانعكس ذلك على المنزلة التى تحتلها المدينة الإسلامية، باعتبار أن المدينة هى الحضارة والمدنية .

وبهذا التمهيد يقص علينا كتاب "المدينة الإسلامية" للدكتور محمد عبد الستار عثمان قصة المدينة الإسلامية وتاريخها من مراحل نشأتها وتطورها إلى حضارتها وعمرانها .. وتنسب المدينة إلى الإسلام لما تميزت به من خصائص إبداعية حضارية عامة تتسم بالصفة الإسلامية باعتبار أن للإسلام منهج حياة فيها، والمحور الأساسى، وأنه المحور الأساسى الذى تدور فى فلكه حياة المجتمع فى المدينة الإسلامية طوال فترات التاريخ الإسلامى حتى بداية العصر الحديث. وعندما حلّت الفرائد الوضعية محل الشريعة الإسلامية ، ظلت المدينة الإسلامية مرتبطة ارتباطًا أساسيًا كاملاً بالإسلام كمنهج وطريقة وحياة .

- ٢ -

ويؤكد المؤلف اهتمام بعض الباحثين الأوربيين بإبراز دور الإسلام فى تاريخ التمدن ، وأثره على المدينة الإسلامية، من أمثال "لومبارد" الذى أشاد باهتمام

الإسـلام بـالتمدن وازدهـار الحضـارة الإنسـانية، وكمثـل بينـت الـذى نـوّه بالإسـلام باعتباره دين تمدن وله دوره العظيم فى إعـادة البنـاء الحضـارى الـذى نـراه مجسـمًا متمثلاً فى المدن، وكمثل "سبنسر" الذى أكد السمات الإسلامية الأساسية فى المدينـة الإسلامية، من عصورها المبكرة حتى العصر العثمانى، كما أكـد أن إنشـاء المـدن فـى الإسلام كان من مظاهر تمسك المسلمين بدينهم الفريد فى خصائصه.

– ٣ –

ويتحدث المؤلف عن الفكـر الإسـلامى واسـتراتيجيته العمرانيـة وعـن نشـأة المدينة فى الإسلام وتخطيطها وتطورها وتحصينها وشوارعها وطرقاتها والمرافق العامة فيها؛ وعن صورة الحياة السياسية والاجتماعية فيها، ونضيف نحن على ذلـك ذكـر صدى الحياة الدينية والفكرية والأدبية فيها.

– ٤ –

الكتاب كان أمام مؤلفه فرصة لذكر تأسيس وإنشاء بعض المـدن الكـبرى فـى الإسلام كبغداد والقاهرة مثلا، واهتمام المسلمين بإنشاء المسجد الجامع فى كل مدينـة ينشئونها، ليكون مصدرا للفكر الإسلامى لكل إنسان يقيم فيها.

إن المدينة فى الإسلام هى صـورة زاهيـة للحضـارة الإسـلامية التـى اسـتظل العالم بظلها حتى العصر الحديث،

ابن منظور ومعجم "لسان العرب"

- ١ -

ابن منظور اسم خالد فى تاريخ الثقافة العربية، فهو بمؤلفه الكبير" لسان العرب" قد حفظ للغة العربية شموخها وعظمتها، التى جعلتها لغة القرآن الكريم، والتى حفظت معجزة الإسلام الخالدة التالدة كتاب الله، ووحيه المبين، الذى نزل به الروح الأمين على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين.

خدمة اللغة العربية خدمة لكتاب الله ووحيه، وخدمة لشريعة الله ودينه، وخدمة لتراث الإسلام العظيم.

وحديثنا عن "لسان العرب" حديث فى صميم التراث الإسلامى، تراث الإسلام تراث المسلمين.

لقد أسهم ابن منظور فى خدمة الثقافة الإسلامية بكتابه الشامخ "لسان العرب" إسهامًا كبيرًا وفعالاً إلى أقصى الحدود، وأوسع الغايات.

"لسان العرب" هذا المعجم اللغوى الكبير، الذى ألفه ابن منظور وراجع من أجله جميع كتب اللغة ومعاجمها التى كتبت قبل ابن منظور، وأضاف إلى مادتها الكثير من مواد اللغة وألفاظها محققا ومدققا ومنبثقا من كل لفظة، وكل كلمة، وكل حرف مما يعجز فحول اللغويين وأئمة الباحثين عن مثله ..

"لسان العرب" هو الدرة المتألقة فى تراث ابن منظور الفكرى، وهو أهم مؤلفاته قاطبة، وقد وضع به هذا اللغوى العظيم أصلا لغويا لا غنى لأى لغوى أو باحث فى اللغة ودارس لها عن الرجوع إليه، والإفادة منه، والاستشهاد به.

عشرون جزءا ضخما احتوت من مفردات اللغة مالم يحتوه معجم آخر مؤلف من قبل.

ومهما قال الكاتبون والدارسون فيه فهو دون جدال أهم مصدر لغوى فى تراثنا الإسلامى الخالد.

وقد اعتمد ابن منظور كتاب الجمهرة فى اللغة لابن دريد (-٣٢١) وكتاب الصحاح لأبى نصر الجوهرى، وكتاب النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير من أوائل مصادره. كما رجع إلى كتاب التهذيب للأزهرى، والمحكم لابن سيده، فذكر أنه لم يخرج عن هذه الأصول، فذكر فى مقدمة كتابه "اللسان": "فمن وقف فيه على صواب أو زلل، أو صحة أو خلل، فعهدته على المصنف الأول، وحمده وذمه لأصله الذى عليه المعول، لأنى نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئا، بل أديت الأمانة فى نقل الأصول بالنص، فليعتد من ينقل عن كتابى هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة".

ويقول ابن منظور فى مقدمته لكتابه : إنى لم أزال مشغوفا بمطالعات كتب اللغة، والاطلاع على تصانيفها .. ثم يسترسل فى الحديث عن كتب اللغة إلى أن يقول فى خاتمة مقدمته لكتابه : وأرجو من كرم الله تعالى أن يرفع من قدر هذا الكتاب، وينفع بعلومه الزاخرة ويصل النفع به بتناقل العلماء له".

- ٢ -

وابن منظور هذا العالم الكبير من أعلام اللغة العربية كان مولده فى القاهرة عام ٦٣٠هـ كما يذكر كل المؤرخين له من العلماء، ولكن باحثا كبيرا فى عصرنا يخالفهم جميعا ويرى أن ميلاده كان عام ٦٢٠ هـ لا ٦٣٠هـ.

حتى الزبيدى صاحب "تاج العروس" (-١٢٠٥) يذكر أن ميلاده كان فى اليوم الثانى والعشرين من شهر المحرم عام ثلاثين وستمائة للهجرة .

الباحث الأستاذ الأديب التونسى أبو القاسم محمد كرد صاحب المؤلفات الغزيرة التى بلغت ستين مؤلفا وصاحب كتاب (ابن منظور مؤلف لسان العرب - إصدار دار المغرب العربى بتونس الصادر عام ٢٠٠٢م) يقول فى كتابه ص٣٢:

نشك فى أن يكون ابن منظور قد ولد عام ٦٣٠هـ كما تقول المصادر ونميل إلى رفض هذا الإجماع الذى لا يستبعد أن يكون منشؤه خطأ المصدر الأول الذى نقل

عنه الناقلون، ونرجح أن مولد ابن منظور كان في عـام ٦٢٠هـ - ١٢٢٢م، ويستدل على ذلك بما يلي :

١-جميع المصادر تذكر أن ابن منظور قد عمر وكبر[١] وهذا يعني أنه قارب المائة .

٢-يذكر الذهبي أن ابن منظور قد حدثه عن ابن المغير الذي توفي عام ٦٤٣هـ[٢] لا يعقل أن يتلقى عنه الحديث وهو دون الثالثة عشر من عمره.

ابن منظور تلقى ثقافته في الأزهر وعـن شـيوخ عديديـن أجـلاء منـهم: ابـن المغير البغدادي، والصابوني، ومرتضى بن حاتم. كما أخذ عن والده الذي وصف بأنه كان من الفضلاء[٣]، وقال عنه الزبيدي فـي "تـاج العـروس"[٤]: أنـه كـان مـن أكـابر الفضلاء، وتوفي والد ابن منظور وهو جلال الديـن المكـرم عـام ٦٤٥هـ، ويقـول عنـه الذهبي[٥]: كان أحد المشايخ المشهورين بالأدب والفضل والتقدم وكـثرة المحفوظـات، وكان ذا حظوة، وكان[٦] ذا مكانة عند الملك الأيوبي الكامل سلطان مصر المتوفى عـام ٦٣٥هـ.

وكان الذهبي شمس الدين من تلامذة ابن منظور وتوفي عـام ٧٤٦هـ. وعمـل ابن منظور كاتبا في ديوان الإنشاء بالقاهرة طول عمره، كـان بيتـه يقـع فـي ضاحيـة نهيا من أعمال الجيزة وهي منطقـة كـانت فـي عصـره مـن أجـل أحيـاء القـاهرة لا يسكنها إلا الأغنياء والأعيان والوجهاء.

وكان ابن منظور مشاركا في علوم كثيرة[٧]، وكان يكنى جمال الديـن محمـد بن المكرم، وكان والده يكنى جلال الدين المكرم وهو من أسرة علمية عريقة نسـبوا إلى القضاء وكانت لهم في العلوم الدينية والأدبية مكانة ممتازة، وذكر ابن منظور سلسـلة نسبه وهي أنه هو محمد بن علي ابن أحمد بن أبي القاسم بن حيفـة بـن محمـد بـن

---

(١) ٥٤/٥ الوافي بالوفيات لابن شاكر ٤٣/٩ تاج العروس للزبيدي ٢٤٨/١ بغية الوعاة للسيوطي .
(٢) ٦/ ٥٥ النجوم الزاهرة في حلى خضرة القاهرة .
(٣) ٢/ ٦١١ المشتبه للذهبي .
(٤) ٩ / ٤٣ تاج العروس .
(٥) تاريخ الإسلام للذهبي مجلد ٢٠ .
(٦) النجوم الزاهرة – ط دار الكتب المصرية .
(٧) مجلة الزهراء – جـ٥ ص٢٧٩ – محب الدين الخطيب .

منظور[1] وينتهى نسبه إلى رفاعة بن جابر بن رويقع الأنصارى الخزرجى، ورويقع مدفون فى البيضاء فى إقليم برقة الليبى، وكان من رجال وأبطال الفتح، وولى طرابلس الغرب كما ولى برقة أيضا، وتوفى عام ٥٣هـ وهو وال على برقة.

- ٣ -

ويثير الباحث الكبير أبو القاسم محمد كرو قضية موطن ابن منظور فيؤكد الحقائق الآتية :

١- ابن منظور أنصارى خزرجى فهو ينتسب إلى جده الأعلى رويقع بن ثابت الأنصارى الخزرجى المدفون فى البيضاء من ولاية برقة الليبية.

وهو تونسى من حيث انتسابه إلى جده الأدنى نجيب الدين أبى الحسن على الأنصارى الخزرجى، والذى هاجر من باجة التونسية إلى مصر.

وهو مصرى ولادة ونشأة وحياة ومدفنا. وقد هاجر نجيب الدين الأنصارى جد أبيه منظور فى النصف الثانى من القرن السادس واستقر فى القاهرة، حيث ولد ابنه المكرم (٥٨٢ - ٦٤٥هـ)، وابنه الآخر شرف الدين الحسن بن المكرم (٦١٣ - ٦٩٠هـ)، وحفيده قطب الدين أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصارى (٦٧٩ - ٧٥٢هـ) وهو ابن صاحب اللسان .. وتوفى صاحب اللسان فى شعبان عام (٧١١هـ - ١٣١١م).

٢- وصف ابن منظور بالإفريقى وهو وصف لجده الأدنى لا لابن منظور نفسه، وقد ذهب البعض إلى أنه من طرابلس الغرب[2]. ويؤكد باحثنا الأستاذ كرو أن ابن منظور لم يكن من مواليد طرابلس الغرب ولا ينتسب إلى ليبيا .. كما أنه ليس من مواليد تونس ولا يعرفها فهو ليس تونسيا، ونسبته إلى باجة فى تونس ليست له بل لجده الأدنى نجيب الدين أبى الحسن على الخزرجى. وحين ترجم له عثمان الكعاك عام ١٩٣٥م فذكر أنه من قفصة فى تونس شاع ذلك

---

(1) ١ / ٣٩٤ لسان العرب ط السلفية ، ١ / ٢٥٦ لسان العرب ، ط بولاق .

(2) المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النائب الطرابلسى ١ / ٥٦ - وقد ذهبت إلى ذلك فى كتابى "قصة الأدب فى ليبيا" الجزء الأول ص١٢٥، اعتمادا على المنهل العذب . والكتاب "قصة الأدب" صدر عام ١٩٧٦م.

وأخذ الناس يقولون عنه أنه من أهل قفصة ومن علمائها الكبار المشهورين، وهو على الحقيقة ليس من مواليد القطر التونسي وليس من قفصة التونسية.

ويؤكد الأستاذ كرو ذلك بنصوص موثقة :

أحدهما : للشيخ علم الدين البرزالى (ت٧٣٩هـ) الذى يقول : عن ابن منظور أنه ولد فى المحرم بالقاهرة[1].

وثانيها : للذهبى - ٧٤٦هـ الذى قال عنه : ولد بالقاهرة وعمر ومات فى شعبان عام ٧١١هـ - ١٣١١م.

ثم يذكر أيضا نصا آخر لابن سعيد المغربى الأندلسى وهو : أملى على - أى ابن منظور صاحب اللسان - فى منزله بالقاهرة، وأخبرنى أن أباه من باجة وأنه هو قد ولد بالقاهرة[2].

- ٤ -

ابن منظور صاحب اللسان .. إذن هو مصرى أصيل مولدا ونشأة وحياة. وقد ألف "اللسان" فى القاهرة، ووصفه بالإفريقى يعنى أن أجداده من إفريقية الغرب وليس ابن منظور نفسه من إفريقية (تونس) ولا من ليبيا أيضا.

إنما هو مصرى فى عمله وشخصيته وحياته كلها وبذلك نستطيع أن نقول أن صاحب "اللسان" ولد ونشأ وعاش وألف كتبه الغزيرة ومات فى القاهرة وبذلك يسترد هذا العالم العبقرى موطنه الحقيقى. فهو مصرى فى كل جانب من جوانب حياته. وهو أزهرى الثقافة والعلم والتأليف.

واللسان هو مفخرة مصر، ومفخرة ابن منظور العلمية وهو عمل كبير وجليل وخطير.

لقد طبع اللسان لأول مرة فى مطبعة بولاق بالقاهرة ما بين عام ١٢٩٩ و١٣٠٨هـ فى عشرين مجلدا .

وحاول طبعه كثيرون لكن لم يستطيعوا تحمل أعباء نفقات طبعه. ومن هؤلاء : محب الدين الخطيب الذى طبع جزءا واحدا منه عام ١٩٢٩م. وإسماعيل

---

(1) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ص٢ الهامش نقلا عن البرزانى.
(2) ٣٢٢ النجوم الزاهرة.

الصاوى الذى طبع خمسة أجزاء، ومنهم محمد البخارى .. وقد صدرت طبعة منه في بيروت عام ١٩٥٦م، وأخرى عام ١٩٧٠م. وأعيد فى القاهرة طبعه بالتصوير عن طبعة بولاق.

- ٥ -

ولابن منظور كتب كثيرة طبع منها:

١- مختار الأغانى - ٨ أجزاء طبع فى القاهرة عام ١٩٦٦م.

٢- أخبار أبى نواس - الجزء الأول طبع فى مصر عام ١٩٢٤م ولم يطبع الجزء الثانى منه، وطبع كاملا فى العراق عام ١٩٥٢م.

٣- نثار الأزهار فى الليل والنهار - طبع فى الأستانة، وهو جزء من كتاب سرور النفس للتيفاشى (٤٠ جزءا واختصره ابن منظور فى عشرة أجزاء، ولا يوجد منه سوى جزءين أحدهما مطبوع فى الأستانة باسم "نثار الأزهار" والثانى طبع باسم "حلل الأسحار على الجلنار فى الهواء والنار"، الذى طبعه إحسان عباس فى بيروت عام ١٩٨٠م.

٤- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر اختصره ابن منظور فى ٢٩ جزءا وكان فى الأصل ٤٨ جزءا.

وقد طبع هذا الكتاب فى دمشق فى ٢٩ جزءا باختصار ابن منظور وطبع معه فهارسه فى جزءين.

ومن المخطوطات لابن منظور الباقية :

١- تهذيب الخواص من درة الغواص .

٢- لطائف الذخيرة فى محاسن الجزيرة والأصل بابن بسام .

٣- تواريخ الشعراء جاهلية وإسلاما (مخطوط فى مكتبة بلدية الإسكندرية).

٤- مختارات الطبقات الكبرى لابن سعد ويوجد منه نسخة من الجزء الأخير (الرابع فقط) فى دار الكتب المصرية .

٥- مختصر الحيوان للجاحظ وهو فى الاسكوريال.

وبعد، فإن ابن منظور العالم المصرى الأزهرى الكبير معجزة مصر فـى القرن السابع وأوائل الثامن الهجرى. وهو حقا جدير بكل تقديـر. وبحسـبه معجـم "لسـان العرب" الكبير والجليل.

ويذكر قطب الدين نجل صاحب "اللسان" أن أباه تـرك بخطـه (مـن تأليفـه ومختصراته) خمسمائة مجلد.

وقد ضاع جل تراث ابـن منظـور، ولم يطبـع منـه إلا النـذر اليسـير، وبقـى بعض منه قابعا فى خزائن دور الكتب المختلفة بينما فقد هذا التراث العظيم.

وهنا أنوه بصنيع الباحث والأديب التونسى الكبير أبـى القاسـم كـرو، وبمـا صنعه من إضاءة جوانب منسية من حياة ابن منظور وتراثه الكبير بكتابه القيـم "ابـن منظور مؤلف لسان العرب"، الـذى اسـتقصى فيـه كـل أخبـار ابـن منظـور ومصـادره والدراسات التى كتبت عنه. وهو كل عمل جليل نبيل يستحق منا التقدير والتنويـه، وكتابه كان مصدرا من مصادر هذه الكلمة القصيرة التى كتبتها تقديـرا لشـخصية ابـن منظور العلمية والأدبية - رحمه الله -.

عمدة الكتاب للزجاجى

- ١ -

هذا الكتاب "عمدة الكتاب" لأبى القاسم بن عبد الله الزجاجى[1] (٣٥٢ - ٤١٥هـ = ٩٦٣ - ١٠٢٤م) من ذخائر وكنوز التراث العربى الثمين .

وقد ظل الكتاب مخطوطا ومجهولا حتى عثر المحقق المعروف الأستاذ إبراهيم الجمل على نسخة خطية منه فنهض بتحقيقها ونشرها، وعثر على نسخة أخرى منه مصورة، ساعدته على التحقيق .

مؤلف الكتاب علم من أعلام اللغة والأدب فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى .

ولد ونشأ وعاش ودفن فى موطنه همدان من أعمال إقليم جرجان، فى العصر البويهى [٣٣٢ - ٤٤٧هـ)، الذى شهد الكثير من الأحداث، وبزغ فيه رواد وأعلام كبار من أعلام العربية وعلمائها وأدبائها وشعرائها وعاش عاكفا على الكتب والكتابة والتأليف، وعلى القراءة الدائمة، حتى لقى ربه عن ثلاث وستين سنة عام ٤١٥هـ.

شهد له علماء العربية بالفقه فى علومها وأدبها، وبالنبوغ فى شتى فنونها وقضاياها .. وترك مؤلفات ضاع أغلبها، وبقى القليل الأقل منها، ومن بين هذا القليل كتاب "عمدة الكتاب"، وله شرح على كتاب الفصيح لإمام العربية أبى العباس ثعلب المتوفى عام ٢٩١هـ، نوه به العلماء .

وقد تأثر الزجاجى بتراث مواطنه عبد الرحمن الهمدانى [-٣١٧هـ] صاحب كتاب "الألفاظ الكتابية" وهو كتاب مشهور .

والزجاجى له منزلة كبيرة فى الأدب واللغة ، يقول عنه الذهبى فى تاريخ الإسلام [ص١٦٨ جـ١]: نبيل عظيم القدر فى اللغة والأدب والعربية .

ويقول عنه ياقوت الحموى [-٦٢٦هـ] فى "معجم الأدباء" [٢٠/ ص٦١ معجم الأدباء نشر فريد رفاعى] : هو أحد أهل البلاغة والبراعة .

---

[1] بضم الزاى مشددة وفتح الجيم، وهو غير الزجاجى بتشديد الزاى والجيم مع فتحها مؤلف كتاب "إعراب القرآن".

ووصفه مؤلف كتاب "تاريخ جرجان" بأنه كان عظيم الشأن، غزير العلم فى الأدب واللغة[1].

- ٢ -

عمدة الكتاب هو تهذيب لكتاب "جواهر الألفاظ" لقدامة بن جعفر [-٣٣٧هـ] صاحب كتاب "نقد الشعر"، وهو أحد رواد النقد العربى وأعلامه، ونسب إليه كتاب "نقد النثر" خطأ .. فهو عرض لأساليب العرب فى التعبير عن مختلف الأغراض والموضوعات والمعانى .. يقول الجرجانى فى "عمدة الكتاب": باب فى امتثال الأمر: يقال: قد عملت بما قلته وقبلت ما مثلته، وتبعت ما رسمته، ولزمت ما وسمته، وبنيت ما أسسته، وسقيت ما غرسته، وسارعت إلى ما دعوت إليه، وسابقت إلى ما حدوت عليه، ونهضت بما فوضته إلى، واضطلعت بما اعتمدت فيه على.

وهكذا جميع الأبواب المذكورة فى الكتاب يعتمد فيها الزجاجى أعذب الأساليب العربية وأجملها وأوفاها بأداء المعنى والغرض المطلوب، وقد يحذف بعض أبواب "جواهر الألفاظ" ويقدم بعض الأبواب أو يؤخرها، ويشرح الزجاجى فى مقدمة كتابه منهجه الذى سار عليه فى تهذيب "جواهر الألفاظ" وتنقيته من الألفاظ الخشنة والغريبة والحوشية.

إن جمع الأساليب البليغة التى تؤدى معنى واحدا فى باب واحد هو نمط من التأليف فى العصر العباسى، يقصد به مساعدة الكتاب على أداء معانيهم بأساليب بليغة من البيان، وعبارات رفيعة من التعبير "نجد هذا النمط فى كتاب "الألفاظ الكتابية" للهمدانى، وفى "جواهر الألفاظ" لقدامة، وفى كتاب الزجاجى "عمدة الكتاب". ولا شك فى أن مؤلف "عمدة الكتاب" قد أفاد من نهج الهمدانى فى "الألفاظ الكتابية"، كما أفاد من نهج قدامة فى "جواهر الألفاظ" فائدة كبيرة.

---

(1) ٤٢٤ تاريخ جرجان – طبعة طهران.

- ٣ -

وبعد أن طوى الزمان كتاب "عمدة الكتاب" كما طوى مؤلفه، ونسيهما الباحثون وجمهور المتعلمين .. عاد إلينا الكتاب من جديد فى تحقيق رائع، لأستاذ جليل، هو الأستاذ المحقق والمربى والمعلم إبراهيم الجمل.

وعناية "الجمل" بالتحقيق عناية كبيرة، أفادها من صداقاته لأعلام المحققين فى عصرنا، من أمثال "سيد صقر، ومحمد بن تاويت الطنجى، وإبراهيم الكتانى، ومحمد بن الشريفة، وإبراهيم الإبيارى، وسواهم .

ونجد من نماذج تحقيقاته الدقيقة : تحقيقه لكتاب التعازى لإمام العربية أبى العباس المبرد [/٢٨٥هـ]، ولكتاب "السمر والشعر" للسان الدين بن الخطيب، ولكتاب "المرقصات والمطربات" لابن سعيد الأندلسى، ولغير ذلك من الكتب .

غير الأستاذ المحقق على نسخة خطية من "عمدة الكتاب" فى الخزانة العامة فى الرباط، يرمز إليها فى تحقيقه للكتاب بحرف [ر]. ولقد أولاها مزيدا من عنايته، وراجعها على نسخة أخرى مصورة من الكتاب فى دار الكتب المصرية وهى تحت رقم ٤٩٣٣ أدب صورت عام ١٩٢٥م، وعكف على تحقيق الكتاب. كما سعى فى نشره ليصدر فى طبعة أنيقة متميزة .

إن شغف المحقق بالتراث، وعنايته بذخائره، ظاهرة جميلة حقا من ظواهر الأدب فى حياة المحقق المعطاء، وهذه العناية ترجع إلى قراءاته الواسعة، وعكوفه الدائب فى خزائن الكتب، ورجوعه إليها، وإفادته منها، كما ترجع كذلك إلى نخبة العلماء والأدباء والمحققين الذين عاصرهم وصادقهم فى حياته المديدة، وإلى اهتمامه بالكتاب، ومكانته فى قلبه وروحه وحياته الحافلة .

إن إحياء كتاب من كتب التراث يعادل إحياء نفس من الأنفس أو يزيد.

ونحن ندعو من أعماق قلوبنا للمؤلف وللمحقق بالمثوبة والجزاء الأوفى. والله عنده حسن الثواب والجزاء ،

التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم - لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (٢٩٣ - ٣٨٢هـ = ٩٠٦ - ٩٩٣م)

- ١ -

عن "نادى القصيم الأدبى ببريدة" صدر هذا الكتاب التراثى القيم فى مفتتح العام الهجرى ١٤١٨هـ، فى طباعة ممتازة، وفى ٢٣٠ صفحة، جامعا بين الدراسة والتحقيق لأستاذ جليل، هو الدكتور حمد بن ناصر الدخيل.

والدكتور الدخيل من أساتذة جامعة الإمام البارزين، وهو مؤلف ومحقق للتراث، وله نشاطه العلمى والأدبى الواضح، وأصدر العديد من المؤلفات القيمة، إلى العديد من الكتب التراثية التى حققها.

- ٢ -

وكثيرا ما يشتبه اسم أبى أحمد العسكرى باسم (ابن أخته فى رأى وتلميذه) أبى هلال العسكرى المتوفى نحو عام ٤٠٠هـ صاحب كتاب "الصناعتين" المشهور، حتى إن كتاب "التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم" قد سبق أن نشرته مطبعة الجوائب فى الأستانة فى طبعة خالية من التحقيق والتصحيح والتخريج والتعليق وذلك عام ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م، ونسبته إلى أبى هلال العسكرى تلميذ أبى أحمد، نسبة خاطئة.

وفى توثيق نسبة الكتاب إلى أبى أحمد العسكرى - لا إلى أبى هلال - يقول الدكتور الدخيل فى أمانة علمية تامة ما نصه - ص٩٣ و ٩٤ من الكتاب - قسم الدراسة:

"لم أجد ذكرا لكتاب "التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم" فى كتب التراث التى عنيت بالترجمة لأبى أحمد، على الرغم من أنها ذكرت كثيرا من مؤلفاته. وكنت أتوقع أن أجد - على أقل تقدير - أدنى إشارة إليه فى مؤلفات أبى أحمد، أو مؤلفات تلميذه أبى هلال العسكرى التى وصلت إلينا. غير أنى لم أظفر بشىء من ذلك، ولعل مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية هى أول من أشار إلى نسبة الكتاب لأبى أحمد العسكرى، وذلك فى العدد ٦٣ ص٣٨٩. اعتمادا على

مخطوطة الكتاب الموجودة فى مكتبة عاشر أفندى التى ضمت إلى المكتبة السليمانية فى إستانبول، والمخطوطة مسجلة برقم ٤٣٣، ونقل ذلك بروكلمان (فى تاريخ الأدب العربى ٢٥١/٢). وشاعر فى الأوساط الأدبية أن الكتاب لأبى هلال العسكرى بناء على نشرة مطبعة الجوائب بالقسطنطينية عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م التى أصدرت الكتاب باسم أبى هلال. ويبدو أن اتفاق اسم العسكريين، وإثبات عنوانات بعض كتب أبى هلال على الورقة الأولى من المخطوطة أوقع القائمين على المطبعة فى هذا اللبس. ومما يزيد فى ثبوت نسبة الكتاب لأبى أحمد أن مضمونه يقرر هذه النسبة ويؤكدها لسببين: الأول: روايته المباشرة فى الكتاب عن شيوخه، كابن دريد والصولى. الثانى: أن طريقة تناوله للقضايا الأدبية تشبه الطريقة التى عرفناها فى كتبه التى وصلت إلينا، ولاسيما كتابه "المصون فى الأدب".

ويقول المحقق الدكتور الدخيل تتمة لحديثه عن توثيق نسبة الكتاب إلى أبى أحمد - ص٩٥ من الكتاب ما نصه:

"وجدت لكتاب (التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم) مخطوطة واحدة فقط فى مكتبة عاشر أفندى التى ضمت إلى المكتبة السليمانية فى إستانبول. ورقم المخطوطة فى المكتبة الأخيرة ٤٣٣، وهذا هو رقمها فى مكتبة عاشر أفندى قبل ضمها إلى المكتبة السليمانية؛ كتب فى الورقة الأولى من المخطوطة عنوان الكتاب، واسم المؤلف كاملين: (التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم) - صنعة أبى أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى".

- ٣ -

ويذكر المحقق د. الدخيل من الأسباب التى دفعته إلى تحقيق الكتاب أن موضوعه ذو صلة وثقى بالأدب المقارن الذى لا يزال ميدانا واسعا للدراسات الأدبية المقارنة فى الأدب القديم والأدب الحديث، ومباحثه ومضامينه تعد متنوعة متجددة. لأنها تنبع من التواصل الأدبى بين الأمم، وهو تواصل مستمر. ما وجدت أمم تنتج أدبا. فأحببت أن أقدم بين يدى دارسى الأدب المقارن والباحثين فيه، والمهتمين به، نصا من نصوصه القديمة وأثرا لا يعرفه إلا قلة من الدارسين - ص٢ من الكتاب - ويشير إلى ذلك أيضا فى صفحة : ٤ . وفى ص٨١ حتى ص٨٩ .

ومؤلف الكتاب أبو أحمد العسكرى يفيض المحقق الدكتور الدخيل فى "القسم الأول الدراسة" من الكتاب فى دراسة حياته وآثاره وثقافته وذكر شيوخه وتلاميذه، ويذكر فى المراجع عنه أكثر من ثلاثين مرجعا، كما يذكر من مؤلفاته التى وصلت إلينا أربعة كتب من بينها الكتاب الذى نتحدث عنه، وكتاب "المصون فى الأدب". ويذكر من مؤلفاته المفقودة ستة عشر كتابا [٤٧ - ٦٢ من الكتاب]، من بينها كتاب - البديع - الحكم والأمثال - ديوان شعره - ربيع الآداب - صناعة الشعر - علم المنطق - علم النظم - ما يتمثل به من الأبيات - نوادر اللغة - المختلف والمؤتلف.

غير أن الكتاب الأخير وهو ذكر للمشتبه من أسماء الشعراء، قد نشرته مكتبة القدسى فى القاهرة عام ١٣٦٩هـ، فحفظته لنا من الضياع .

- ٥ -

يقول المحقق فى مقدمته للكتاب : قدمت بين يدى الكتاب دراسة تناولت حياة المؤلف وشيوخه وتلاميذه وآثاره الموجودة والمفقودة، وثقافته وأدبه .. وجهدت أن تكون الدراسة وافية بالمطلوب، تقدم للقارئ صورة وافية عن حياته وثقافته وأدبه.. ثم أتبعت الدراسة عن المؤلف بدراسة عن الكتاب تناولت فيها الأدب المقارن عند العرب، وموضوع الكتاب وصلته بالأدب المقارن، ومضمونه، ومنهجه، ومصادر المؤلف، ونسبته إليه، ومخطوطته، ومنهج التحقيق.. واقتضى منى ذلك أن أرجع إلى عشرات المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوعات الدراسة .

- ٦ -

ويذكر المحقق أن أبا أحمد العسكرى تحدث فى كتابه عن بلاغة الشعر. فذكر أنها تتمثل فى عذوبة الألفاظ، وتقريب المعانى، واتساق النظم، ورشاقة المعرض.. ثم وضح أن البلاغة مشتركة بين الأمم والألسنة. وأورد عدة تعريفات للبلاغة كما تراها بعض الأمم، ثم حدد مفاهيمها من خلال طرحه لآراء العلماء، ورؤيته لمفهوم بلاغة الأداء .. وفى ميدان النثر لم يقتصر فى ضرب الأمثلة والنماذج البليغة على الأدب العربى، بل تجاوزه إلى الأدب اليونانى، وما فيه من حكم وأقوال

بليغة صائبة، فاستشهد بأقوال بعض الفلاسفة اليونانيين، ولم يكن أبو أحمد مجيد اللغة الإغريقية، ولكنه ينقل من الكتب العربية التى تعنى بتدوين آراء فلاسفة اليونان وحكمهم .. واستشهد أيضا بنماذج من الأدب الفارسى، والحكمة الفارسية، وخلص بعد ذلك إلى أن بلاغة الأداء لها ثلاث حالات: حالة ينظر فيها إلى المعانى، وحالة ينظر فيها إلى الألفاظ، وحالة مركبة ينظر فيها إلى الألفاظ والمعانى .. وختم الكتاب بفقر بليغة مختارة من كلام العرب وغيرهم، تتوافر فيها مزية الإيجاز.

ويذكر المحقق أن الكتاب قد وضع فيه مؤلفه نظرية لبلاغة الشعر والنثر وتحديد مفهوم البلاغة فى الأداء من خلال رؤية فنية شاملة لم تقتصر على آراء العرب وحدهم، بل شملت آراء الأمم التى كان لها مجد أدبى؛ وضرب أمثلة كثيرة حية من الأدب العربى وآداب بعض الأمم،ليؤكد ما ذهب إليه من أن البيان والبلاغة غير مقصورين على العرب فحسب.. كما تبدو قيمته فى المعلومات الأدبية النادرة التى لا تجدها فى غيره من الكتب، من ذلك ما رواه من أن العرب تفردت بكثرة الأمثال، وأنه أثر عنها أربعة عشر ألف مثل [ص٩٢ من الكتاب].

- ٧ -

ويوضح المحقق منهجه فى تحقيق الكتاب، فيقول: ألم أجد للكتاب سوى مخطوطة واحدة، ولذلك التزمت بنصها فى التحقيق، ما لم أجد تحريفا أو تصحيفا وقع فيه الناسخ، ورأيت ضرورة مقابلة النسخة المنشورة على النسخة المخطوطة، وتبين لى من المقابلة أن النسخة المنشورة اعتورها شىء من التحريف والتصحيف والسقط .. ولإبراز نص الكتاب فى صورة أكثر دقة وسلامة فقد رجعت إلى كثير من المصادر لمضاهاة نصوصه النثرية والشعرية - وتخريجها؛ وترجمت لأعلامه، وحاولت قدر الإمكان أن أرتب المصادر والمراجع ترتيبا تاريخيا لتسهيل معرفة السابق من اللاحق. وإدراك الناقل من المنقول عنه [ص١٠٥ و١٠٦ من الكتاب]. وقد ألحق المحقق الدكتور الدخيل بالكتاب بعض الأبيات المختارة من كتاب أبى أحمد "ما يتمثل به من الأبيات"، وهى اثنان وثلاثون بيتا غير معزوة إلى أصحابها. فأسند كل بيت إلى قائله. ماعدا بضعة أبيات لم يعثر لها على قائل. وشرح الأبيات شرحا وافيا.

ثم ختم الكتاب بفهرس للأمثال وآخر للتوقيعات، وفهرس للأشعار، ثم الأعلام، فالمصادر والمراجع، ثم فهرس للموضوعات .

– ٨ –

إن الجهد الكبير الذى بذله الدكتور الدخيل فى تحقيق كتاب أبى أحمد العسكرى "التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم" يعد بكل المقاييس العلمية عملا متميزا فى مضمونه وكثرة مصادره ومراجعه التى بلغت ٢٥٥ مصادرا ومرجعا؛ إلى ما حلى به هوامش الكتاب من ذكر لعشرات المصادر والمراجع فى كل موضع وكل كلمة وعند ذكر أى علم .. وهو مجهود يستحق من أجله كل تقدير وإعجاب .

ولو كانت هناك جائزة للتحقيق العلمى لاستحقها هذا الكتاب الذى أبرزه المحقق من عالم النسيان فى صورة مشرقة يقبل عليها القارئ والدارس والباحث بمزيد من الغبطة والامتنان للجهد الملموس فى إخراج الكتاب وتحقيقه .

الرسالة الثانية
لأبى دلف الخزرجى

- ١ -

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام .

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التى رحل إليها وطاف بها. وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه "الفهرست" وياقوت فى "عجائب المخلوقات"، و"آثار البلاد" مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها، والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، فى أنحاء كثيرة من العالم، المعروف آنذاك. الهند والصين وآسيا الوسطى، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجدا كبيرا، قاده إلى قصور الملوك والوزراء والأمراء، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية.

يصفه ابن النديم[1] بالجوالة، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها[2]، وأنه كان سياحا زار البلاد، وأخبر بعجائبها[3].

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك، ثم يقول: أخبر بهذه كلها. أعنى بلاد الترك وقبائلها. مسعر. فإنه كان سياحة رآها كلها[4].

---

(١) ١/ ٣٤٦ الفهرست .
(٢) ٢/ ٢٦٧ آثار البلاد .
(٣) ٩٧ عجائب المخلوقات .
(٤) ٥٨٩ المرجع السابق .

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرقين بالدقة والصدق والواقع، وإن كان ياقوت الحموى يقول عنه: إنـه كـان يحكـى عنـه الكذب[1]، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال، وقد تكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين.

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذيـن مكنتـهم وحـدة الحضـارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة، على جانب كبير من الأهمية.

فمع أن العالم الإسلامى فى عصر أبى دلف، وهـو القرن الرابـع الهجـرى، كان مقسما إلى دول كثيرة، استقلت عـن خلافـة بغـداد، وتركـت التبعيـة السياسـية للخلفاء العباسيين، إلا أنه كان موحد العقيـدة واللغـة والثقافـة والحضـارة، خاضعـا للتأثير الإسلامى وحده، ومن ثم كان فى إمكـان أبـى دلـف أن يجـوب البـلاد، وأن يسير فى الممالك الإسلامية، للبحـث والكشـف والتنقيـب، لا يحـده حـد، ولا يغلـه قيد، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمى حائل.

وقد ألف أبو دلف "الرسالة الأولى" وتحتوى على رحلته عبر الصـين والهنـد التى قام بها عـام (٣٣١هـ = ٩٤٢م)، وقـد قـام المستشـرق الألـمـانى رور صويـر عـام ١٩٣٩ بتحقيقها، ويبدو أن أبا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هـذه بمـدة تطـول أو تقصـر، وتتضمـن الرسـالة إلى جـانب صدقـها الكثـير مـن المعلومـات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة، التى ساح فيها.

وفى مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف[2]:

"إنى لما رأيتكما يا سيدى، أطال الله بقاءكما، لهجين بـالتصنيف، مولعـين بالتأليف، أحببت أن لا أخلى دستوركما، وقانونى حكمتكما. مـن فـائدة وقعـت إلى مشاهدتها، وأعجوبة رمت بى الأيام إليها. ليروق معنى ما تتعلمانه السـمع. ويصبـو إلى استيفاء قراءته القلب، فرأيت معاونتكما، لما وشج بيننـا مـن الإخـاء. وتوكـد مـن المودة والصفاء".

---

[1] ٥/ ٣٢٦ معجم البلدان لياقوت.
[2] ٥/ ٤٠٨ و ٤٠٠٩ معجم البلدان.

والظاهر - كما أرجح - أنه يخاطب أحد الملوك السامانيين أو الصاحب ابن عباد، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة إلى هذا، وأخرى إلى ذاك، وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة.

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها إلى الألمانية، وشاركه في ذلك المستشرق فراين في "مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية" التي نشرها عن الشرق الأقصى.

وألقى المستشرق الروسي غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها في المؤتمر الدولي الثالث عشر للمستشرقين المنعقد في بطرسبرغ.

ودرسها روزن، وماركفارت عام ١٩٠٣، ووضح خط رحلة أبي دلف إلى الصين.

وكذلك فعل بارتولد، ومينورسكي عام ١٩٦٧ الذي قال عنها: إن في الرحلة سلسلة من الوقائع بعضها حقيقي، وبعضها من نسج الخيال، وفي وصف أبي دلف لرحلاته - كما يقول مينورسكي - خلط وتعقيد شديدان، وإن كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند. ويشكك أخيرا هذا المستشرق في حدوث رحلات أبي دلف.

ويرد عليه كراتشوفسكي في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"[١] مؤكدا أن رحلة أبي دلف إلى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها. ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم في كتابه "الفهرست" عن أبي دلف[٢]، بل إن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيران عام ١٩١٣.

ويؤكد رور صوير عام ١٩٣٩ أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال. إذ إن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها في سفارات متأخرة، مثل سفارة شاهرخ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبي دلف في محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية، وفي وصفه لمشاهدة عامة.

---

(١) ص١٨٩ من الكتاب.

(٢) ٣٤٦ و٣٤٧ الفهرست، ٢٥٠ و٣٥١ الفهرست أيضا.

وفى هذه الرحلة يذكر أبو دلف الأوانى الصينية وأنها كانت مفضلة فى الأسواق، وأن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان، ولا سيما فى ملبار وإيران.

- ٢ -

وفيما بين عام (٣٣١ - ٣٤١هـ = ٩٤٢ - ٩٥٢م)، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار إلى ذلك الثعالبى فى "اليتيمة" أماكن مختلفة فى إيران وآسيا الوسطى فى حماية الوالى على سيستان من قبل أبى محمد بن أحمد عام (٣٣١ - ٣٥٢هـ = ٩٤٢ - ٩٦٣م) وألف أبو دلف فى وصف هذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينيا وأذربيجان وإيران رسالة سماها "الرسالة الثانية"، ويقول فى مقدمتها على طريقته نفسها فى مقدمة الرسالة الأولى:

"جردت لكما، يا من أنا عبدكما، أدام الله لكما العز والتأييد، والقدرة والتمكين، جملة من سفرى من بخارى إلى الصين، ورجوعى منها على الهند، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها، وسلكته من قبائلها، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته، لينتفع به المعتبرون ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض"[1].

واللذان يوجه هنا أبو دلف إليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه إليهما الرسالة الأولى، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة.

ولهذه الرسالة الثانية فى وصف رحلته فى أواسط آسيا أهمية كبيرة، كما سنذكر بعد.

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة "الشيز" فى جنوبى أذربيجان، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وإيران والقوقاز وأرمينيا. ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام، والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهذه البلاد، وهى إلى جانب ذلك

---

[1] ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتاب - مطبعة مخيمر وقد وردت كلمة ثانية، فى الرسالة (ص٢٩) محرفة إلى كلمة "شافية"، وهو خطأ.

تحتوى على كثير مـن الأشـياء الطريفـة، والمشـاهدات العجيبـة، والنـوادر الغريبـة، وبعضها مما يحير العقول[1].

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد، ودقة متناهية، وموضوعيـة غريبـة، كما تتميز بمادتها العلميــة القيمـة التـى تضعـها فـى عـداد المصـادر الأولى للتـاريخ العـام والجغرافى لآسيا الوسطى. وتحتوى على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو، وبالمعادن المفيدة فى أرمينيا، وأبو دلف أحد الرحالة الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط فى باكو، وما أروع ما كتبـه عـن معدنيـات وطواحـين تفليـس[2]، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى جيولوجى، وفيها يذكـر أبـو دلـف أكـثر مـن أربعين موضعا يوجد فيها المعادن، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين.

ولقد حقق مينورسـكى هـذه الرسـالة، وطبعـت بمصـر عـام ١٩٥٠م فـى ٣١ صفحة النص العربى - ١٣٦ صفحة الترجمة الإنكليزية والدراسة .

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦م .

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦م.

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الإيرانية علـى مخطوطـة تشـمل علـى أربع رسائل:

١-رسالة أبى دلف .

٢-رسالة ابن فضلان .

٣-رسالة فى أخبار البلدان لابن الفقيه .

٤-رسالة أخرى .

وأصبح لهذه المخطوطة أهمية كبيرة فى تراث أبى دلف، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القديم.

ورسالة أبى دلف فى مخطوطة مشهد تشـتمل علـى رسـالتيه الأولى والثانيـة وقد ذكرتا على أنهما كتاب واحد .

---

(١) ص٣ مقدمة الرسالة الثانية .

(٢) ص٢٢ مقدمة الرسالة الثانية .

ويبدو أن هذا الكتاب كان قديما يسمى عجائب البلدان كما نقلنا عن القزويني وياقوت، وذكرهما بهذا الاسم كذلك بروكلمان .

وأبو دلف في رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول إلى دخائلها.

ومن أهمية البحث الجغرافى الذى قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز، وهى بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن في وادى ساركوتز في الاتحاد السوفياتي .. ومن وصف أبي دلف لهذه المدينة: أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره في صعوده إلى قمة جبل دبناوند في فارس ودخوله كهفا في هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه[1].

ويذكر أبو دلف أنه سار في مغارة خوارزم، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم، ويتحدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة.

ويشكك بعض الباحثين في وصول أبي دلف إلى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك.

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين، الذين ظهروا في القرن الرابع الهجرى. وقد نالت رسالتاه أعظم اهتمام في عالم الاستشراق، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث.

وعمل أبي دلف في ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا في صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الإقليمية القديمة.

كما يظهر في صورة الجغرافي المتمكن. والأثرى المنقب. والجيولوجي الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها مما يرفع من منزلته بين العلماء.

ويظهر لنا كذلك في صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء.

---

(1) الرسالة الثانية ص٨٧ .

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : "قطعنا بلاد السند والزنج، فتارة بأقصى خراسان، وتارة بأواسط أرمينيا وأذربيجان"[1].

- ٣ -

وأبو دلف شاعر عربى كبير، مجهول شأنه، مغمور تاريخه، لم يذكره إلا القلة من المؤلفين القدماء، ونسيه المحدثون نسيانا تاما.

وهو من الجزيرة العربية، من ينبع، عاش القرن الرابع الهجرى كله أو جله، يجوب البلاد، ويمدح الملوك، وينادم الأمراء والوزراء، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى إلى الصين والهند، ومن فارس إلى أرمينيا وأذربيجان وطبرستان. وبلاد الأكراد، ويصف كل ما شاهده، ويدون كل ما يلاحظه، فى دقة تامة، وعناية بالتفاصيل، مما أذهل المستشرقين، فكتبوا عنه جغرافيا من الطراز الأول، ومن أشهر الرحالة فى القرن الرابع.

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين الذين أتوا بعده، ومن بينهم: ياقوت "معجم البلدان"، والقزوينى فى كتابيه: "عجائب المخلوقات" و"آثار البلاد".

والمصدر العربى القديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمة أدبية، ليس فيها شىء من التفصيل عن حياته، هو كتاب "يتيمة الدهر" لأبى منصور الثعالبى شيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى (المتوفى عام ٤٢٩هـ)، فقد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد، وقال له عنه: أبو دلف الخزرجى الينبوعى، مسعر بن مهلهل، شاعر كثير الملح والطرف، مشحوذ المدية والكدية، خنق التسعين فى الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب. ويستمر الثعالبى فى الحديث عن أبى دلف. فيقول: "كان ينتاب - يقصد - حضرة الصاحب بأصبهان. ويكثر المقام عنده، ويتزود كتبه - أى رسائله التى تتضمن التوصية - فى أسفاره".

---

[1] مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ).

ويشير الثعالبى إلى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ - ٣٩٤هـ).

ويذكر شعرا لأبى دلف، وقصيدته السلسانية الطويلة[١].

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : كان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته[٢].

ويشير الثعالبى إلى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى إشارات عابرة، مثل كتابه "لطائف المعارف".

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى: "عجائب المخلوقات"، و"آثار البلاد"[٣]، وهما للقزوينى، "معجم البلدان" لياقوت وكراتشوفسكى يذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف.

وفى دائرة المعارف الإسلامية فى مادة "مسعر" ترجمة له تبين الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيرا، وجغرافيا مشهورا[٤].

وتجىء إشارات صغيرة عنه فى كتاب "بلاد ينبع" للشيخ حمد الجاسر[٥].

وفى كتاب الأعلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عدة سطور ومما جاء فيها عنه: شاعر رحالة وكان يكنى بالرحالة الحجازى، قام برحلة ممتعة إلى الشرق الأقصى، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم، ونقله المستشرقون عنه إلى مختلف اللغات الأوروبية، تجاوز التسعين من عمره توفى نحو عام ٣٩٠هـ[٦].

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على هذه الترجمة أمرين :

الأول : أن الزركلى نسبه إلى ينبع البحر، وهو من ينبع النخل.

---

[١] راجع ٣/ ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر، للثعالبى - بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

[٢] ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر.

[٣] فى كتاب "آثار البلاد" يوجد ٢٤ اقتباسا من "الرسالة الثانية لأبى دلف" وإن كان لا يشير إلى أبى دلف إلا فى سبع منها وفى عجائب المخلوقات توجد كذلك إشارات كثيرة له، وأربع اقتباسات دون إشارة إلى اسمه.

[٤] راجع الطبعة الإنجليزية من دائرة المعارف الإسلامية وقد ترجم النص الإنجليزى لهذا البحث الأستاذ وديع فلسطين - الطبعة العربية لم تصل إلى هذه المادة.

[٥] ١١٧ و ١٤٥ بلاد ينبع.

[٦] ٨ : ١٠٩ الأعلام للزركلى.

والثانى : قوله فى "كتاب ضخم" .. ويقول العلامة الجاسر: إنه ليس مجلدا ضخما بل رسالة، وقد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة النص العربى والترجمة الإنكليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة.

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتابا ضخما بل رسالة، وأما قوله: "إن الرسالة حققها المستشرق مينورسكى إلخ" فذلك ليس عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته إلى الشرق الأقصى، وهى التى تسمى بالرسالة الأولى، بل عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية.

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها المستشرق الألمانى رور صوير.

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى، ومينورسكى، وحققها مينورسكى، ثم خالدوف ويولغاكوف معا فى نصها العربى، وهما مدرسان بجامعة لينىنغراد.

وقد عاش أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى. وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرائبه، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة، كان فى مقدمتها انتهاء نفوذ الخلافة العباسية، باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤هـ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العالم الإسلامى الذى كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة، ومن هذه الدول:

١-الدولة الإخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٨هـ).

٢-الدولة الفاطمية بمصر والشام أيضا (٣٥٩ - ٥٦٧هـ).

٣-الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ - ٣٩٤هـ).

٤-السامانية فى تركستان، وعاصمتها بخارى (٢٦١ - ٣٨٩هـ).

٥-الزيارية فى طبرستان، ومن ملوكها الشاعر الأمير قابوس بن وشمكير (٣٦٦ - ٤٠٣هـ).

٦-الغزنوية فى غزنة والهند، ومن أشهر أمرائها السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١هـ).

٧-ودولة سجستان ومن أشهر أمرائها خلف بن أحمد، هو من أحفاد الليث[1] بن الصفار، وامتدت هذه الدولة حيث حكمت نحو الأربعين ومائة عام (٢٥٤ - ٣٩٠هـ).

٨-الدولة العلوية في طبرستان، ويذكر أبو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره وقد حكمت ثلثي قرن (٢٥٠ - ٣١٦هـ) [2].

٩-الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩هـ).

- ٤ -

أسرة أبي دلف :

أ - ويعرف تاريخنا الأدبي علمين، كنية كل منهما هي أبو دلف :

أما الأول فهو القاسم بن عيسى العجلي الذي كنى بأبي دلف، وهو عربي كريم. وقائد عباسي مشهور، كان مع الأمين على أخيه المأمون، في صراع الأخوين على الخلافة، فلما انتهى الخلاف بينهما بانتصار المأمون، عفا عن أبي دلف، فعاش في الكرج (=الكرك) بفارس، ومات في بغداد عام (٢٢٥هـ - ٨٤٠م)، وكان من أشهر شعرائه الذين مدحوه : علي بن جبلة (١٦٠ - ٢١٣هـ = ٧٧٦ - ٨٢٨م)، وقد توارث أبناء أبي دلف بعده حكم منطقة الكرج: ويسمون الدلفيين. والكرج قريبة من نهاوند بإيران، ويقول عنها أبو دلف: إن فيها آثارا لآل أبي دلف، وأبنية حسنة جليلة تدل على مملكة عظيمة، وهي الجادة - أي الحاضرة - بين الأهواز والري وبين أصفهان وهمذان[3].

وأما الثاني فهو صاحبنا أبو دلف الخزرجي الينبعي أو الينبوعي، الذي نكتب عنه هذه الدراسة.

ب- اسمه مسعر بن المهلهل، ونسبته إلى الخزرج إحدى القبيلتين الكبيرتين في المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم "الأنصار"، وهما الخزرج والأوس.

---

(1) ٢ : ١٨٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه .

(2) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبي دلف - نشر عالم الكتب بالقاهرة .

(3) ص ٧٤ الرسالة الثانية لأبي دلف - نشر عالم الكتب - القاهرة .

وللخزرج فى الإسلام وبالإسلام تـاريخ كبـير خـالد، ومـن الخـزرج بنـو النجـار أخوال رسول الله لأن أم جده عبد المطلب "نجارية".

أما الينبعى فهو نسبة إلى مدينة ينبع المشهورة فـى الحجـاز، ويوصـف أبـو دلف أيضا بالينبوعى، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز.

جـ - لا نعرف عن المهلهل والد مسعر ولا عن قومه شـيئا، فكـل المعلومـات المتعلقة بحياة أبى دلف شحيحة ونادرة .. وقـد عنـى المستشـرقون بأعمـال أبـى دلـف الجغرافية وحدهـا ومـن بينـهم رور صويـر، ومينورسـكى، وكراتشوفسـكى، ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمى، كشف ما غمــض مـن حيـاة أبـى دلـف نفسها.

أما أم أبى دلف فنجد فى رسالة لابن العميد[1]، كتبها وعيدا وتهديدا لأبـى دلف، ما يدل على أن صاحبنا ينتمى إلى ابنه محمد بن زكريا الذى كان يعاصر ابــن العميد.

وقد أعيانى البحث فى المصادر القديمة عن شـخصية محمـد بـن زكريـا فلـم أهتد إلى أثر لـه، وقـد أسـتطيع فـى المستقبل الاهتـداء إلى ترجمـة لـه تكشـف عـن شخصيته، فأضيف إلى صورة أبى دلف مزيدا من الوضوح والرؤية.

* * *

وأبو دلف من ينبع "ويقال لها ينبوع أيضا فــى لهجـة"، وينبـع موضعـان: ينبع النخل وينبع البحر، وبينهما نحو اثنين وخمسين كيلو مترا. ومن إضافـة ينبـع إلى المضاف إليه نعرف المراد منها، أما عند إطلاقها من الإضافة، ففى القديـم كـانت تنصرف إلى ينبع النخل لشهرتها وقلة غناء ينبع البحر، وفى العصر الحديـث الأمـر بالعكس فقد صارت ينبع البحر هى صاحبة الشـهرة. فـإذا أريـد ينبـع النخـل قيـل ينبع النخل دون إطلاق.

وينبع النخل التى ينتمى إليها صاحبنا أبو دلف: هى ناحيـة واسـعة فيـها قرى وأودية وعيون، وتقع غرب المدينة نحـو الشمال، وتبعـد عنـها بنحـو خمسـين

---

(1) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبى دلف بابن العميد – وراجعها فى صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى.

ومائة كيلومترا، وتقع على طريق القوافل بين الحجاز والشام.. ويتبعها نحو عشرين قرية.

وكانت ينبع النخل مقرا لقبائل عربية كبيرة: كجهينة، وحرب، وغيرهما. وكذلك مقر كثيرين من الطالبيين، "وقد استوطن على بن أبى طالب ينبع قبل أن يلى الخلافة وكان بها معجبا، ويروون عنه أنه نظر إلى جبالها، فقال لقد وضعت على نقب من الماء عظيم"[1].

ووصف البشارى[2] فى القرن الرابع الهجرى - الذى عاش فيه صاحبنا أبو دلف - ينبع، فقال:

"ينبع كبيرة جليلة، حصينة الجدار، غزيرة الماء، أعمر من يثرب، حسنة الحصن، حارة السوق - كناية عن كثرة حركة البيع والشراء فيها - وعامة من يتسوق بالمدينة فى الموسم منها"[3].

وقد انتقل أناس من الخزرج إلى ينبع النخل، فأقاموا بها، ومن هؤلاء أسرة أبى دلف[4].

وجميع المعلومات التاريخية والجغرافية عن ينبع يمكن أن نجدها فى كتاب العلامة حمد الجاسر "بلاد ينبع" وفى مصادر أخرى قديمة وحديثة، من بينها كتاب "جزيرة العرب فى القرن العشرين".

وبلدة السويق فى العصر الحاضر هى مقر الإمارة فى ينبع النخل، وقد أصبحت فى الزمن الأخير تابعة لإمارة ينبع البحر وأصبحت قاعدة تلك الناحية[5].

وأغلب الظن أن أبا دلف ولد فى ينبع، وهو ما ذكره كراتشوفسكى فى كتابه، تاريخ الأدب الجغرافى العربى[6] أيضا، ويؤيد ذلك قول أبى دلف فى رسالته التى وصف فيها رحلته إلى الصين وهى الرسالة الأولى: "لما نبا بى وطنى، ووصل بى

---

(1) ٢٧ بلاد ينبع - حمد الجاسر - منشورات دار اليمامة بالرياض.
(2) فى كتابه "أحسن التقاسيم".
(3) ص٢٧ و٢٨ بلاد ينبع.
(4) راجع ص١٤٥ المرجع السابق.
(5) ص٤٣ بلاد ينبع.
(6) ص١٨٨.

السير إلى خراسان، ضاربًا فى الأرض"[1] ويذكر خالدوف ويولغاكوف فـى تحقيقـهما للرسالة الثانية لأبى دلف ذلك أيضًا، أى أن ميلاده كان فى ينبع، ولكنهما يخطئان فيقولان: إن مكان مولده هو فى مدينة ينبـع الينـاء علـى سـاحل البحـر الأحمـر[2]. ويقولان أثر ذلك: ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبى دلف، وهـذا تنـاقض كبير.

ميلاد أبى دلف:

وتذكر بعض المراجع، ومن بينها الأعلام للزركلى، أن أبا دلـف مـات نحـو عام (٣٩٠هـ - ١٠٠١م) "وأنـه عـاش نحـو التسـعين عامـا" فيكـون ميـلاده إذن فى خلافة المقتدر بالله العباسى عام (٣٠٠هـ - ٩١٣م).

ويذكر الثعالبى فى كتابه "يتيمة الدهر" أنه عمر تسعين عامـا، فيقـول عنـه خنق التسعين فى الأطراب والاغتراب، وركـوب الأسـفار الصعـاب، ولكنـه لا يحـدد تاريخا لميلاده ولا لوفاته.

نشأة أبى دلف الأولى: ولا نعلم شـيئا عن حيـاة أبـى دلـف الأولى ونشـأته. وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة، وشب عربيا كريما عزيز النفـس ذا شـخصية قويـة مهيبة مرحة، فى وسامة ولطف. وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا، من مراكـز العلـم والأدب والشـعر وصـار أبـو دلـف شـاعرا، وعـرف كذلـك طبيبـا ومنجمـا، وليسـت "ساسانيته" بمناقضة لعزة نفسه، فقد كانت ساسانية ظـرف وفكاهـة وأدب وطـواف بالآفاق.

وفجأة ينبو بأبى دلف وطنه، وتسير به الحياة إلى الأمير السامانى نصـر بـن أحمد (٣٠١ - ٣٣١هـ = ٩١٤ - ٩٤٣م)، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولتـه، وقـد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير. ومهما كان، فقد صار أبو دلف شـاعر الأمـير ونديمه، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام كما سنرى ذلك.

---

(1) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت.

(2) ص٨ الرسالة الثانية لأبى دلف - ترجمة محمد منير مرسى - نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة.

في بلاط السامانيين: والسامانيون[1] أسرة فارسية كبيرة لعبت دورًا خطيرًا في القرن الثالث الهجرى حتى نال أميرها نصر الساماني (عام ٢٦١هـ) في عهد الخليفة المعتمد على الله استقلالاً ذاتيًا، وظل يحكم بلاده من عاصمة سمرقند حتى وفاته سنة (٢٧٩هـ - ٨٩٢م). وخلفه من ذريته:

١-إسماعيل الساماني (٩٧٩ - ٢٩٥هـ).

٢-أحمد بن إسماعيل (٢٩٥ - ٣٠١هـ = ٩٠٧ - ٩١٤م).

٣-نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ - ٣٣١هـ = ٩١٤ - ٩٤٣م)، وهو الذى عاش فى ظلاله أبو دلف، ولا نعرف شيئًا عن الظروف التى قادته إلى بلاد هذا الأمير، ولا مقدمات صلته به. وفى عهد هذا الأمير الساماني كانت الدولة السامانية قد بلغت أوج عزتها وذروة مجدها.

٤-نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣هـ = ١٤٣ - ٩٥٤م).

٥-إلى ملوك آخرين طار صيتهم فى العالم الإسلامى، ومنهم: نصر بن نوح الساماني (٣٥٠ - ٣٦٦هـ)، ونوح بن منصور (٣٦٦ - ٣٨٧هـ).

وكانت بخارى قد صارت عاصمة السامانيين، وأصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء.

وكان الجيهاني[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر وزيرًا للسامانيين (توفى عام ٢٣٠هـ - ٩٤١م)، وكان يشجع الأدباء، ويحتفى بالعلماء، ولعله هو

---

[1] راجع ١١ : ٧٦ - ٨٢ دائرة المعارف الإسلامية.

[2] راجع عنه ٢١٩ - ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى وينقل القزوينى عن الجيهاني كثيرًا فى المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى).
وينسب هذا الوزير إلى جيهان إحدى مدن خراسان، ويقول ياقوت عنه (٣: ١٩٥ معجم البلدان): إنه كان أديبًا فاضلاً. وقد ألف الجيهاني كتابًا فى صورة العالم - أى فى الجغرافيا - بعنوان "المسالك فى معرفة الممالك" وذلك نحو عام ٣١٠هـ = ٩٢٢م، وهو منقود.
والجبهانى هو الذى شجع أبا دلف وابن فضلان على أعمالهم الجغرافية.
وهو الذى أغرى أبا زيد البلخى (٢٣٥ - ٣١٨هـ) الفلكى بالانتقال إلى بخارى، وكان بين البلخى والجيهاني صلة وثيقة، ولكن البلخى اعتذر له، وألف البلخى كتابه "صور الأقاليم" عام (٣٠٨هـ - ٩٢٠م) بتشجيع من الجيهاني، وفى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان "ذكر المسافات وصور الأقاليم لأبى زيد البلخى" وهو برقم ١٤ جغرافيا - ويذكر الأستاذ احمد عبد الغفور عطار أن نسبة هذا المخطوط إلى البلخى خطأ وأنه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان "المسالك والممالك".

الذى احتضن أبا دلف، أو اتخذه كاتبًا له، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن أحمد.

وفى عهد الملك نصر بن أحمد وفد إلى بخارى وفد هندى برئاسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية إلى بلاط الملك السامانى، وأنجز هذا الوفد مهمته، وعند عودتهم إلى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقًا لهم.

وزار أبو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكايل وسواحل مليبار، ووصف ذلك كله فى كتاب ألفه بعنوان "عجائب البلدان"، والظاهر أنه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته[1].

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى. ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد، فيقول[2]:

"إن رسل ملك الصين جاؤوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم، فأبى نصر بن أحمد ذلك، واستنكره، لحظر الشريعة له، فلما أبى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين، فأجاب إلى ذلك، فاغتنمت قصد الصين معهم".

وكان ذلك نحو عام (٣٣١هـ = ٩٥٢م)، وقد عبر أبو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية، وتركستان الشرقية وبلاد التبت، ودخل الصين من مدينة "مقام الباب"، فوادى المقام، فسندابل العاصمة.. ويقول أبو دلف[3]:

ودخلت على ملكهم، فخاطبته الرسل بما جاؤوا به من تزويجه ابنته من نوح بن الملك السامانى نصر بن أحمد، فأجابهم إلى ذلك، وأحسن إلىّ وإلى الرسل، وأقمنا فى ضيافته، حتى نجزت أمور المرأة، وتم ما جهزها به، وحملت إلى خراسان، إلى نوح بن نصر، فتزوج بها. ويقول أبو دلف:

---

[1] كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود، ولكن أبا دلف يبدو أنه قسمه إلى رسالتين، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلاً عن الاسم الأصلى وهو "عجائب البلدان"، وقد جرى على ذلك بروكلمان، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف، وإنما ذكر مكانها كتاب "عجائب البلدان".

[2] ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت.

[3] ٥ : ٤١٤ معجم البلدان .. وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت٣٤٦هـ) جـ١ صفحة ٣٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقد رأيت ببلخ شيخًا جميلاً ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارًا كثيرة ولم يركب البحر قط.. فهل يقصد المسعودى بذلك أبا دلف؟

وأقمت بسندابل العاصمة مدة، ألقى ملكها فى الأحايين، فيفاوضنى فى أشياء، ويسألنى عن أمور من أمور بلاد الإسلام، ثم استأذنته فى الانصراف فأذن لى بعد أن أحسن إلىّ".

وغادر أبو دلف الصين إلى الهند حتى رجع إلى بلاده عن طريق سجستان.

وزادت هذه الرحلة من مكانة أبى دلف فى دولة السامانيين، ومن منزلته فى عصره، وفى الحياة الإسلامية بصفة عامة.

فى ظلال البويهيين :

أ - وتنقضى هذه المشاهد كلها، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين، ولا ندرى كيف كان ذلك، ولا متى كان؟.

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين إلى البويهيين، ووزيرهم الشهير ابن العميد، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد، وإلى عواصمهم الكبرى ينتقل بينها: أصبهان والرى، وبغداد، وأصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهى نفسه.

ب- وتاريخ البويهيين حافل بالانتصارات الكبيرة فهذه الأسرة الفارسية[1] التى بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق، انتهى الأمر بزعيمها أحمد بن بويه إلى دخول بغداد فى الحادى عشر من جمادى الأولى (عام ٣٤٤هـ) فى خلافة المستكفى بالله، وأصبح بجوار الخليفة سلطانًا أو ملكًا على الشعوب الإسلامية، ولقب "معز الدولة" (٣٣٤ - ٣٥٦هـ) وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ - ٣٦٧هـ)، ثم عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٣هـ) وغيرهما من ملوك البويهيين.

واستبد البويهيون بالخلفاء استبدادًا كبيرًا، فلهم الملك والنفوذ والسلطان.

وصار الذى فى أيدى العباسيين إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى كما يقول البيرونى (ت عام ٤٤٠هـ) فى كتابه "الآثار الباقية"[2]. وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى أرادوا.

---

[1] ينسب البويهيون أنفسهم إلى بهرام جرر (٨: ١٩٧ ابن الأثير) وبهرام جور هو القيصر الساسانى بهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٨م) وأحمد معز الدولة، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ - ٣٦٦هـ)، وعلى عماد الدولة : حكم هؤلاء الأخوة الثلاثة العالم باسم الخليفة العباسى. وأقام معز الدولة فى بغداد، وركن الدولة فى الرى، وعماد الدولة فى شيراز.

[2] ٢ : ١١٣ المرجع .

خلعوا المستكفى بالله بن المكتفى (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) وولوا مكانه المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) ثم خلعوه ومات بعد عام ، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ - ٣٨١هـ)، وخلعوه وقبضوا عليه وعذبوه وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ)، فقال فى ذلك الشريف الرضى:

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكنى يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى[1]

ومن أشهر وزراء البويهيين وزيران :

أولهما : أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ - ٣٦٠هـ) وكان إمام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة، كما كان له مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ - ٣٢٦هـ = ٩٧٢ - ٩٧٦) وذلك من عام ٣٢٨هـ = ٩٣٩م.

وقد بدأ أبو دلف يتصل به، والظاهر أنه أقبل عليه ثم أعرض عنه، فهجاه أبو دلف، ورد عليه ابن العميد، مهددا برسالة طويلة رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه "مثالب الوزيرين"[2] وجاء فيها:

"الآن علمت أيها الشيخ أنك لى مكايد، وإلى جميع ما أنهاك عنه مخالف وعلى ديدنك المعروف ثابت، وبفضله لسانك مسحور..".

إلى أن يقول ابن العميد:

"تقاعست عنى بلا عذر، ووقفتنى بين وصل وهجر. فلم أدر كيف أخاطبك؟ وعلى ماذا أعاتبك؟ لأنك مشهور بقحة، ومذكور بسلاطة، ومعتاد للبهت، وجار على الكذب".

وأول ذلك أنك تدعى بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته. وقد شاهدت محمدا وما خلف بنتا".

---

[1] راجع ٢ : ٨٦٧ ديوان الرضى، ٣ : ٢٠٢ تجارب الأمم لمسكويه ، وكتابى "الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى".

[2] ص ٢٨٩ - ٢٩٢ المرجع المذكور.

ثم يقول ابن العميد فى غضب ظاهر:

إن فى الموت خلاصا منك، ومفارقة لمثلك، والله ما أندب إلا حسن ظنى بك، ومباهاتى أهل مجلسى بفضلك، وقولى: "أبو دلف وما أدراك ما أبو دلف؟ لا تنظروا إلى هزله، فإن وراء ذلك جدا، وهو المرء الذى قد جمع الله له بين المنظر والمخبر، وبين الدعوى والبيئة، وبين القول والحجة وبين الضمان والوفاء، وبين الصداقة والشفقة".

"فما زلت أقول هذا وشبهه، وأصحابى يشيعون قولى بمثله فى الظاهر، ويخالفونى بعلمهم فى الباطن، حتى كان الفلج لهم ساعة هذه، لأنى احتجت إلى علمك فخيبت عهدى، وأقبلت عليك فأعرضت عنى، ووهبت لك كلى، فبخلت ببعضك على .. ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك".

ويقول أبو حيان التوحيدى[1].

قلت لأبى دلف : ما أجبته عن هذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم أجسر على إظهاره، وخفت صولته ونكايته وشره وغائلته.

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠هـ وولى ابنه أبو الفتح منصب أبيه فى عهد ركن الدولة، ثم فى عهد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقدمه وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتح الوزير عام ٣٦٧هـ.

أما الوزير الثانى من وزراء البويهيين الكبار: فهو الصاحب بن عباد (٣٢٤ - ٣٨٥هـ = ٩٣٦ - ٩٩٥م) الوزير البويهى الكبير طيلة ثمانية عشر عاما (٣٦٧-٣٨٥).

وصار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب[2]، يجلس فى مجالسه فى أصبهان والرى منادما، ومادحا، وكان الصاحب نادرة الدهر، وأعجوبة العصر[3].

---

(1) مثالب الوزيرين.

(2) راجع عنه : ٢٦٨/٢ - ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان - كتابى الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى - ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت.

(3) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان.

وظل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما (٢٦٧ - ٣٨٥)، وكانت له خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب[١].

ولقد احتف بالصاحب من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى، وملك رق المعانى. فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان والرى وجرجان مثل: أبى الحسن السلامى، وأبى سعيد الرستمى، والبديع الهمذانى، والقاضى الجرجانى، وأبى القاسم بن أبى العلاء، وأبى دلف، والصابى، وسواهم، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى "يتيمة الدهر"[٢].

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه[٣].

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعربن مهلهل الينبعى، يشعر ويتطبب ويتنجم[٤].

وكان الأدباء يجدون فى ظل الصاحب أمنا وأمانا لهم، مما حل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقع، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسى - بيت الفتن والغلاء[٥] واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقة، كأبى حيان التوحيدى (٣٢٠ - ٤١٤هـ) وغيره.

واتصل أبو دلف بعضد الدولة[٦] الملك البويهى فى بغداد، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير. وقد رواها الثعالبى فى كتابه "لطائف المعارف":

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة، ومحاضرة، ومذاكرة.

---

(١) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت .

(٢) ٣/ ١٠٩ اليتيمة .

(٣) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه .

(٤) ٣ : ٤٠٠٠ المرجع .

(٥) ١١٣ احسن التقاسيم .

(٦) من شعراء عضد الدولة : المتنبى، والسلامى، وغيرهما، ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده ابو على الفارسى الذى أهداه كتابه "الإيضاح" ٣: ٦٧ ذيل تجارب الأمم لمسكويه.

فقال أبو على لأبى دلف:

صب الله عليك طاعون الشام، وحمى خيبر. وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة، وسناقر دهستان[1]، وضربك بالعرق المدنى[2]، والنار الفارسية، والقروح البلخية.

فقال له أبو دلف:

يا مسكين، أتقرأ "تبت" على أبى لهب وتنقل التمر إلى هجر.

بل صب الله عليك: ثعابين مصر، وأفاعى سجستان، وعقارب شهروزور. وجرارات[3] الأهواز.

وصب على برود اليمن، وقصب مصر، وديابيج الروم، وخزوز السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلل أصبهان، وعمائم الأبلة، وسقلاطون[4] بغداد وسنجاب[5] خر خير[6]، وسمور[7] بلغار، وثعالب الخزر[8] وفنك[9] كاشغر، وفاقم[10] التغزغز، وحواصل[11] هراة، وتكك[12] أرمينيا، وجوارب قزوين.

وأفرشنى : بسط أرمينيا، وزلالى قاليقلا، ومطارح[13] ميسان، وحصر بغداد.

وأخدمنى : خصيان الروم، وغلمان الترك. وسرارى بخارى، ووصائف سمرقند.

---

(1) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه ودهستان : بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان.

(2) مرض يصيب الإنسان .

(3) نوع من الحشرات .

(4) ثياب من الحرير موشاة بالذهب .

(5) حيوان تصنع منه الفراء .

(6) موضع ينسب إليه جنس من الترك .

(7) دابة يتخذ من جلدها فراء ثمينة.

(8) قبائل على سواحل بحر الخزر (قزوين)

(9) ثعلب صغير .

(10) حيوان فروه من أفخم الفراء .

(11) الجلود تلبس للتدفئة .

(12) رباط السراويل .

(13) بسط .

وحملني علـى: عتـاق الباديـة، ونجـائب الحجـاز، وبرازيـن طخارسـتان. وحمير مصر، وبغال برذعة.

ورزقني : تفاح الشام، ورطب العراق، وموز اليمـن، وجـوز الهنـد. وبـاقلاء الكوفة، وسكر الأهواز، وعسل أصبهان وتمر كرمان، ودبس أرجـان، وتـين حلـوان. وعنب بغداد، وعنـاب جرجـان. وإجـاص بسـت. ورمـان الـرى وكمـثرى نـهاوند. وسفرجل نيسابور، ومشمش طوس، وملبن مرو، وبطيخ خوارزم.

وأشمني : مسك تبـت، وعـود الهنـد، وعنـبر الشـجر، وكـافور فنصـور[1]. وأتـرج طبرسـتان، ونـارنج البصـرة، ونرجـس جرجـان، وفيلوفـر السـيروان[2]. وورد جور، ومنثور بغداد، وزعفران قم[3].

فأعجب عضد الدولة بكـلام أبـى دلـف، ووفـور حظـه مـن طوافـه بالشـرق والغرب. ووقوفه على خصائص البلدان فـى كـل مكـان مـن العـالم الإسـلامى .. ولم يملك إلا أن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التى لم يقلـها ملـك فـى أحـد مـن الأدباء أو الرعية، قالَ عضد الدولة فى تعجب ظاهر:

"لله درك يا أبا دلف[4].

مثلك يا أبا دلف ينادم الملوك".

وأمر له بخلعة وصلة حسنة.

وتدل هذه القصة على ما يلى:

١- كثرة طواف أبى دلف بالعالم الإسلامى. ووقوفـه علـى خصـائص كـل مصـر مـن أمصاره، وبلد من بلدانه.

٢- حضور بديهته. ووفرة أدبه.

٣- ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة.

٤- وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم .

---

(١) بلد قرب الصين .

(٢) بلد بالجبل .

(٣) ٢٣٤ - ١٣٩ لطائف المعارف للثعالبي - بتحقيق الأبيارى والصيرفي .

(٤) ٢٣٩ المرجع السابق .

وتوفى عضد الدولة عام ٣٧٣هـ ثم توفى بعده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب، وذلك عام ٣٨٥هـ.

وتقاذفت الأيام بأبى دلف وشهد نهاية صديقيه الصاحب وعضد الدولة ومرت به السنوات، من فقر لغنى، ومن غنى لفقر، ولم يجد كريما كالملك السامانى ولا كالصاحب الوزير، ولا كعضد الدولة البويهى.

ورأى الحياة من حوله لم تعد تحتفى بالأدب، ولا تعير الأدباء جانبا من رعايتها.

وشاهد نتائج رحلاته وطوافه بالبلاد، وتدويخه للأرجاء، تصبح وكأنها ليست شيئا مذكورا.

وتذكر زملاءه الشعراء: المتنبى، السلامى، القاضى الجرجانى، وأبا سعيد الرستمى، والبستى.

وأقرانه من الأدباء والكتاب: الخوارزمى، البديع الهمذانى، الصابى، الصاحب، ابن العميد.

وقد طوت كل هؤلاء الأيام، ومضت بهم الحياة إلى مصيرها المحتوم.

فأسلم نفسه للمقادير، إلى أن لقى ربه نحو عام ٣٩١ - ١٠٠١م كما أرجح، أو عام (٣٩٠هـ) كما ذكر الزركلى فى "الأعلام"، والعلامة حمد الجاسر فى كتابه "بلاد ينبع" نقلا عن "الأعلام".

أبو دلف كاتبا:

أمامنا نصوص نثرية كثيرة لأبى دلف، منها رسالتاه فى وصف رحلاته عبر الصين والهند وآسيا الوسطى، ومنها رسائل نثرية صغيرة.

وهذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبى دلف الأدبية.

إنه كاتب متعمق المعانى، كثير التجربة، عظيم الخبرة، دقيق الأفكار.

وهو إلى جانب ذلك سمح الأسلوب، عذب اللفظ، واضح الصياغة، وضوح معانيه، ليس فى أدائه تعقيد، أو إغراب أو تكلف أو حوشية، أو معاظلة.

أسلوبه أقرب الأساليب إلى سماحة أسلوب المطبوعين، ووضوح أساليب المعاصرين، وكأنه أسلوب صحفى معاصر، مطبوع على البيان الجيد. متمكن من اللغة والبلاغة.

وقد كان أبو دلف يعيش فى عصر المطبوعين على البيان، وفى ذروتهم ابن العميد، والصاحب، والخوارزمى والبديع، والصابى، وأبو حيان، وغيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنثر الفنى.

وأبو دلف يتخذ من الرسالة مادة لعمله العلمى، ويبعد عن قيود الصناعة البديعية وزخارفها ووشيها، مع التركيز الشديد فى رسائله، ومع الوصف الدقيق للأشياء التى يصفها.

ومقدمتا رسالتيه تمتازان بأسلوبهما الفنى السهل، ومع ذلك فإن سعة ثقافة الرجل فرضت نفسها على كتابته، فليس هناك كلمة أو حرف قد جىء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام.

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه فى كتاباته، فهو كاتب موضوعى أكثر منه كاتبا وصفيا.

وهو جدير باهتمامنا، وعنايتنا وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته. وسعة جوانب شخصيته.

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين، قد قرب أسلوبه من واقع الحياة، ومن حاجة العصر إلى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية والأثرية والجيولوجية. وجعل جانب العلم أغلب عليه، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة.

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحى حياة الساسانيين. فأدبه قطعة من صميم حياتهم، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف، وصلة أبى دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعى المتميز جعله نموذجا حيا للساسانى الخالص[1] وجعل من

---

[1] حب أبى دلف للفن وظروفه جعله يحترف الأدب الساسانى احترافا مبدعا حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة. والطبع والصنعة، وكذلك كنا نرى فى عصرنا أناسا يرتدون – من أجل الظرف والفكاهة – رداء أشب فى جشعه وطمعه، وهم أعز نفسا، وأكرم طبعا. وعلى أية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل أو الحقيقة، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ما قلناه من ساسانيته لأن أبا دلف صور نفسه فى قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة، وإذا علمنا أن أبا دلف عاش فى قصور الملوك ونال جوائزهم، وكانت له ألف حرفة – كما يقولون – أدركنا أنه لم يكن ساسانى التكسب، بل ساسانى الفن وحده.

أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر إليها مثل البديع الهمذانى فى إكبار وإجلال وتقدير، واتخذها نموذجا فنيا فى عمله الأدبى الجديد فى فن المقامة، مما سنحيط به بعد قليل.

- ٤ -

أبو دلف .. شاعرا

أ - عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى، عصر المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤هـ)، والشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦هـ)، وأبى فراس الحمدانى (٣٢٠ - ٣٥٧هـ) والرفاء (٣٦٦هـ)، والسلامى (٣٩٤هـ)، وكشاجم (٣٥٠هـ)، والخالديين وابن الحجاج (ت٣٩١)، والوأواء الدمشقى (ت٣٩٠هـ)، والصنوبرى (٣٣٤هـ)، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣هـ - ١٠١٢م) وابن سكرة (٣٨٥ - ٩٩٥م)، والبستى (٣٢٠ - ٤٠٠هـ)، وسواهم من أعلام الشعر العباسى.

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم، وينشد فيهم القصائد الطوال، ثم ذهب إلى البويهيين، ملوكهم ووزرائهم، فمدحهم بقصائده الجياد.

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم، ولا نعرف له إلا القليل جدا من شعره، مما سجله الثعالبى فى "اليتيمة"، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أو رائيته الساسانية، التى سوف نتحدث عنها بعد قليل .

ب - وأشهر أغراض شعره : المدح - والهجاء - والفكاهة، وأهم أغراضه الشعرية على الإطلاق هو شعره الساسانى الذى سنتعرض له.

ولنبدأ بذكر مقتطعات مما بقى من شعره، لنتعرف إلى شاعريته. ونقف على مدى أصالته .

١-كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة. فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير. وهلكت الدابة أو قل نفقت، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة فى رثاء البرذون

الراحل، وينشدها فى مجلسه، ويقدمها إلى أبى عيسى، فاجتمع الشعراء. ثلاثة عشر شاعرا، فى مجلس حافل من مجالس الصاحب الوزير، وألقى كل منهم قصيدة[1]. وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة فى رثاء الفقيد. ضمنها أحر عواطفه، فماذا قال الشاعر فى هذا الموضوع؟ استمعوا إلى أبى دلف ينشد[2]:

دهر على أبنائه وثاب
يا لك دهرا كله عقاب
أصبح لا يردعه العتاب
واها لناء ما له إياب
لكل قلب بعده اكتئاب
ذو نسب تحسده الأنساب
قد كملت فى طبعه الآداب
كأنما غرته شهاب
كأنما لباته محراب
لا خبر منك ولا كتاب
تناوبتك الردى أنياب
تجزع من أمثالها الأحباب
وكنت لو طالت بك الأوصاب
يخف فى مصرعك المصاب
وأنت فرد ما له أتراب
قل لأبى عيسى: وما الأسهاب
ينافع: تم لك الثواب
فاسكن فهذا الصاحب الوهاب
فى جوده وفضله مناب

٢- ويقول أبو دلف أيضا يصف ترفه وشجاعته :

إنى امرؤ كسرى الفعال ... أصيف الجبال وأشتو العراقا

---

(١) ٣: ٢١٣ - ٢٣٦ يتيمة الدهر .
(٢) ٣: ٢٢٣ - ٢٢٥ المرجع .

وألبـــس للحـــرب أثوابـــها   واعتنـــق الدارعـــين اعتناقـــا

يقول ابن الفقيه[1]: اختار أبو الدلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال، ليسلم من سمائم العراق وذبابه وسخونة مائه وهوائه، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثر رياحها ووحولها .

٣- ولما طوت الأحداث حياة أبي دلف المترفة فأحالته فقيرا بعد غنى قال[2].

ألم ترنـي حـين حـال الزمـان   أصيف العـراق وأشـتو الجبـالا
سمـوم المصيـف وبـرد الشتـاء   حنـانيك حـالا أزالتـك حـالا
فصـبرا علـى حـدث النائبـات   تـأبى الحـوادث إلا انتقـالا

٤- ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمير في الشام، فقال:

مـا صورتـان بتدمـر قـد راعتـا   أهـل الحجـى وجماعـة العشـاق
غـبرا علـى طـول الزمـان ومـره   لم يسـأما مـن ألفـة وعنـاق
فليـرمين الدهـر مـن نكباتـه   شـخصيهما منـه بسـهم فـراق
وليبلينـهما الزمـان بكـره   وتعـاقب الإظـلام والإشـراق
كـي يعلـم العلمـاء أن لا دائـم   غـير الإلـه الواحـد الخـلاق

٥- ولأبي دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة[3]:

هـي المقـادير تجـري فـي أزمتـها   فاصبر فليـس لهـا صبر علـى حـال
دع المقـادير تجـري فـي أعنتـها   ولا تبيـتن إلا خـالي البـال
مـا بـين طرفـة عـين وانتباهتـها   يغـير الله مـن حـال إلى حـال

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه لأن شعره مفقود إلا النماذج التي رواها الثعالبي.

٦- ويذكر الثعالبي أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان، وانتقل إليه، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيه شعرا.. وفي يوم حافل اجتمع شعراؤه الثلاثة عشر في مجلس الصاحب، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف[4]، فأنشد كل منهم قصيدة

---

(1) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه - طبعة بريل ١٣٠٢هـ
(2) ٢٤١ المرجع السابق .
(3) كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها روت بروايات مختلفة، ونسبت لكثير من الشعراء، منهم: الشافعي والواثق العباسي، وإسحاق الموصلي ..
(4) ٣: ٢٠٢ - ٢١٣ اليتيمة .

طويلة فى مدح الصاحب ووصف القصر، وقد ذكر الثعالبى هذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف. ومطلع قصيدة أبى دلف هو :

رأينا طلعة الدار شموسا مع أقمار
ولى مسألة بعد فعاجلنى بإخبار
بنيت الدار فى دنيا ك، أم دنياك فى الدار؟

٧- ولننتقل إلى قصيدة أبى دلف الساسانية المشهورة العجيبة .. وقبل أن نذكرها نذكر مدلول "الشعر الساسانى".

ج - الشعر الساسانى له بذور قديمة فى شعر الصعاليك. وفى مزاح أشعب وطبقته. وفى أدب الجاحظ وبعض كتاباته.

وقد عم الفقر البلاد الإسلامية فى العصر البويهى، كما ذكرنا آنفا. وما أقسى ما قاله أبو حيان فى كتابه "الإمتاع والمؤانسة"[1]: القوت لم يكن إليه سبيل إلا بإخلاق المروءة، وتجرع الأسى، ومقاساة الحرفة، ولذع الحرمان. والصبر على ألوان وألوان، أو ما يقوله ابن لنلك البصرى:

جار الزمان علينا فى تصرفه وأى دهر على الأحرار لم يجر؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحالين والسائلين والجواة يجوبون البلاد، ويطوفون بالأقاليم، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال. ويظهرون أحيانا إن صدقا وإن كذبا أنهم مجاهدون أحيانا أو من أبناء السبيل. أو ممن نهبت أموالهم فى الطريق، أو مرضى، أو غير ذلك، فأطلق على هؤلاء بنو ساسان، أو الساسانيون[2] وكان جامع الأهواز مأوى الكثير منهم[3].

وظهر الشعراء والأدباء يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء وفى الاحتيال على أخذ المال من أى طريق، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضا: ساسانيون. وقيل لأدبهم وشعرهم: أدب وشعر ساسانى.

وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس؟

---

(1) ٢ : ١٤٣ الكتاب المذكور.
(2) ١١/ ٤٦ و ٤٧ دائرة المعارف الإسلامية.
(3) ٧ أحسن التقاسيم للمقدسى.

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها إلا من كان منهم، وتعرف هذه اللغة باسم "مناكاة بني ساسان"، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظا عجيبا، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة[1]، وكان يعجبه من أبى دلف وفور حظه من هذه اللغة فى شعره، وبخاصة فى قصيدته الساسانية الطويلة، التى كتبها وقدمها[2] إلى الصاحب، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم، وقد اختار منها الثعالبى فى اليتيمة نحوا من مائتى بيت.

هذا هو معنى الشعر الساسانى بإجمال، فمن هو ساسان الذى نسب إليه؟

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية[3] الفارسية المالكة، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه، فاشترى غنما، وجعل يرعاها، ويعير بأنه راعى غنم، فنسب إليه كل من احترف الكدية.

وقيل[4]: إن الساسانيين كانوا شرازم الأمراء من بنى ساسان، جاء الإسلام فذلوا بعد عز، وافتقروا بعد غنى، ورحلوا من مكان إلى مكان، فصارت نسبتهم إلى الساسانيين نسبة عار وذل، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد.

وقيل إن ساسان كان رجلا من عامة الناس، ماهرا فى الحيلة والاستجداء فنسب إليه هؤلاء.

وكان من الساسانيين شعراء وقل الحرمان مواهبهم، وأنضج الألم عبقريتهم، ومنهم شاعرنا أبو دلف، وشاعر آخر ضاهاه فى رفعة المنزلة فى الأدب الساسانى، وهو الأحنف العبكرى، الذى قيل عنه. إنه آدب بنى ساسان فى بغداد. وقال الثعالبى عنه: هو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام[5].

---

(1) ٣/ ١٧٦ اليتيمة.

(2) ٢١٨ "الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى"، طبعة عام ١٩٤٩م.

(3) أسرة فارسية حكمت إيران، أولهم يزدشير (٢٢٦ - ٢٤١م). وآخرهم يزدجر الثالث (٦٣٢ - ٦٥١م) الذى سقطت الامبراطورية الفارسية فى عهده فى أيدى المسلمين (راجع ١١/ ٤٧ - ٥٥ دائرة المعارف الإسلامية و١١ : ١٤٢ "ظهر الإسلام لاحمد أمين).

(4) هو رأى محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع ص٩٧.

(5) ٣/ ١١٧ اليتيمة – ٢٢٤ بديع الزمان للشعكة.

ولقد ذكر الجاحظ – فى "المحاسن والأضداد" وفى "البخلاء" ص٣٦ – الكدية والمكدين .. وفى المحاسن والمساوىء للبيهقى نصوص عن الجاحظ فى ذلك (٦٢٢ – ٦٢٤ المحاسن للبيهقى).

=

وقد أكثر العبكرى من تصوير بؤسه وحرمانه ، فيقول :

العنكبوت بنت بيتا على وهن — تأوى إليه وما لى مثلها وطن

ويقول أيضا :

عشت فى ذلة وقلة مال — واغتراب فى معشر أنذال

بالأمانى أقول لا بالمعانى — فغذائى حلاوة الآمال[1]

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

على أنى بحمد الله — فى بيت من المجد

بإخوانى بنى ساسا — ن أهل الجد والجد

لهم أرض خراسان — فقاشان إلى الهند

إلى الروم إلى الزنج — إلى البلغار والسند

قطعنا ذلك النهج — بلا سيف ولا غمد

وقد هزت هذه القصيدة أبا دلف، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة التى حشر فيها الخليفة المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣هـ)، الذى لم يكن يملك فى ظلال البويهيين من الأمر شيئا، حشره فى جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء، وكان ذلك مما ينتدر به الصاحب وعضد الدولة، وهو على أى حال تندر مر لأنه يشير إلى الحقيقة المرة كاملة، إذا كان الخليفة فى ظل البويهيين لا شأن له بشىء من أمور الخلافة والسلطان، ويعيش دائما فى فقر وحرمان.

=ويذكر بديع الزمان فى مقاماته اللصوص وحيلهم – راجع المقامة الرصافيه – كما يذكر الكدية، فى مقامته الساسانية، التاسعة عشر، يدافع عن الكدية، ويذكر الكثير من بواعثها وقد ذكر التوحيدى (١٤٣/ ٢ الامتناع والمؤانسة) للساسانيين رائيا لحالهم.

وفى مقامات الحريرى المقامة الساسانية التاسعة والأربعون، وفيها يوصى أبو زيد السروجى ابنه وولى عهده وكبش الكتيبة الساسانية من بعده بصناعة الكدية، وبالزهد فى غيرها من الصناعات، ولو كانت إمارة أو تجارة أو زراعة أو صناعة.

وأدوات صناعة الساسانية كما صورها الحريرى : الفطنة والذكاء والوقاحة وأن يكون الساسانى اجول من قطرب، وأسرى من جندب، وكذلك الجد والمثابرة، فلا يسأم الطلب، ولا يمل الدأب، وعليه بالإقدام ولو على الضرغام، مع تحليه بالبلاغة، بأن يكون أخلب بصوغ اللسان، وأخدع بسحر البيان إلخ.

ولصفى الدين الحلى قصيدة ساسانية طويلة فى ١٤٥ بيتا .

[1] راجع ٣: ١١٧ – ١١٩ اليتيمة .

قصيدة أبى دلف الساسانية[1]:

قصيدة طويلة ساسانية، ذكرها الثعالبى فى اليتيمة، وشرح كثيرا من اصطلاحاتها الساسانية، ولها أهمية كبيرة، لا فى شعر أبى دلف، ولا فى الشعر الساسانى، وحدهما بخاصة، بل فى الشعر العباسى عامة.

وقد اهتم المستشرقون اهتماما شديدا، فعنوا مثلا بما جاء فيها من وصف الأوانى الصينية[2].

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين. ولا يقاربها فى هذا الباب أثر أدبى آخر إلا مقامات البديع .

وقد استخدم أبو الدلف بكثرة فى القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان، وقد شرحها الثعالبى وكشف عن مغاليقها، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا. وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماما وقد علم الصاحب إياها بنجاح. وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين.

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفون دمعها يجرى ... لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجد ... به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعمى ... ن من حلو ومن مر
ومن كان من الأحرا ... ر يسلو سلوة الحر
كأمثالى، وفى الغربـ ... ـة أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيبا ... وألوانا من الدهر
على أنى من القوم الـ ... بهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الـ ... حمى فى سالف العصر
فنحن الناس كل النا ... س فى البر وفى البحر
أخذنا جزية الخلق ... من الصين إلى مصر
إلى طنجة، بل فى كل ... أرض خيلنا تسرى
لنا الدنيا بما فيها ... من الإسلام والكفر

---

(1) ٣: ٣٥٤ – ٣٧٢ اليتيمة .

(2) "الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى" د. زكى حسن .

فـــإن ضـــاق بنـــا قطـــــر نســـر عنـــــه إلى قطـــــر

ويقول أبو دلف فى القصيدة أيضا :

ومنـــا شــــعراء الأر ض أهـــل البـــدو والحضـــر
ومنـــا ســـائر الأنصـــا ر والأشـــراف مـــن فـــهر

ويستطرد أبو دلف، فجعل الخليفة المطيع لله العباسى من جملة الساسانيين :

ومنـــا قيـــم الديـــن الـــ مطيـــع الشـــائع الذكـــر

وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان[1].

ثم يقول أبو دلف عفا الله عنه :

ســـقى الله بنـــى ساســـا غيثـــا دائـــم القطـــر
إلا أنـــى حلبـــت الدهـــ ن مـــن شـــطر إلى شـــطر
وجبـــت الأرض حتـــى صـــر ت فـــى التطـــواف كـــالخضر
وللغربـــة فـــى الحـــر فعـــال النـــار فـــى التـــبر
ومـــا عيـــش الفتـــى إلا كحـــال المـــد والجـــزر
فبعـــض منـــه للخـــير وبعـــض منـــه للشـــر
فـــإن لمـــت علـــى الغربـــة مثلـــى فـــاسمعن عـــذرى
أمـــالى أســـوة فـــى غـــز بنـــى بالســـادة الطـــهر
فـــإن أظفـــر بآمـــالى شـــفيت لغلـــة الصـــدر
وقـــد تخفـــق فوقـــى عـــز ة ألويـــــة النصـــــر
وإمـــا تكـــن الأخـــرى فـــلا أبـــت مـــع الســـفر
ولا عـــدت متـــى عـــدت بـــلا عـــز ولا وفـــر

هذه هى أبيات من القصيدة الساسانية، التى نظمها أبو دلف، وأنشدها الصاحب، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد أتينا على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين العويصة.

ولا نقول عنها إلا وثيقة أدبية كبيرة[2] الدلالة فى الشعر العباسى، وأنها من أرفع نماذج الساسانى وهى حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة.

---

(1) ٦/ ٧٦ و ٣٠٧ "تجارب الأمم" لمسكويه.
(2) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز "فى الحضارة الإسلامية"، ٢: ١٠٧ يقول عنها : إنها وثيقة اجتماعية فى القرن الرابع.

ولقد كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨، ٩٦٩ - ١٠٠٧م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثا أدبيا جديدا فى الأدب العربى.

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها، ونزعة القصة فيها، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الإسكندرى وراويتها عيسى بن هشام. كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل شخصية الساسانى أبى الفتح بطل.

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شديدا.

وليس هناك إلا البديع نفسه، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى، وصاحب الفضل فى إنشائها، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦ - ٥١٦هـ) فى مقدمة مقاماته، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا إلى بديع الزمان. وعلامة همذان، وكذلك جعل الثعالبى فى "اليتيمة" البديع أبا عذرتها، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون منهم مارون عبود مثلا. إذ يقول[1] إن خطة المقامات من عمل البديع، فهو الذى ألبسها هذا الطراز، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف هام، وعبثا يحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع.

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول[2]: فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى.

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة، ولكن الحصرى صاحب كتاب "زهر الآداب" يذهب فى كتابه[3] إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ)، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك[4] أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة، وإن كان له فضل فى نشأتها. وينفى مؤلف كتاب "بديع الزمان رائد القصة القصيرة" وهو الدكتور مصطفى الشكعة[5] أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع.

---

(1) ٢٤ "بديع الزمان" لمارون عبود.

(2) ص١٦ "مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته" - مازن مبارك.

(3) ١: ٢٣٥ "زهر الاداب".

(4) "النثر الفنى" لزكى مبارك.

(5) ص٢٠٧ "بديع الزمان" للشكعة.

ويجعل آخرون البديع محتذيا حذو أستاذه ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) في رسائله الحوارية .

ويذكر آخرون، ومن بينهم الدكتور شوقي ضيف[1] أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه في البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية، ومع جواز ذلك في المضمون، فإن شكل المقامة الفني يبقى جديدا كل الجدة عند البديع: وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة في أي عمل أدبي أو غير أدبي.

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات، ويذكر آخر أن قصص جحا في الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر في نشأة المقامة، وهذا كله كلام يعوزه الدليل، ولا تنهض به الحجة[2].

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل :فارسي، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل بديع الزمان، إذ لم تعرف المقامة في الأدب الفارسي إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان. فأول مقامات كتبت بالفارسية هي للقاضي حميد الدين البلخي الذي بدأ بكتابتها عام ٥٥١هـ وتوفي بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨هـ/ ١١٦٤م) كما يقول براون، ويؤكد محمد تقي بهار[3] أن المقامة من اختراع البديع، وأن كل اختراع في الأدب العربي كان له صداه في الأدب الفارسي، وأن حميد الدين قلد البديع والحريري في مقاماته ويذكر الأنوري إعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين.

إن هذه القصة الحوارية القصيرة، ذات المنهج الفني الملتزم، والصياغة الطريفة، والصنعة الجديدة، والفكرة الساسانية، التي دعيت مقامة، قد أنشأها بديع الزمان الهمذاني، لتجابه مطالب الحياة الفنية الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة في عصره.

---

(1) ٢٠ "المقامة" للدكتور شوقي ضيف – طبع دار المعارف .

(2) راجع ١٤٦ "الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني" للمؤلف.

(3) "تاريخ تطور النثر الفارسي" – محمد تقي بهار.

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هو أبو الفتح الإسكندى. وهو الذى مثل كل أدوارها، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها.

وشخصية أبى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقا. فهو بطل الموقف كله فى المقامة، وهو - كما يصوره الهمذانى - عالم وأديب وشاعر، وهو ناقد بليغ، ومغامر محتال ماهر، مشرد فى الآفاق، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام. وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها عركها وعركته يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية، ويهز الناس بفصاحته وبلاغته.

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية.

أما وصف الإسكندى الذى لازمه فقد يكون معززا لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الإسكندر، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الإسكندر.

وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله "إسكندرية دارى"[1] نسبة إلى الإسكندرية لا إلى الإسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.). ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين، فتكون نسبته إلى الإسكندرية مقصودا بها إلى الرمز إلى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الإسكندر التى تنسب إلى مدينته.

ويقودنا ذلك إلى التساؤل: أية إسكندرية كان يعنى البديع. وكان ينتسب إليها أبو الفتح الساسانى؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه: إنى امرؤ من أهل الإسكندرية من الثغور الأموية. وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول: من الثغور الأموية والبلاد الإسكندرية. ويكرر أبو الفتح نسبته إلى الإسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى.

---

[1] راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع:

إسكندرية دارى   لو قر فيها قرارى

فإذا رجعنا إلى ياقوت[1] وجدناه يذكر أن الإسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه، ثم تغيرت أسماؤها بعده، فمنها : إسكندرية مصر، والإسكندرية التى صار اسمها سمرقند، والتى صارت مرو، والتى سميت بعد باسم بلخ، وإسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر إشبيلية - وهى التى رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها أنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع إلا أنى وجدت رحالة عربيا فى القرن الرابع - هو أبو دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند، ويقول عنها : إن الخليفة الأموى مقيم بها[2]، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الإسكندرية أيضا، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر، ويذكر باحث عراقى أن الإسكندرية بين بغداد والحلة[3]، ولكن ما صلتها إذن بالثغور الأموية؟.

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة "الآموية" نسبة إلى نهر آموى[4] - جيحون - وبذلك تكون الإسكندرية المقصودة هى مدينة الإسكندر على نهر آموى.

ومع ذلك كله فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة .

فمن هو أبو الفتح الإسكندرى إذا؟

١- هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته :

كلاهما مجهول لا يعرف "ونكرة لا تتعرف" وهذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى "الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى"[5] ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى إيوار، فيقول: وضع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتح، وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخا للبديع، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩هـ) مؤلف تاريخ همذان، وينقل ذلك عنه

---

(1) ١/ ٢٣٥ معجم البلدان .

(2) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٥/ ٣٠٩ معجم البلدان .

(3) يعد رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى، وهو طارق العوسج، وهو مدرس بمكة المكرمة حاليا .

(4) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات د. عزام فى كلية الآداب عام ١٩٤٤م.

(5) ص١٤٧ الكتاب المذكور طبع القاهرة ١٩٥٧م.

ياقوت فى معجم الأدباء ولعل ذلك وهم ناشىء من قول البديع فى مطلع كل مقامة من مقاماته: حدثنا عيسى بن هشام، ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث، وأكثر انطباقا على الموضوع.

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب "بديع الزمان" الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه[1].

٢- وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين "إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين"، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية.

وأنا معهم فى ذلك. ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية.

يذهب باحث عراقى[2] سبق الإشارة إليه أن أبا الفتح هو البديع نفسه، ومن قبل قيل قلت ذلك فى كتابى "الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى"[3] حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه، وشىء من أخلاقه. ولكنى أخالف ذلك اليوم، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل.

ويذهب باحث آخر[4] إلى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح "نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة: كابن الحجاج (ت ٣٩١هـ)، وابن سكرة (ت ٣٨٥هـ) وأبى الورد، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى، بل البديع نفسه، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى".. ومجمل هذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الإسكندرى كثيرون فى عصر البديع، وأن أقربهم شبها به هو أبو دلف والأحنف. وهذا الرأى لا يأتى لنا

---

(1) بديع الزمان ص٢٣٢ .

(2) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة الدكتوراه عن مقامات الحريرى.

(3) ١٥٧ و١٥٨ الكتاب المذكور .

(4) ص٢٣٤ "الأدب فى ظل بنى بويه" للزهيرى - طبع مصر ١٩٤٩م.

بجديد ولا بأمر يؤكد فى البحث فى أية حال، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له.

٣- ورأيى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع، وهو أبو دلف الخزرجى وحده.

وهذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع. ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى "يتيمة الدهر"[1] قال:

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف، ونسبه فى بعض المقامات إلى أبى الفتح الإسكندرى.

ويحك هذا الزمان زور ... فلا يغرنك الغرور[2]
لا تلتزم حالة ولكن ... در بالليالى كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية:

١- أنشد البديع الثعالبى شعرا لأبى دلف.

٢- وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته إلى أبى الفتح، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع.

٣- كان البديع راوية لشعر أبى دلف، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم.

وإذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات، وكنى عنه بأبى الفتح، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى شخص أبى الفتح الإسكندرى. ولأن شهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان.

---

(1) ٣: ٢٥٤ اليتيمة.

(2) هذا الشعر فى المقامة القريضية إحدى مقامات البديع.

بل إنى أضيف إلى ذلك أن البديع الهمذانى حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والوزراء رأى أن الصورة الفنية تصلح أساسا لفن جديدا ابتكره وسماه "المقامة"، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فن المقاومة فى الأدب العربى، فى القرن الرابع، وفى عصر أبى دلف.

وقد اطلعت بعد نشر هذا الرأى والانتهاء منه بزمن على دليل آخر يؤيدنى فى هذه القضية، ففى كتاب "النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة يقول مؤلفه د. محمد غنيمى هلال ما نصه :

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استملى منها الهمذانى نموذجه الأدبى وهو الشاعر أبو دلف، وكان معاصرا لبديع الزمان، وكان بديع الزمان يعجب به ويستدعيه إلى مجلسه، ويحسن إليه ويحفظ من شعره، والجانب الواقعى من أبى دلف قد أمد - دون ريب - بديع الزمان بالمادة الغفل لمقاماته ماثلة فى شخصية الشاعر المذكور وأدبه، وقد ترك هذا الجانب الواقعى كذلك أثرا فى تصوير باطن نفسى لنموذج أبى الفتح.

ومع ما فى هذه الجملة القصيرة من ذهاب إلى ما قلناه، من أن شخصية أبى دلف هى شخصية أبى الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع، فإن فيها على قصرها أخطاء كثيرة هى:

أولا : قوله : وكان - أى أبو دلف - معاصرا لبديع الزمان .

فإن الأولى أن يقال : وكان البديع معاصرا لأبى دلف لأن أبا دلف كان قد بلغ الستين على حين كان البديع ابن عامين، وكان أبو دلف نديم الملوك ومسامرهم ومحدثهم، والذى تفتح له أبوابهم دون حجاب.

ثانيا : قوله وكان - أى بديع الزمان يستدعيه - أى أبا دلف - إلى مجلسه أليس الأولى العكس. أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن إلى شاب صغير.

ثالثا : قوله : وكان - أى البديع - يحسن إليه، -أى إلى أبى دلف. أبو دلف العظيم محدث الملوك وطرفة الدنيا، أكان فى حاجة إلى إحسان شاب صغير فقير .. كلا فقد كان أبو دلف فى ثراء مما ناله من عطاء الملوك ورفدهم عندما كان البديع لا يزال شابا مجدا طالبا للشهرة وللمال معا.

نقد الشعر
لقدامة بن جعفر

منزلة قدامة فى النقد :

قدامة بن جعفر (٢٧٦ - ٣٣٧هـ = ٨٨٩ - ٩٤٨م) من أشهر النقاد العرب، الذين أثروا حركة النقد الأدبى فى اللغة العربية، ودفعوا بها إلى الأمام دفعات قوية، ووجهوا النقد والنقاد وجهة جديدة استمر صداها على طول العصور. وكتابه "نقد الشعر" صار أصلا لجميع الدراسات النقدية العربية، لأنه استحدث مذهبا جديدا فيها صار قدامة صاحبه، وله فضل الكشف عنه.

وكان لآراء قدامة فى نقد الشعر صدى كبير عند النقاد القدماء، بل لقد أحدثت ضجة كبيرة فى وسطهم، فالآمدى (٣٧١هـ) ألف كتابا فى تبيين غلط قدامة فى كتابه "نقد الشعر"[1]. وألف عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩هـ) كتابا فى شرح نقد الشعر لقدامة[2]، وكتابا بعنوان "كشف الظلامة عن قدامة"[3].

وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء كما يقول مؤرخوه[4]. ونسب إليه كتاب "نقد النثر" الذى حققه الدكتوران طه حسين وعبد الحميد العبادى. وقد وجدت نسخة خطية كاملة من الكتاب نفسه فى مكتبة تشستر بيتى برقم ٧٦٧ تحت عنوان "كتاب البرهان فى وجوه البيان"، لأبى الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، فصحت نسبة الكتاب لابن وهب المعاصر

---

(1) راجع ١٢٥ الموازنة للأمدى "طبعة صبيح"، ومعجم الأدباء فى ترجمة الأمدى.

(2) ٧/٢ فوات الوفيات لابن شاكر. ولعبد اللطيف البغدادى كتاب قوانين البلاغة، واختصر كتاب الصناعتين للعسكرى "٧/٢ و ٨فوات" - ويروى صاحب "كشف الظنون" أن للبغدادى كتابا اسمه "تكملة الصلة فى شرح نقد الشعر لقدامة" "٢٤٦/١ كشف الظنون"، وكتابا آخر اسمه "كشف الظلامة عن قدامة" "٢/ ٤٠٠ كشف الظنون". ولعل الكتاب الأول هو الاسم الكامل لشرح البغدادى لنقد الشعر. وينسب لابن رشيق القيروانى كتاب بعنوان "تزييف نقد قدامة" "٨٨ تحرير التحبير لابن الإصبع المصرى - ٦٥٤هـ". ويرجح أنه ليس لابن رشيق صاحب "العمدة".

(3) ٢/ ٤٠٠ كشف الظنون لحاجى خليفة .

(4) ٢٠٣/٦ - ٢٠٥ معجم الأدباء لياقوت، ١٨٨ الفهرست لابن النديم، ٣٤/٢ كشف الظنون، تاريخ بغداد فى ترجمة قدامة - قدامة بن جعفر والنقد الأدبى للدكتور بدوى طبانة، الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية - فى النقد الأدبى للدكتور شوقى ضيف.

لقدامة بعد ما ثار جدل كبير حول صحة نسبة كتاب "نقد النثر" إلى قدامة، وكان الذى ظهر من الكتاب، اعتمادا على نسخة الأسكوريال[1] باسم "نقد النثر" وبتحقيق الدكتورين طه حسين والعبادى هو نحو ثلث الكتاب . وقد نشر الكتاب كاملا أخيرا الدكتور أحمد مطلوب فى بغداد .

ولقدامة كتب كثيرة من مثل : سر البلاغة فى الكتابة، وصنعة الكتابة، وكتاب الألفاظ، وكتاب الخراج، وغيرها، وله كتاب آخر أشار إليه ياقوت فى "معجم الأدباء" وهو "الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام"[2].

هل هو أول من ألف فى النقد ؟

وقدامة فى مقدمة كتابه "نقد الشعر"[3] يرى أن كتابه أول كتاب يؤلف فى النقد، فيقول فى مقدمته : "ولما وجدت الأمر على ذلك، وتبينت أن الكلام فى هذا الأمر - أى النقد - أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر، وأن الناس قد قصروا فى وضع كتاب فيه رأيت أن أتكلم فى ذلك بما يبلغه الوسع"[4].

وقدامة يغفل جهود العلماء السابقين فى تأصيل قواعد للنقد من مثل: الأصمعى فى كتابه "فحولة الشعراء"، وابن سلام فى كتابه "طبقات الشعراء"[5]، والجاحظ فيما كتبه عن النقد فى كتبه "البيان والتبيين"، "والحيوان" وغيرهما، وابن قتيبه فى كتابه "الشعر والشعراء"، والمبرد فى كتابه "قواعد الشعر"، وثعلب فى كتاب له بعنوان "قواعد الشعر" أيضا، وقد حققته وظهر مطبوعا عام ١٩٤٨، وابن المعتز فى كتابه "البديع" وسوى هؤلاء الأعلام الخالدين فى تراثنا العربى والنقدى.

---

(1) تحت رقم ٢٤٣ .

(2) ٦/ ٢٠٤ معجم الأدباء لياقوت "مرجليوث".

(3) طبع طبعات عديدة : فقد نشره س. أ. بونيباكر بمطبعة بريل فى ليده عام ١٩٥٦، ومن قبل طبع فى الجوائب عام ١٣٠٢هـ وطبع فى القاهرة طبعة أخرى عام ١٩٣٤ بشرح لمحمد عيسى منون وبشرح آخر لكمال مصطفى وظهر عن مكتبة الخانجى.

(4) ص١٢ نقد الشعر طبعة القاهرة ١٩٣٤ .

(5) يرى الكثير من الباحثين أن طبقات الشعراء، أول مؤلف عربى فى النقد "راجع: النقد المنهجى لمندور، ٧٤ تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه إبراهيم، ٢/١٠٨ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان".

مذهبه فى النقد :

وقد فصل قدامة فى كتاب "نقد الشعر" مذهبه فـى النقـد: فقسم الشعر إلى عناصره الأولى المفردة من اللفظ والمعنـى والـوزن والقافيـة، وإلى عنـاصر أربعـة أخـرى مركبة من هذه العناصر. ويذكر أن الشعر قد يكـون جيـدا أو رديئـا أو بـين الأمريـن، وإنه صنعة ككل الصناعات يقصد إلى طرفـها الأعلـى[1] ويقـول : إنـه يذكـر صفـات الشعر التى تبلغ به غاية الجودة، فإن وجد بقصد هذه الحـال كـان شـعرا فـى غايـة الرداءة، وإلا فهو بين بين، أى بين طرفى الجودة والرداءة بحسب مدى قربه من أى الطرفين أو توسطه بينهما.

فعناصر الشعر عنده هى : اللفظ - المعنى - الوزن - القافية ويتألف من هـذه العناصر أربعة عناصر أخرى هى:

١-ائتلاف اللفظ مع المعنى .

٢-ائتلاف اللفظ مع الوزن .

٣-ائتلاف المعنى مع الوزن .

٤-ائتلاف المعنى مع القافية .

وصفات اللفظ الجيد عنده هى سماحة اللفـظ - سـهولة مخـارج الحـروف - الخلو من البشاعة - الفصاحة .

وصفات الوزن الجيد هى : سهولة العروض - الترجيع .

وصفات القوافى الجيدة هى : عذوبة حـرف القافيـة - سـهولة مخرجـها - التصريع فى المطلع .

وصفات المعنى الجيد هى : الوفاء بالغرض المقصود. **أمـا الغلـو فـى المعنـى** فيؤثره قدامة على الاقتصار على الحد الوسط. ويقـول : إنـه عنـده أجـود المذهبـين. وإنه هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وحديثا حتـى قـال بعضـهم: "أعذب الشعر أكذبه" وإنه مذهب فلاسفة اليونـان فـى الشـعر علـى مذهـب لغتـهم. ويقصد بهم أرسطو صاحب أول مدرسة نقدية فى الـتراث النقـدى الأوروبـى. ويؤكـد قدامة أن الغلو يعد من باب الخروج عن الموجود والدخول فى باب المعدوم فالمراد بـه

(1) ١٣ نقد الشعر لقدامة طبعة ١٩٣٤ بالقاهرة .

المثل وبلوغ النهاية فى النعت. ولما كانت المعانى عند قدامة لا نهاية لها فقد عدد نعوت الشعر فى أغراض الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف إلخ.

فنعت المدح الجيد عنده هو الصدق، ويقسم الفضائل الإنسانية إلى التقسيم الفلسفى المشهور، العفة والشجاعة والعدل والعقل، ويقول: إن المدح الجيد يكون بهذه الصفات أو بعضها، وإن كان ذلك يعد قصورا، وقد يصف الشاعر الممدوحين ببلوغ الغاية فى هذه الصفات من باب الغلو والمبالغة .

والهجاء ضد المدح فى رأيه، وصفاته مضادة لصفات المدح. ويقرر أنه ليس بين المدحة والمرثية فرق إلا فى اللفظ دون المعنى، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح - ولعل عبد الصمد بن المعذل (٢٣٠هـ) هو أول من قال بهذا الرأى حيث روى عنه ابن رشيق فى "العمدة" - ج١، ص١٠٣ - أنه قال : "الشعر كله فى ثلاث لفظات : إذا مدحت قلت : أنت، وإذا هجوت - قلت: لست، وإذا رثيت - قلت: كنت" - ولا نوافقه على ذلك كله.

ثم يذكر قدامة نعوت الوصف الجيد، ويتحدث من أجل ذلك عن التشبيه، والغزل. ويقول: إن هذه هى نعوت أغراض الشعر التى نحتها الشعراء من المعانى، وهذه الأغراض بالنسبة للمعانى جزء من كل. فأما ما يعم جميع المعانى من نعوت الشعر فهى: صحة التقسيم - صحة المقابلة - صحة التفسير - التتميم - المبالغة - التكافؤ - الالتفات - الاستغراب أو الطرافة.

ويستقصى قدامة نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى، من : مساواة - إرداف "كتابة" - إشارة - تمثيل - مطابق ومجانس .

ويذكر نعوت ائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، ومع القافية من التوشيح والإيغال.

ويذكر عيوب الشعر فى اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية، وعيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى، ومع الوزن، وعيوب ائتلاف المعنى مع الوزن، ومع القافية، وهى كلها بعكس ما ذكره فى صفات الجودة.

خصائص مذهبه النقدى :

يكون هذا المنهج العقلى المحض فى النقد مذهب قدامة النقـدى، الذىصـار حديث النقاد فى عصره وبعد عصره إلى اليوم.

فقدامة يحكم عقله المنطقى فى النقد إلى أبعد حد، فالمديح الجيد عنده بذكر الفضائل الإنسانية، فـإذا كـان المـدح بشـرف الآبـاء كـان معيبـا، لأنـه ليـس مدحـا بالفضائل. والهجاء بنفى الحسب والنسب معيب، ويقرر أنه ضد المدح. والمرثيـة فـى رأيه هى المدح مع جعل الأسلوب ماضيا. وهـذا خطـأ فـى إغفـال العاطفـة والتجربـة الشعرية، وإغفال جوهر الموضوع الشعرى نفسه. وحين يرى قدامة أن المبالغة أجـود، يعود فيقيدها بمنهج العرب ومألوفهم[1]، ثم يقيدها بألا تخرج إلى حـد الممتنـع الـذى لا يكون[2]. وقدامة مع تفضيله للمبالغة يرى أن الشاعر كثير عزة فى قوله لعبد الملـك بن مروان:

على أبى العاصى دلاص[3] حصينة

أبلغ وأجود من الأعشى الشاعر الجاهلى فى قوله :

كنـت المقـدم غـير لابـس جنـة

أى كنت المقدم فى الحرب دون أن تكون لابسـا دروعـا وحديـدا تتقـى بـها الطعان والضرب. وقدامة ينسى أن العرب قد تصف الرجـل بالشجاعة، وقـد تصفـه بالحذر والاحتراس من المخاطر بلبس الدروع، وذلك أسلوبان من أساليب العـرب فـى المدح[4].

ويجعل قدامة طرافة المعنى واختراعه ليست نعتا للشعر بل للشاعر[5]. وذلك غريب فى الفهم، وقد يستجيد أبياتا ويعيـب أخـرى دون سـبب معـروف، ومخالفا لأذواق النقاد. بل يجعل بيت ابن هرمة الشاعر المشهور فى المدح بالكرم:

تـراه إذا مـا أبصـر الضيـف كلبـه ... يكلمـه مـن حبـه وهـو أعجـم

---

(1) ص٣٧ نقد الشعر، السطر ١٠ – ١٢ .
(2) ص١٢٥ المرجع نفسه، السطر ١٢ – ١٥ .
(3) أى دروع سابغة .
(4) راجع ٣٢٨ – ٣٣١ الوساطة للقاضى الجرجانى – طبعة صبيح .
(5) ٨٨ و ٨٩ نقد الشعر .

مصادر قدامة النقدية :

لقد تأثر قدامة في كتابه بالثقافات العقلية التي كانت سائدة في البصرة في عصره، والتي تتلمذ عليها، وأخذ منها. ففي القرن الثالث، الذي عاش قدامة في آخره، وفي البصرة بالذات، التقت الثقافات العربية الإسلامية والمترجمة الدخيلة التقاء فكريا على نحو رائع، ونشأت طبقة من المثقفين الذين تثقفوا على هذا الفكر الإنساني، وكان في مقدمتهم المعتزلة، الذين رجعوا إلى المنطق اليوناني، وقرأوا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان، وترجموا آراء الأمم الأخرى في البيان ومناهجه، وترجموا - فيما ترجموه - كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية، فالخطابة ترجمة إسحاق بن حنين (٢٩٨هـ)، وكتاب الشعر اختصره الكندي (٣٥٣هـ).

وأخذت هذه الطبقة تؤلف في صناعة الشعر. وللكندي أول الفلاسفة العرب رسالة في صناعة الشعر[١]، ولأبي زيد البلخي كذلك كتاب بهذا العنوان أيضا[٢]، وكذلك لأبي خفان المهزمي رواية شعر أبي نواس[٣].

وكان متكلمو المعتزلة بتضلعهم من الفلسفة اليونانية أصحاب آراء كثيرة في النقد والبيان.

ومن البدهي أن يقرأ قدامة كل هذه الثقافات وأن يستفيد منها ويتأثر بها، وقد استفاد قدامة من كتابي أرسطو: الخطابة، والشعر، وإن كان الدكتور طه حسين يرى أنه كان يجهل كتاب الشعر[٤]، على أن تشريع الفلسفة للأدب يظهر في رأي الدكتور طه لأول مرة في كتاب "نقد الشعر".

ونظرية الفضائل وقيامها على أربع صفات، وحديثه عن المقاربة في الاستعادة، عن الاستعارة اللفظية، هي صورة مأخوذة من فلسفة أفلاطون وآراء أرسطو.

---

(١) ٣٥٩ الفهرست لابن النديم .
(٢) ١٩٨ المرجع نفسه .
(٣) ٢٠٧ المرجع نفسه .
(٤) ص٧ مقدمة نقد النثر .

وقدامة بذلك يبـاين فـى منهجـه منـهج النقـاد العـرب الأصـلاء، مـن مثـل الأصمعى وابن الأعرابى وابن سلام والحافظ وابن المعتز وابن قتيبة وغيرهم.

وإن كان نهج قدامة العقلـى يعـد أكـبر وأجـرأ خطـوة نحـو تدويـن البلاغـة العربية وأصول النقد والبيان .

وحسبنا أن ثلاثة من كبار النقاد العرب قد أولوا منهج قدامة فى نقد الشـعر عناية جلى، وتأثروا به تأثرا عميقا، وهم :

١-أبو هلال العسكرى (٣٩٥هـ) فى كتابه "الصناعتين".

٢-ابن سنان الخفاجى (٤٦٦هـ) فى كتابه "سر الفصاحة".

٣-ابن رشيق القيروانى (٤٦٠هـ) فى كتابه "العمدة".

كما تأثر علماء البلاغة والبديع تأثرا شديدا بقدامة وآرائه فى "نقد الشعر".

ومن البدهى أن يستفيد قدامة من ابن المعتز (٢٩٦هـ) وكتابه "البديع" فائدة كبيرة. فكثير من أسباب الجودة عند قدامة هى مما ذكره ابن المعتز فى البديـع علـى أنها من صنعة الشعر ومحسناته الفنية .

وبلاغة التجنيس عند قدامة، ونظرية قرب الشبه فى الاستعارة، والاسـتعارة من الضد، وابتناء الشعر على التخييل أى المحاكاة، هى كلها مما قرره قدامـة وأفـاد منه عبد القاهر الجرجانى (٤٧١هـ) وغيره من النقاد والبلاغيين العرب من بعده.

النقد عنده ذاتى أم موضوعى :

هذا هو منهج قدامة فى النقد، ولكن إلى أى مدى يمكـن أن نقـول: إن هـذا المنهج تأثرى أو موضوعى، وإلى أى الجانبين كان ينحاز قدامة؟

لقد كان منهج قدامة النقدى يتفق وموضوعية النقد. فهو يعتمد علـى منـاهج موضوعية يحكم النقاد على أساسها. والنقد الموضوعى مر بأطوار كثيرة خـلال عصـور التاريخ الأدبى العالمى:

-فمن نقد أرسطو الذى بناه على أصول فصلها فى كتابيه "الشعر. والخطابة".

-إلى نقد قدامة المبنى على قواعد ونظرية محددة.

-إلى نقد المدارس الحديثة التى ربطت النقد بعلوم النفس والجمال والاجتماع.

ويرفض الكثير من النقاد موضوعية النقد، حيث ثاروا على قواعد أرسطو، كما ثار النقاد العرب على قواعد قدامة، وثار المحدثون على آراء المدارس الحديثة التى تؤمن بموضوعية النقد، ومن بينهم طه حسين ومندور والزيات.

وقف جمهور من النقاد موقفا وسطا فدعوا إلى التخفيف من إخضاع النقد للعلوم الحديثة، ومنهم الدكتور النويهى وغيره.

وفى نقد نظرية إخضاع النقد للعلوم الحديثة يقول مندور: إن معنى هذه النظرية الانصراف عن الأدب وتذوقه وفهمه إلى نظريات عامة لا فائدة منها لأحد، ورأى وجوب قصر المشتغلين بالنقد جهدهم على دراسة النص الأدبى، ويصرح لانسون عميد النقاد فى فرنسا بأن التجربة قد حكمت بفشل تلك المحاولات.

وقد جهد مندور فى تقرير أن النقد ذاتى تأثرى ويجب أن يظل كذلك تأثريا يخضع للذوق وحده "١١٦ - ١٢٩ فى الميزان الجديد لمندور".

ويعتد ابن سلام والآمدى والقاضى الجرجانى بالذوق، وكان عبد القاهر الجرجانى شيخ النقاد العرب يرى أن النقد الأدبى يجب أن يكون فنا طليقا لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبى السليم، وقد سبق عبد القاهر بمذهبه فى النقد مدرسة الرومانتيكيين فى فرنسا، التى حاربت نظرة الكلاسيكيين إلى النقد كعلم له أصوله وقواعده ومناهجه، ورجعت إلى الشعور والعاطفة، وإلى هذا نادى سانت بيف فى قوله: "ليس هناك قواعد تخلق الكاتب الكلاسيكى". وقوله: "النقد لا يمكن أن يصبح علما موضوعيا، وسيبقى دائما رقيقا فى يد من يحاولون استخدامه". ويقول جول ليمتر: "إننا نحكم بالجودة على ما نحب، أى أننا نرى حسنا ما نحب". وقد فطن الجاحظ والبحترى والصاحب بن عباد إلى أن النقد شىء مستقل عن كل علم آخر، وأن قوامه الذوق[1].

أولية النقد بين قدامة والناشئ:

وبعد. فلقد أحدث قدامة بمنهجه النقدى - الذى صورناه لك - فى كتابه "نقد الشعر"، ثورة فكرية عميقة، ظهر صداها فى تراثنا النقدى والبلاغى والبيانى. وفيما ألف من كتب بعده فى البديع.

---

[1] ص٢٠ النقد العربى الحديث ومذاهبه.

وصار قدامة حديث العلماء والنقاد فى عصره وبعد عصره، ولا يـزال صداه وفكره النقدى قويا وسائدا ومستمرا فى تراثنا حتى اليوم.

ومن الجدير بالذكر أن معاصره الناقد "الناشىء الأكبر"[1] (٢٩٣هـ) ينسب إليه كثير من الدارسين أولية النقد، وينسب آخرون هذه الأولية إلى قدامة، ومن حيث يشيد بعض القدماء بالناشىء، يشيد آخرون بقدامة، ومن بينهم "التوحيدى" فى بعض كتبه وذكر له كتابا بعنوان "نقد الشعر" وهو مفقود[2]. ويقول التوحيدى عن الناشىء: ما أصبت أحدا تكلم فى نقد الشعر وترهيفه أحسن مما أتى به الناشىء المتكلم، وأن كلامه ليزيد على كلام قدامة وغيره[3]. ولا مجال للمقارنة بين الناشىء وقدامة لأن تراث الناشىء النقدى مفقود.

ويحاول بعض الباحثين أن يأخذ مما ذكره ابن رشيق فى كتابه "العمدة" من بعض الآراء المفرقة ما يضىء سبيل البحث عن منهج نقدى للناشىء[4]، ولكن الضوء الخافت الذى يمكن أن يكشف عن بعض الآثار القليلة لنقد الناشىء، لا يوصل إلى شىء.

وعلى الجملة فلا يزال قدامة وكتابه "نقد الشعر" ومنهج هذا الكتاب النقدى، هو صاحب المقام الكبير فى تراث العربية النقدى حتى الآن ..

---

(1) راجع : ٤١٧ – ٤١٨ طبقات الشعراء لابن المعتز، ٢١٧ الفهرست لابن النديم، ١٠/١٧ تاريخ بغداد، ٢٧٧/ ٢ وفيات الأعيان، ٨٥ مراتب النحويين، ١٢٨/ ٢ إنباه الرواة، ١/١٤٠ حسن المحاضرة، تاريخ النقد الأدبى عند العرب لإحسان عباس .

(2) ٢/٢٧٣ و٢/٦١٩ البصائر والذخائر للتوحيدى، ١٤٧ أصول النقد .

(3) ١١٧/ ٢ البصائر والذخائر .

(4) د. يوسف حسين بكار – مجلة الأديب اللبنانية عدد يونيو ١٩٧٤ .

من التراث الأندلسى
روائع الشعر العربى - المرقصات والمطربات
لابن سعيد الأندلسى
تحقيق الأستاذ إبراهيم الجمل - د / عبد الحميد هنداوى

- ١ -

ابن سعيد الأندلسى (٦١٠ - ٦٨٥هـ) من أعلام الفكر الأندلسى، تنقل فى حياته فى العديد من البلدان الإسلامية، والتقى بالعلماء والأدباء، وزار مصر، وأقام فى الإسكندرية طويلا، وفى القاهرة تعرف إلى جمال الدين الجزار الشاعر المصرى المشهور وألف كتاب "الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط"، ترك تراثا خالدا والعديد من المؤلفات النفيسة منها :

-المغرب فى حلى المغرب .

-المشرق فى حلى المشرق (ومخطوطته فى المكتبة التيمورية).

-وكتابنا هذا "المرقصات والمطربات" من روائع الشعر العربى.

- ٢ -

يحتوى الكتاب على روائع من الشعر العربى منذ الجاهلية حتى عصر المؤلف.

بدأه المؤلف بمختارات من نثر أعلام الأدب العربى من شتى الديار من مثل: عبد الكاتب - إبراهيم الصولى - ابن المعتز - ابن العميد - الصاحب بن عباد - بديع الزمان الهمذانى، والحريرى، والقاضى الفاضل وأضرابهم.

ثم تلا ذلك بمختارات من روائع الشعر الجاهلى، فشعر الشعراء المخضرمين، فالشعراء الإسلاميين إلى نهاية الدولة الأموية، فالمخضرمين من شعراء الدولتين - الأموية والعباسية - فالمحدثين من شعراء صدر الدولة العباسية حتى آخر المائة الثانية، فشعراء المائة الثالثة، فشعراء المائة الرابعة، ثم الخامسة، فالسادسة،

ثم المختار من روائع شعر شعراء المائة السابعة ومنهم الحاجرى (٦٣٢هـ)، وابن يعيش (٦٥٦هـ)، والأربلى (٦٧٧هـ)، والتعلفرى (٦٧٥هـ).

يلى ذلك مختارات من روائع شعر شعراء المغرب فى المائة الرابعة، والمائة الخامسة، فالسادسة، فالسابعة ومن شعرائها: ابن مطروح، وفى عد ابن مطروح من شعراء المغرب ما فيه من ملاحظة وتأمل، والجزار (المتوفى عام ٦٧٩هـ)، وفى عده له من شعراء المغرب ملاحظة أخرى، ومنهم عفيف الدين التلمسانى (المتوفى عام ٦٩٠هـ).

– ٣ –

وإذا كان الكتاب عنوانه "المرقصات والمطربات" فماذا يريد ابن سعيد بهذين اللقبين؟

يرى ابن سعيد أن "المرقص" ما كان مخترعا أو مولدا يلحقه بطبقة الاختراع، لما يوجد فيه من السحر وبلاغة القصيد.

أما "المطرب" فيريد به ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابتداع.

واختيارات ابن سعيد تنم عن ذوق رفيع وإدراك لبلاغة القصيد، وروعة النظم.

– ٤ –

وقد بذل المحققان الفاضلان قصارى الجهد فى التحقيق والتوثيق والشرح وتفسير مضمون كلام ابن سعيد، وفى الترجمة للأعلام، وفى خدمة الكتاب وإخراجه فى أروع صورة وأجمل طبعة.

الأدب العربى فى مصر
من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى
تأليف محمود مصطفى

- ١ -

محمود مصطفى .. هو الأستاذ العلامة الجليل، أحد سدنة اللغة العربية وآدابها فى عالمنا العربى المعاصر ..

عاش حياته (١٨٨٠ - ١٩٤٣) بعد تخرجه من مدرسة دار العلوم (القديمة - كلية دار العلوم اليوم) يعمل جاهدا فى خدمة اللغة العربية، وخدمة الأدب العربى:

١-فحقق العديد من الكتب، ومنها: "المجازات النبوية" للشريف الرضى، وكتاب "الصبح المنبى عن حيثية المتنبى" للبديعى، وكذلك "هبة الأيام فى شعر أبى تمام".

٢-كما ألف العديد من الكتب، ومنها: الكلمات - إعجام الأعلام.

٣-وكتب عن الأدب العربى كتبا شامخة، ومنها: كتابنا هذا :

-الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى.

-الأدب العربى فى العصر العباسى.

-الأدب العربى فى الأندلس ومصر.

٤-وله فى علمى العروض والقافية كتاب "أهدى سبيل إلى علمى الخليل".

إلى كتب عديدة أخرى مطبوعة، وكتب مخطوطة تركها فى آخر حياته أمانة فى رقاب الأجيال، وقد فقدت جميعها ! !

وقد كان يقوم بتدريس الأدب العربى وتاريخه فى مدرسة دار العلوم. وفى كلية اللغة العربية بالقاهرة؛ هذه الكلية الشامخة حرسها الله معقلا للأدب ولغة العرب.

وكان محصوله الأدبى والعلمى محصولا ثريا، غنيا، موفور العطاء لطلابه.

وكان محبوبا من جميع طلابه وزملائه، يفيد ولا يستفيد، ويعطى ولا يأخذ، ويهب من علمه وأدبه لكل من يطلب علمه وأدبه - رحمه الله رحمة سابغة.

- ٢ -

وكانت عناية الأستاذ العلامة محمود مصطفى، بالأدب العربى فى مصر - عناية كبيرة وفائقة .

ومع صعوبة البحث فى أدبنا العربى القديم فى مصر؛ لفقدان الكثير من مصادره ومراجعه، وبقاء العديد منها مخطوطا بدون تحقيق حتى اليوم؛ فإنه قد اقتحم الصعاب، وطرق الأبواب، للنفاذ منها إلى ساحة الأدب نفسه، دون أن تعييه حيلة، أو يستغلق عليه باب.

وكتبه عن الأدب العربى ثرية العطاء، جمة الفوائد.

- ٣ -

وكتاب "الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى" يعد موسوعة أدبية حافلة شاملة، تتناول تاريخنا الأدبى القديم فى مصر بعصوره وأعلامه طيلة ما يزيد على ستة قرون (٢٠ - ٦٤٨هـ).

ويقسم العلامة محمود مصطفى (فى المقدمة)، تاريخ الأدب العربى فى مصر إلى عدة عصور:

١- عصر الفتح الإسلامى والولاة الإسلاميين فى عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية وقرن وربع قرن من أوائل العصر العباسى (٢٠ - ٢٥٤هـ).
٢- عهد الدولة الطولونية .
٣- عهد الدولة الإخشيدية .
٤- عهد الدولة الفاطمية .
٥- عصر الدولة الأيوبية .
٦- ثم عصر دولتى المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ).
٧- العصر العثمانى (٩٢٣ - ١٢٢٠هـ).
٨- العصر الحديث (١٢٢٠هـ - حتى اليوم).

★ وفى كتاب "الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى" تحدث العلامة محمود مصطفى عن الفتح الإسلامى لمصر، وهجرة القبائل العربية إليها، وذيوع اللسان العربى فيها فى عهد الخلفاء الراشدين، وعهد الدولة الأموية، كما تحدث عن عبد العزيز بن مروان والى مصر طيلة عشرين سنة (٦٦ - ٨٦هـ) ووفود الشعراء إليه طلبا للعطاء، وساق الكثير من النصوص الأدبية فى ذلك شعرا ونثرا.

★ وتحدث عن الأدب فى عهد الولاة العباسيين (١٣٢ - ٢٥٤هـ) وذكر عددا من الشعراء الطارئين على مصر، وساق الكثير من النصوص الأدبية.

ثم تكلم عن الحركة العلمية فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية عصر الولاة العباسيين.

ولا شك أن عهد الولاة فى مصر (٢٠ - ٢٥٤هـ) كان هو المقدمة الطويلة التى مهدت لظهور أدب مصرى أصيل فى جذوره وفى مختلف ألوانه وفروعه.

★ وذكر العلامة محمود مصطفى بعد عصر الولاة حالة الأدب العربى (شعرا ونثرا) فى مصر فى عهد الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢هـ)، ووصف الحركة العلمية فى مصر آنذاك من مذاهب فقهية، ومن تاريخ ولغة، وغير ذلك.

★ ويحدثنا الأستاذ محمود مصطفى عن الأدب العربى فى مصر فى عهد الدولة الإخشيدية (٣٢٤ - ٣٥٧هـ)؛ فيذكر أسباب ازدهار الأدب شعرا ونثرا، وتحدث عن الحركة العلمية فى هذه المدة القصيرة، وذكر أحاديث مفصلة عن كثير من العلماء .

★ ثم يتحدث المؤلف عن الأدب العربى فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٦هـ) ذاكرا أسباب ازدهار الأدب، والشعر بصفة خاصة، ثم يتناول الحديث عن الحركة العلمية فى هذا العصر، ويذكر دور الكتب فى العصر الفاطمى وفى مقدمتها "دار الحكمة"، كما يذكر معاهد العلم فى أيام الفاطميين وفى مقدمتها الأزهر الشريف .

★ ويتحدث المؤلف عن الأدب العربى فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨هـ) فيذكر أسباب ازدهار الأدب فى هذا العصر، والعلوم التى ازدهرت فى هذه الفترة، وهى فترة الحروب الصليبية على مصر والشام، ويفيض فى الحديث عن الشعر والشعراء، وعن الكتابة والكتاب، وعن رواده الحركة العلمية فى ذلك العصر.

- ٥ -

وبعد؛ فنحن أمام موسوعة أدبية جمة العطاء والثراء، تفيض فى الحديث عن الأدب المصرى خلال ستة قرون متتالية (٢٠ - ٦٤٨هـ).

والفضل كل الفضل راجع إلى المؤلف الجليل - رحمه الله رحمة سابغة، وأجزل ثوابه، وجزاه فى الدار الآخرة.

ونذكر هنا - بالفضل - مكتبة الآداب العامرة وصاحبها الأستاذ أحمد على حسن حفظه اله ورعاه ووفقه؛ فقد بذل من جهده ونفسه وماله فى نشر هذا الكتاب نشرا علميا جليلا، وبذل كل ما فى وسعه من طاقة فى إخراجه فى هذا الثواب القشيب، وبهذا التحقيق المتاز، والله يوفقه إلى صالح الأعمال.

ولابد لنا فى هذا المقام أن ننوه بالجهد الكبير الذى بذله الباحث حسن نجار محمد، الذى سهر على الكتاب: بحثا، وتحقيقا، ومراجعة؛ من أجل إخراج هذه الطبعة الجديدة المتميزة للكتاب، ومن أجل عمل فهارس شاملة له، وهى فهارس متعددة يعيى عملها أى باحث أو مراجع أو مؤلف.

الحياة والموت فى الشعر الأموى[1]
للدكتور / محمد بن حسن الزير

– ١ –

الذين يريدون دراسة الشعر الأموى عليهم أن يعودوا إلى هذا الكتاب الشامخ أو الموسوعة الجامعة، التى عرضت للشعر فى عصر بنى أمية (٤١ – ١٣٢هـ) من جميع جوانبه عرضا علميا جادا حافلا تتوافر فيه الأصالة والعمق والجدة جميعا فى شتى مظاهرها وملامحها.

وحسبك بهذا البحث أنه يشير إلى مصادر وفيرة لا تتأتى لبحث ولا لباحث ينال كل التقدير العلمى النزيه، والذى يبنى أحكامه النقدية على نصوص شعرية تتجاوز ألفا وأربعمائة نص، وعلى العرض لشعراء العصر الأموى الذين يتجاوز عددهم ثلاثمائة وثمانين شاعرا، والذى يرجع إلى أمهات مصادر التاريخ والأدب والشعر والنقد مما يتجاوز ألف مصدر.

وهذه الدراسة تستحق التنويه والإشادة، وحسبك بها أنها جمعت بين الأصالة والجدة معا، وبين العرض لمختلف القضايا الموضوعية والقضايا الفنية جميعا فى نطاق البحث، وأنها لم تلجأ إلى الأحكام العامة أو الأحكام المسبوقة المألوفة، بل جاءت فى صورة نظرية متكاملة تربط بين مظاهر الحياة وشواهد الموت فى الشعر الأموى الثرى مادة وموضوعا وفكرا.

– ٢ –

ومع المقدمات التى افتتح بها هذا السفر الثمين، والبحث الشامل، تجىء مادة الموضوع فى أربعة فصول كبار، تقع فى ٦٥٠ صفحة.

فالفصل الأول : يتناول الباحث فيه الموضوع من حيث أنه يكون المشكلة، باحثا فى أعماق العصر وهمومه وإشكالية الموت.

الكتاب يعرض العصر الأموى فى وراثته للفكر الجاهلى، وللفكر الإسلامى، ولهموم العصر وأحداثه، وهو عصر عجيب وغريب حقا تتجمع فيه كل المشكلات.

---

[1] رسالة جامعية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من آداب جامعة القاهرة عام ١٤٠٢هـ

صراع حول الولاية بين أحزاب كبيرة متطاحنة وبين عصبيات متعددة متضاربة، وينطق صدى ذلك كله فى إشكالية الموت فى الشعر الأموى (١ - ١٢٦).

والفصل الثانى : يعرض الباحث فيه لمعالجة فكرة الزمن وعلاقته بالموت فى إحساس الشاعر بالزمن، وفى مختلف شواهد الشعر، ومن حيث العلاقة بين القدر والزمن، وبين الموت والزمن، إلى الإشارة لمظهر الزمن فى الشعر نفسه حيث كانت القصيدة الأموية تعبيرا عن الزمن شكلا ومضمونا [١٢٧ - ٢٦٨).

وفى الفصل الثالث : يعالج البحث تجارب الموت فى حياة الشاعر الأموى بكل ظواهرها وشتى جوانبها، كالمرض والشيخوخة، والفقر والحرمان، والهجر والنوى، وكالمطاردة والسجن، وكاندراس الديار وتحولها إلى أطلال، وكالليل والصحراء، وكالظلم والاضطهاد، وما إلى ذلك كله (٢٦٩ - ٤٤٤).

وفى الفصل الرابع : يعرض البحث للحياة عند الشاعر الأموى كموقف من الموت، ولمظاهر هذه الحياة وجوانبها المتعددة كالمرأة والحب وكاللهو والترف، وشتى مباهج الحياة، وكالفخر بالذات وكمجالس الفناء، وكمواجهة الآلام بصدر رحب، وكتحمل المسئوليات الجسام، والصبر واللجوء إلى الله عزت قدرته وغير ذلك (٤٤٥ - ٥٧٨).

وما أصدق الكميت الشاعر (-١٢٦هـ) الذى يقول:

رضينا بدنيا لا نريد فراقها

على أننا فيها نموت ونقتل

وتثير مصادر البحث وخاتمته، وملخصات فصوله، الكثير من إعجاب القارئ، ومن تقديره لعمل موسوعى كبير كهذا العمل المشرف الجاد، الذى يندر أن يقوم بمثله باحث، أو نجد ظله فى دراسات أكاديمية جامعة.

– ٣ –

على أن هذا البحث مع خصوصيته، يعرض لمختلف مظاهر التطور والتجديد فى الشعر الأموى.

★ يعرض لموسيقى الشعر .

★ ويفسر الظاهرة الطليلة فى مطلع القصيدة .

★ ويستقصى آراء النقاد فى تفسيرهم للظاهرة الطليلة .

★ ويتحدث عن شعراء العصر الأموى من العذريين .

ويلم بالشعراء الصعاليك فى هذا العصر، ويحلل مئات القصائد للشعراء الأمويين ليستنبط منها أحكاما موضوعية أو نقدية أو فكرية، وليستنطقها دلالات لأحكام أدبية كبيرة ومن الطريف هنا أن نذكر ما سجله الباحث عن رأى المستشرق الألمانى "فلتر براونه" فى أن الشعر الطللى يقوم على عنصرين: الوقوف على الطلل وذكر المحبوبة وفى أن ذلك تعبير رمزى عن الموت والحياة (مجلة الشعر المصرية عدد فبراير ١٩٦٤)، والعجيب أن الدكتور عز الدين إسماعيل قد أخذ ذلك الجانب لنفسه فى مقال له [منشور فى مجلة الكتاب عام ١٩٦٤] ناسبا ذلك لنفسه لا لمصدره الأول وهو المستشرق الألمانى فالتربراونه (ص٣ - ١٤ مجلة الشعر ١٩٦٤).

ومما عرض له البحث أيضا شعر الغزل الهجائى الذى رآه الباحث الكبير الدكتور الزير ممثلا فى شعر عمر بن أبى ربيعة وفى شعر ابن قيس الرقيات.

ابن الرقيات يتغزل غزلا فاضحا فى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٥ - ٨٦هـ) وهى زوج الوليد بن عبد الملك، كما تغزل كذلك بعاتكة بنت يزيد بن معاوية وهى زوج عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى نفسه.

وكذلك تغزل عمر بن أبى ربيعة بأم البنين، وتغزل كذلك ابنة عبد الملك بن مروان وبسيدات قرشيات من البيت الأموى، إلا أن غزله فيهن لم يعرض فيه لذكر الأسماء كما فعل ابن الرقيات (٥٢٤ - ٥٣٣).

وهذا الجانب الشعرى ذو هدف سياسى واضح، وهو محاولة لزعزعة العرش الأموى من قبل ومن بعد.

ومن طرائف ما ورد فى هذا السفر القيم هذا الحديث النبوى الشريف: [لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح [مسلم ٤/ ٢١٠٤].

وبعد فإننا حيال عمل موسوعى كبير فى دراسة أصيلة "للحياة والموت فى الشعر الأموى". لا نملك إلا الإيجاز ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وإلا لكنا بحاجة إلى مئات الصفحات من أجل كتابة دراسة شاملة لكتاب موسوعى جليل كهذا الكتاب.

الموازنة للآمدى

- ١ -

أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى الأصل، البصرى النشأة، المتوفى عام ٣٧١هـ، وصاحب كتاب "الموازنة" بين أبى تمام والبحترى، من أعظم النقاد العرب، وأضخمهم أثرا فى النقد الأدبى، وأكبرهم توجيها لحركة النقد وللنقاد.

ولقد ولد بالبصرة، واختلف إلى حلقاتها العلمية، ولما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد، وتردد على مجالس العلماء، يتلقى عنهم اللغة والنحو والشعر والأدب. ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتبا للقضاة من بنى عبد الواحد، وبرز فى الأدب، وطارت شهرته فى النقد، وانتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار فى آخر عمره، وترك تراثا كبيرا فى اللغة والنقد. وكان فوق ذلك شاعرا مجيدا، وتوفى بالبصرة عام ٣٧١هـ[1]. ومن كتبه : الموازنة، المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء، تفضيل امرئ القيس على الجاهليين، معانى شعر البحترى، الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام، فرق ما بين الخاص والمشترك من معانى الشعر، تبيين غلط قدامة فى كتابه "نقد الشعر"، كتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ.

كان الآمدى ذا ثقافة أدبية واسعة، وكان يميل إلى الطبع والذوق. الشعر عنده صحة تأليف، وعذوبة لفظ، وسماحة عبارة، والبلاغة عنده فى جمال اللفظ والأسلوب، وموافقتهما للنهج العربى فى صحة التأليف وجودته، أما المعانى وسموها والحكمة وروعتها والخيال وجدته، فهى ترف زائد عن الحاجة، ولها نصيب من حسن الصنعة وبهائها، ولكن لا تتوقف عليها البلاغة، وكان يسير فى طريق الجاحظ فى ذلك كله، فمن قبل كان الجاحظ والنقاد يقولون: "عليك أن تجتنب السوقى والوحشى، ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى، وفى الاقتصاد بلاغ[2] من حيث كان قدامة بن جعفر ينادى بضرورة

---

(1) راجع ص٧٥ – ٨/٩٣ معجم الأدباء لياقوت، وقد ترجم له لسيوطى بإيجاز فى كتابه بغية الوعاة.

(2) ١٨٢ و ١٨٣ الموازنة – طبع صبيح .

العناية بالمعنى بمقدار العناية باللفظ، لأن اللفظ والمعنى عنده عنصران من عناصر الأدب، وكان يجاهر بأن البلاغة فى شيئين: معنى مبتدع، ونظم ساحر، وهو لذلك يجعل مادة الشعر المعانى[1]، بعكس الآمدى الذى جعل مادة الشعر هى اللفظ. وكان الآمدى حريصا على تحكيم النهج العربى فى النقد، أى تحكيم عمود الشعر، الذى هو فى أبسط صورة: كل القيم الفنية التى تتحكم فى بناء القصيدة ومن ثم نستطيع أن نقول: إن الآمدى هو أعظم النقاد العرب الذين احتكموا إلى عمود الشعر، وجعلوه هو الأساس الأول للنقد والموازنة فى الأدب العربى.

– ٢ –

وكتاب "الموازنة" أثر ضخم خالد فى صرح ثقافتنا النقدية، وقد ألفه الآمدى فى فترات متقطعة، فهو يذكر فى آخر كل فصل أنه سيضيف إلى ما كتب ما سيعثر عليه من أخطاء أو سرقات، وسيلحقه بما كتب، وهو يقرر فى أول كتابه أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه فى الموضوع والوزن والقافية وإعرابها[2]، ثم يعود فيجعل الموضوع وحده هو أساس الموازنة[3].

والموازنة من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله، وهى مصدر من أهم مصادر البيان العربى، ويعتمد عليها علماء البلاغة اعتمادا كثيرا، وإذا كانت هى مصدرا من مصادر البيان، فليس ذلك معناه أنها كتاب بلاغة كما زعم ابن الأثير فى كتابه "المثل السائر" حيث أخطأ فى ذلك، ثم بنى على هذا الخطأ نقده للموازنه بأنها أغفلت كثيرا من مباحث علم البيان[4].

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام أو خمسة أبواب :

١–فالقسم الأول يورد فيه الآمدى آراء النقاد فى شعر أبى تمام والبحترى، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو لذاك .

٢–والقسم الثانى يذكر فيه الآمدى أخطاء أبى تمام فى اللفظ والأسلوب والمعنى .

---

[1] ص١٤ سطر ١٦ نقد الشعر لقدامة.

[2] ص٢٣ الموازنة .

[3] ص١٨٤ الموازنة .

[4] ص٢ المثل السائر لابن الأثير .

٣-القسم الثالث يذكر فيه استعارات أبى تمام المستهجنة، وما جاء فى شعره من طباق مستكره ومن سوء نظم، وتعقيد تركيب، ووحشى ألفاظ. وما وقع فيه من كثرة زحافات، مما جعل دعبلا يقول فيه: "إن كلامه بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون".

٤-والقسم الرابع يحلل فيه بإيجاز عيوب شعر البحترى.

٥-والقسم الخامس يوازن فيه بين الشاعرين موازنات جادة فى المعانى التى اتفق موضوعها فى شعرهما. ويبدأ الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر، وأن لهذا الميدان رجاله ممن عنوا بكثرة النظر فى الشعر وطول الملابسة له، وأنه يجب أن يكون لهؤلاء المرجع فى نقد الشعر وصناعته.

ويذكر رأيه فى بلاغة الشعر وأنها لا تكون إلا فى نظمه وأسلوبه وصحة طبعه. ويقول: إن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأنه له من ذلك ما ليس لسواه وإن كانوا لا ينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى، وكثرة استنباطه لها، وإغرابه فيها، ولا ينكرون كذلك مكانه البارز فى حومتها.

ولكنهم يقولون. إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع، مما ذهب بماء شعره، فصار غير متشابه الأطراف، ولا متآلف الروح. فهم يسلمون له كما يسلم له أنصاره لطف المعانى وعمقها وتنوعها، وبديع الوصف، وجودة التشبيه والتمثيل، وسمو الحكمة، وإغراق الخيال. وهى ضالة الشعراء جميعا، والتى قدم بها امرؤ القيس فى الجاهلية: ولكن خصوم أبى تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعرا، ويقولون له: فلتكن إن شئت حكيما أو فيلسوفا، أما الشاعر فالبحترى. ويشرح مذهب البحترى فى الشعر، مقررا أنه ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظما وأسلوبا، وإن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين الشاعرين فى بكاء الديار ووصف الأطلال وفى موضوعات أخرى، وكثيرا ما يقف بجانب البحترى منوها بشعره وبشاعريته إلى نهاية الكتاب .

إن الامدى فى معظم ما كتب كان ناقدا محيطا بكل أسرار اللغة ودقائق البيان .. ولياقوت رأى فى كتابه "الموازنة" ، فهو يقول : "كتاب الموازنة فى عشرة أجزاء، وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه فى مواضع منه، ونسب إلى الميل مع البحترى فيما أورده، والتعصب على أبى تمام فيما ذكره، والناس فيه على فرقتين: فرقة قالت برأيه فى البحترى وغلبة حبهم لشعره، وفرقة أسرفت فى التقبيح لتعصبه، وأنه جد فى طمس محاسن أبى تمام، وتزيين مرذول شعر البحترى، ولعمرى إن الأمر كذلك .. وقد يكون ياقوت مصيبا فى رأيه هذا إلى حد كبير.

فالآمدى يرجع إلى ذوقه، فنقده تأثرى لا موضوعى، وهو يحكم عمود الشعر فى النقد، فيرجع إلى مناهج القدماء فى الأداء ويجعلها الحكم فى تفضيل الشعراء.

ومع تأثره بآراء النقاد قبله: كالجاحظ وابن سلام وابن قتيبة والأصمعى وابن الأعرابى وخلف وأبى عمرو بن العلاء وسواهم، فإن له شخصيته المستقلة فى النقد، ونهجه المعروف فى الموازنة.

وأصول الكتاب ترجع إلى آراء نقاد القرن الثالث كما يقول طه إبراهيم فى كتابه "تاريخ النقد الأدبى عند العرب"، وقد صرح الآمدى بذلك فى الموازنة، ولكن له فضل التنسيق والإضافة والمنهج والتطبيق والشرح والتحليل والموازنة والحكم. وقد كانت اتجاهات النقاد فى القرن الثالث تحكم النهج العربى فى النص، فهم يميزون جيد الشعر من رديئه بعرضه على ميزان الطبع وعلى عمود الشعر. وكذلك فعل الآمدى، فاللغة عنده هى كل شىء فى النقد، وللعرب طريق خاص فيما ينطقون من أساليب، وفيما ينظمون عليه شعرهم من أوزان، ولهم نهج خاص فى مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم وفى ألوان البديع التى يلمون بها فى كلامهم من مقابلة وطباق وجناس، وما إلى ذلك كله. وذلك النهج هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه، ويتنبه له، ويأتى بشعره على طريقه، ويحتذى فى أسلوبه حذوه وعلى مثاله. وهذا هو ما سمى بعمود الشعر. وهو ميزان النقد وأساسه عند صاحب "الموازنة". ومن حيث حكم قدامة فى نقده عقله حكم الآمدى ذوقه. والنقد عند

قدامة موضوعي وعند الآمدي تأثري والعقل أساس النقد عند قدامة، أما الآمدى فأساسه عنده هو العمودية التي ترجع إلى الذوق لتستمد منه حكمه عند التطبيق.

- ٤ -

ولقد كانت قضية النقد الأولى في القرن الرابع هي الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتري، والحكم كذلك على شاعرية أبي الطيب المتنبي وشعره، ومن أشهر نقاد هذا القرن: قدامة بن جعفر صاحب كتاب "نقد الشعر" وقد توفى قدامة عام ٣٣٧هـ، والقاضي الجرجاني صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وقد توفى الجرجاني عام ٣٩٢هـ على ما أرجحه، والحاتمي صاحب "الرسالة الحاتمية" في نقد شعر المتنبي، وقد توفى عام ٣٧٣هـ، وابن وكيع التنسي (٣٩٣هـ) صاحب كتاب "المنصف في سرقات المتنبي"، وأبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ) صاحب كتاب "إعجاز القرآن" وممن لهم قدم راسخة في النقد في هذا القرن: أبو بكر الصولى (٣٢٦هـ) مؤلف كتاب "أخبار أبي تمام" وكتاب "أخبار البحتري"، وأبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) مؤلف كتاب "الأغاني"، والصاحب بن عباد الوزير (٣٨٥هـ) صاحب رسالة "الكشف عن مساوىء شعر المتنبي".

وهكذا نرى أن فريقا من نقاد هذا القرن عنوا بقضية الموازنة بين الطائيين، وفريقا آخر عنوا بقضية شاعرية المتنبي ومنزلته في الشعر. ولا شك أن أبا تمام والبحتري والمتنبي هم أئمة الشعر العربي وأشهر أعلامه في القديم. وحول المتنبي ألفت كتب كثيرة، وشرح ديوانه فحول العلماء والنقاد: كابن جني والمعرى ومحمد الهروى، وابن الإفليلي، والواحدى، وعبد القاهر الجرجاني، والتبريزى، والعكبرى ثم اليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث، وللشاعر العوضي الوكيل شروح على ديوان المتنبي وقد صدر جزء منها.

وقد عرض الثعالبي في الجزء الأول من كتابه "يتيمة الدهر" للمتنبي وشعره بالدراسة والتحليل. ولمحمد بن أحمد المعتزلي راوية المتنبي كتابان عنه هما: "الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي"، "التنبيه المنبي عن رذائل المتنبي" ولابن حسنون المصرى كتاب "نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب" وليوسف البديعي المصرى كتاب "الصبح المنبي عن حيثية المتنبي" الذى نشره المرحوم الأستاذ محمود مصطفى .

- ٥ -

ومهما كان الأمر فإن الآمدى والقاضى الجرجانى يحتلان فى النقد فى القرن الرابع مكانة علمية لا تدانيها مكانة أحد، بكتابيهما : الموازنة، والوساطة.

ويجعل القاضى الجرجانى الذوق الأدبى هو الحكم فى جميع مشكلات النقد والبيان وقضاياهما، ويرد إلى عمود الشعر كل ما اختلف النقاد عليه من مسائل النقد ومشكلاته. وقد جعل القاضى الجرجانى وساطته حوارا بين أنصار المتنبى وخصومه، كما جعل الآمدى موازنته حوارا بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى. ويصطبغ الحوار عند الآمدى بصبغة عقلية، كما يصطبغ الحوار عند الجرجانى بصبغة الذوق، والغرض الأول عند الجرجانى هو إنصاف المتنبى من خصومه ومن أجل ذلك حتى فى أول كتابه تجريد الحكم الأدبى على الشاعر وشعره من كل الاعتبارات الشخصية.

ولقد كلل الآمدى والقاضى الجرجانى هامة النقد الأدبى فى القرن الرابع الهجرى بأكاليل المجد والعظمة، وعبقرية الرجلين جعلت آراءهما فى النقد ذات خطر كبير، وأثر بعيد فى تطوره ونهضته وازدهاره، كما كانت أقوالهما النقدية بمثابة الحجة للنقاد عند اختصامهم فى قضايا الأدب والشعر والبيان .

وإن التراث العربى ليعتز كل الاعتزاز بهذين العلمين والرائدين الجليلين اللذين سارا بالنقد شوطا بعيدا فى طريق نهضته.

ويحفل كتاب الموازنة، كما يحفل كتاب الوساطة بالكثير والجديد من النظريات المبتكرة فى الأدب والشعر والبيان والنقد .. وذلك مما يرتفع بأهمية الكتابين فى تراثنا النقدى إلى منزلة عالية.

فالموازنة من أجل الكتب التى ظهرت فى النقد فى القرن الرابع. وكذلك فى الموازنة الأدبية وقد وضع هذا الكتاب أساسا قويا لنقد الشعر وللموازنة بين الشعراء. ويعد بحق من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله. وهو كذلك مصدر من مصادر البيان والبلاغة فى تراثنا الأدبى. ونحن حين نقول : "إنه مصدر من مصادر البيان والبلاغة" لا نعنى أنه كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الأثير ذلك فى كتابه المشهور

"المثل السائر"، فأخطأ، ثم بنى على هذا الخطأ نقده للكتاب بأن صاحبه قد أهمل كثيرا من مباحث علم البيان لم يستوف بحثها أو لم يذكرها أصلا[1].

ويؤكد الآمدى وكتابه أنه لا يرى بلاغة الشعر إلا فى نظمه وأسلوبه وصحة طبعه. مقررا أن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسواه، وإن كانوا لا ينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى وكثرة استنباطه لها وإغرابه فيها، ولكنهم يقولون: إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه، مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع، مما ذهب بماء شعره، فصار غير متشابه الأطراف، فهم يسلمون له ضالة الشعراء جميعا من لطف المعانى وعمقها وتنوعها، وبديع الوصف، وجودة التشبيه والتمثيل، وسمو الحكمة، وإغراق الخيال، وهى التى قدم بها امرؤ القيس فى الجاهلية.

ولكن خصوم أبى تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعرا، ويقولون له : فلتكن إن شئت حكيما، ولندعك إن أردت فيلسوفا، أما الشاعر فالبحترى. وما دام الشعر عند الآمدى نظما وأسلوبا فلابد أن يكون البحترى هو المقدم عنده. وهو الشاعر الأثير لديه.

والآمدى مع بلاغة اللفظ والأسلوب والنظم فالبلاغة عنده وقف على ذلك، أما المعانى والحكم والأخيلة فذلك الترف الزائد عن الحاجة، والذى إن ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد فى حسن صنعته وبهائها، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عما سواها، كما يقول الآمدى فى الموازنة. وهو فى هذا متأثر بالجاحظ ومذهبه، وكان الجاحظ يقول: "عليك أن تجتنب السوقى والوحشى. ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى. وفى الاقتصاد بلاغ[2]، ولكنه يباين قدامة ومنهجه الذى كان ينادى بضرورة العناية بالمعنى كما نعنى باللفظ، ويجاهر بأن البلاغة فى شيئين : معنى مبتدع. ونظم بليغ.

---

(1) المثل السائر.

(2) ١٧٩/ ١ البيان والتبيين للجاحظ – تعليق السندوبى – طبع التجارية بالقاهرة.

وكان ابن قتيبة يشرك كلا من اللفظ والمعنى فى البلاغة، ويجعلهما عنصرين مستقلين استقلالا تاما، من حيث مال قدامة إلى أن بلاغة كل منهما ضرورية فى بلاغة النموذج الأدبى، وجاء ابن طباطبا فى "عيار الشعر" فذهب إلى أن للشعر جسدا وروحا فجسده النطق - أى اللفظ، وروحه المعنى[1]، وهو ما ذهب إليه ابن رشيق فى كتابه "العمدة"، فليس اللفظ عندهما بمفصول عن المعنى، ولا المعنى بمفصول عن اللفظ، فبينهما وحدة ما فى النص الأدبى، وجاء عبد القاهر الجرجانى بعد فأكد أن اللفظ والمعنى هما وجهان لنموذج واحد. فلا يفهم اللفظ بدون معنى، ولا يفهم المعنى بدون لفظ، فبينهما وحدة عضوية كاملة، وذلك ما شرحه شرحا واسعا فى نظرية النظم التى أفاض فى شرحها فى كتابه "دلائل الإعجاز".

إن الآمدى يطبق فى النقد نظرية عمود الشعر العربى تطبيقا كاملا، فالبحترى عنده هو الشاعر لأنه يحرص على كل القيم الرفيعة التى شرعها وحرص عليها الشعراء القدماء، من امرىء القيس إلى ابن هرمة وبشار، فى اللفظ والمعنى والأسلوب والخيال، وفى اللغة والوزن والصورة الشعرية، وغير ذلك، لا يخرج عليها، ولا يبعد عنها، مع صحة الطبع، وجودة السبك، وقوة الملكة.

وفى موازنة الآمدى بين الشاعرين أبى تمام، والبحترى، يطبق أبو القاسم الآمدى نظريته هذه (العمودية، أو عمود الشعر) تطبيقا واسعا وجريئا وثريا على شعر الشاعرين، فيرى البحترى يسير مع القدماء فى أدائهم وأساليبهم وأخيلتهم ومعانيهم وصورهم، ويرى أبا تمام يبعد عن القدماء فى ذلك جله بعدا كثيرا، وهو فى كل ذلك خاضع لمنهج، ومتأثر بنظرية، ومطبق لمذهب، ومن أجل ذلك أثنى على البحترى، وقسا على أبى تمام، حتى لقد رمى بسببه بالتعصب على أبى تمام والانتصار للبحترى.

يقول الآمدى فى مطلع موازنته : "أكثر من شاهدته ورأيته من رواة أشعار المتأخرين يزعمون أن شعر أبى تمام، حبيب بن أوس الطائى، لا يتعلق بجيده جيد أمثاله، ورديئه مطرح مرذول "فلهذا كان مختلفا لا يتشابه، وأن شعر الوليد بن عبيد

---

(1) ٤ وه عيار الشعر لابن طباطبا.

البحترى صحيح السبك، حسن الديباجة، وليس فيه سفساف ولا ردىء ولا مطروح، ولهذا صار مستويا، يشبه بعضه بعضا".

ثم يقول بعد ذلك :

"ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندى لتباين الناس فى العلم، واختلاف مذاهبهم فى الشعر. ولا أرى أن يفعل ذلك، فيستهدف لذم أحد الفريقين، لأن الناس لم يتفقوا على أى الأربعة أشعر: لا فى امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى، ولا فى جرير والفرزدق والأخطل، ولا فى بشار ومروان والسيد[1]، ولا فى أبى نواس وأبى العتاهية ومسلم والعباس بن الأحنف: فإن كنت - أدام الله سلامتك ممن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك، وحسن العبارة، وحلو اللفظ، وكثرة الماء والرونق، فالبحترى أشعر عندك ضرورة، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة. فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر، ولكن أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية، وبين معنى ومعنى، ثم أقول : أيهما أشعر فى تلك القصيدة وفى ذلك المعنى، ثم أحكم أنت حينئذ إن شئت على جملة ما لكل واحد منهما، إذا أحطت علما بالجيد والردىء[2].

ويؤكد ذلك أيضا فيقول :

"وأنا أبتدىء بذكر مساوئ هذين الشاعرين، لأختم بذكر محاسنهما، وأذكر طرفا من سرقات أبى تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره، ومساوئ البحترى فى أخذ ما أخذه من معانى أبى تمام، وغير ذلك من غلطه فى بعض معانيه ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة، إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى، فإن محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك. ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما، فجوده، من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه. وأفرد بابا لما وقع فى

([1]) هنا نقص، والكلام صحته : والراعى، ولا فى بشار ومروان والسيد وابن هرمة لأن الأربعة من الحاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين والمولدين جميعا فلابد أن يكون هنا أربعة شعراء من كل طبقة من هؤلاء.

([2]) ٥، ٦ جـ١ الموازنة (٢) ٧ جـ١ الموازنة .

شعريهما من التشبيه، وبابا للأمثال، أختم بهما الرسالة. ثم أتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما"[1].

ومذهب الآمدى فى الميل إلى بلاغة اللفظ وجودة السبك وصحة النظم جعله يرى أن الشاعر البحترى، وأن أبا تمام والمتنبى وأضرابهما حكماء. على أن الآمدى فيما سار عليه من مناهج فى النقد والموازنة متأثر بآراء النقاد قبله فلم يكن نقدهم إلا تحكيما للعمودية وللنهج العربى السليم فيما ينقدون، فأبو عمرو بن العلاء وحماد وخلف والأصمعى وابن الأعرابى وسواهم، كانوا يعرضون ما ينقدونه على ميزان الطبع ويحكمون نهج العرب فى بلاغتهم فى الموازنة. وكذلك فعل الآمدى، برجوعه إلى مناهج العرب فى الأداء والأسلوب والنظم، فيرد ما ترده، ويقبل ما تقبله، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب ونظم، ومن أفكار ومعان وأخيلة وصور وأوزان. وذلك النهج العربى الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به، ويحتذى حذوه، وينظم شعره على مثاله، ثم هو ميزان النقد، وهو عمود الشعر فالناقد يرجع إليه فى الحكم على الشعر، وفى كل مشكلات الأسلوب والمعانى والأخيلة والصور الشعرية. ولا شك فى تأثر الآمدى بآراء النقاد قبله، فهو يعتمد على آرائهم، ويستدل بحكومتهم فى النقد، حتى لقد قيل: إن كتاب "الموازنة" صورة لآراء النقاد قبل عصر الآمدى. وأن أصول كتاب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث ومؤلفيه[2]، وقد صرح الآمدى بما يدل على ذلك فى أكثر من موضع من كتابه، وفضل الآمدى إنما هو فى تدوين هذه الآراء وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها.

وإذا كانت موازنات الآمدى بين الشاعرين الخالدين، أبى تمام والبحترى، قد وضعت للموازنة وللنقد أصولا جليلة، اهتدى بها النقاد على طول العصور. فإنها كذلك وضعت أصولا أخذها البلاغيون فى القرن الخامس الهجرى.

ولقد تأثر القاضى الجرجانى فى كتابه "الوساطة" بمنهج الآمدى فى كتابه "الموازنة" تأثرا كبيرا، ولقد كانا متعاصرين، إذ توفى القاضى الجرجانى على ما

---

(1) تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه إبراهيم.
(2) تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه إبراهيم.

نرجح فى عام ٣٩٢هـ، وفى رواية فى عام ٣٦٦هـ، وكان القاضى الجرجانى يعيش فى جرجان، بينما كان الآمدى فى البصرة، ولقد حكم القاضى الذوق فى نقده كما حكمه الآمدى، ومآل الحكم فى النهاية عند الرجلين هو "عمود الشعر" ويجعل القاضى الجرجانى كتاب "الوساطة" حوارا أدبيا بين أنصار المتنبى وخصومه، كما جعل الآمدى "الموازنة" حجاجا علميا بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى. ويقدر هذان الناقدان مبدأ كبير الأهمية، وهو أن الشاعر الجاهلى، فضلا عن الإسلامى والمحدث، يخطىء فى شعره.

كما نهجا منهجا واحدا فى بحث السرقات وبعض ألوان البديع.

وقد وفى الآمدى الموازنة حقها، ففصل أخطاء الطائيين، ومظاهر إجادتهما، ووازن بينهما فى بسط وطول أناة، وكان فى ذلك أكثر بلوغا للغاية من صاحب الوساطة.

ولا يزال "مذهب عمود الشعر" عند الآمدى فى النقد جديدا أو كالجديد كما كانت نظرية البديع فى النقد عند ابن المعتز، ونظرية النظم عند عبد القاهر وبذورها عند الجاحظ جديدة كل الجدة كذلك. ومنذ القرن الثانى الهجرى عرف الأصمعى بمقياسه فى فحولة الشاعر وابن سلام بمقياسه فى طبقة الشاعر، وقدامة بمذهبه فى النقد الموضوعى، وابن طباطبا بمنهجه فى النقد التأثرى .. فإذا كان كل هؤلاء النقاد الكبار قد أسهموا فى وضع موازين علمية للنقد فى القرن الرابع الهجرى، أثرى بها الأدب ونقده والبيان والبلاغة، ثراء واسعا: فإن الآمدى ونظريته النقدية فى عمود الشعر لا يزالان يكتسيان بالجدة والابتكار والعبقرية.

والآمدى من الأعلام الخالدين، فى تراثنا النقدى الأصيل، ويقول فيه الأستاذ السيد أحمد صقر محقق كتاب "الموازنة": إنه أعظم نقاد الأدب العربى، وإنه إمامهم الذى لا يضارع، وإنه فى تاريخ النقد أمة وحده، فى دقة منهجه، وعمق فكره، وحسن عرضه، ونصاعة أسلوبه[1].

---

(1) ٢ جـ١ الموازنة.

الوساطة
للقاضى الجرجانى

- ١ -

عاش القاضى أبو الحسن الجرجانى، على بن عبد العزيز، فى القرن الرابع الهجرى، فى ظلال دولة بنى بويه، وفى عصر ابن العميد، والصاحب ابن عباد، والخوارزمى، وبديع الزمان الهمذانى، وأبى حيان التوحيدى، والشريف الرضى، وأبى الطيب المتنبى. وأبى فراس الحمدانى وأبى دلف الخزرجى مسعر بن مهلهل، وغيرهم من أعلام الفكر الإسلامى والأدب العربى.. ولد فى جرجان، وهى موطن خالد من مواطن الثقافة الإسلامية فى إيران. وسلك السبيل التى كان يسلكها الشباب آنذاك فى مثل هذه البيئة العلمية الحافلة. فأخذ فى دراسة علوم الدين واللغة والأدب، وتنقل بين جرجان والرى وبغداد والشام، حتى نضجت ثقافته وعقليته، ووطد العلم والأدب الصلات الفكرية بينه وبين الصاحب بن عباد الوزير، فاشتد اختصاصه به، وحل منه محلا بعيدا فى رفعته، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة. ومدح الجرجانى صديقه الوزير بقصائد بليغة، وقلده الصاحب قضاء جرجان، ثم رفعه إلى منصب قاضى القضاة بالرى عاصمة الملك الذى يسوسه ابن عباد، واستمر فى القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب عام ٣٨٥هـ .. وتوفى الجرجانى عام ٣٩٢هـ ويذكر الشيرازى فى كتابه "طبقات الشافعية" مؤلفات عدة له فى الفقه.

وينم شعر القاضى عن اعتزازه بنفسه، واعتداده بشخصيته، يقول فيما يقول:

وقالوا : توصل بالخضوع إلى الغنى	وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال بابان حرما	على الغنى: نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه	مواقف خير من وقوفى بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم	بنفس فقير كل أخلاقه وفر

كما ينم عن نبيل عواطفه، وجمال طبعه، وسعة ثقافته فى الأدب.

ترك البداوة التقليدية فى الشعر، وأنس إلى رقة الأسلوب وعذوبته. وله ديوان ذكره الشيرازى فى "طبقات الشافعية"، وابن خلكان فى "وفيات الأعيان"، ويقول الثعالبى فى القاضى الجرجانى: "كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى".

وعاصر الجرجانى حركة النقد التى قامت آنذاك حول شعر المتنبى. ولما ظهرت رسالة الصاحب بن عباد، الكشف عن مساوئ المتنبى فى شعره، رأى فيها جورا على الحق، وإسرافا فى الخصومة، وشططا فى النقد، فألف كتابه "الوساطة بين المتنبى وخصومه" ينصف فيه المتنبى من خصومة الصاحب وهذا الكتاب يعد سجلا أدبيا هاما لحركة النقد فى القرن الرابع، ولا يزال كما كان مصدرا من مصادر الثقافة الأدبية ..

- ٢ -

"الوساطة" أصل من كتب الأدب، وكان لظهور هذا الكتاب دوى شديد فى الأدب والشعر والنقد، وحسبنا رأى الثعالبى وابن خلكان فيه .. ويعده الباحثون من القدامى والمعاصرين من أروع المؤلفات فى النقد .. وهو يدل على فهم عميق للشعر، وإلمام واسع بكل ثقافات النقد والأدب .

يجعل الجرجانى الذوق الأدبى هو الحكم فى مشكلات النقد والبيان، ويحدد عناصر منهجه النقدى فيقول: "وإنما تفاضل العرب بين الشعراء فى الجودة والحسن، بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه - أى فى الشعر - لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته.

ويرجع الجرجانى فى النقد إلى مذاهب الجاحظ والآمدى وأصحاب الثقافات الأدبية الخالصة، مؤثرا أحكام الفطرة والذوق الخالصين، دون اعتداد بمنهج قدامة فى النقد ومناهج المقلدين لقدامة.

وفى الموازنة يعرض الجرجانى كل ما أجاد أو زل فيه الشاعر، ثم يوازن ويفاضل، مع الرجوع إلى حكم الذوق الذى ثقفه المران والبحث، وذلك ما سار عليه أئمة النقد والبيان، فما النقد - فى أهم مذاهبه - إلا دراسة الأشياء وتفسيرها،

وتحليلها وموازنتها بما يشابهها أو يقابلها، ثم الحكم عليها ببيان درجتها وقيمتها، والنقد الأدبى عند المحدثين هو التقدير الصحيح لأى أثر أدبى وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه.

سلك الجرجانى فى الوساطة مسلك الآمدى فى "الموازنة" فجعلها حوارا بين خصوم المتنبى وأنصاره، كما جعل الآمدى كتابه "الموازنة" حوارا بين أصحاب الطائيين - أبى تمام والبحترى - والغرض الأول للجرجانى فى الوساطة إنصاف المتنبى من خصومه، لذلك حتم فى أول كتابه تجريد الحكم الأدبى على الشاعر من الاعتبارات الخاصة.

وكما اعتد الآمدى فى الموازنة، بعمود الشعر وحكمه فى مسائل النقد، واستفتاه فى معرض الموازنة، صنع مثل ذلك أيضا القاضى الجرجانى فى "الوساطة".

ويذكر الجرجانى المتعصبين للمتنبى وعليه. وعقوق الفريقين له أو للأدب فيه، ويوجب الاعتراف بالفضل لذويه، معذرا للشعراء عما يقعون فيه من أخطاء، فأى شاعر كان بمنجاة من الخطأ؟ وهل سلم منه شاعر من الجاهليين أو الإسلاميين؟ وما دام الشعر علما من علوم العربية قوامه الإحسان فيه، من الطبع والرواية والمران والذكاء، فأى مانع من تفاوت ملكات الشعراء، وتباين منازلهم فيه؟ أيا كان، وفى أى عصر يعيشون. وإن كان للبيئات الأدبية العامة والخاصة أثرها فى تلوين الشعر بألوان تختلف جزالة ورقة، فالشعر الجاهلى فى قوته وجزالته، وشعر المحدثين فى رقته وعذوبته، يخضع كل منهما لما يخضع له الآخر من تأثر بعوامل البيئة والزمن. وما الرقة التى نراها أحيانا فى الشعر الجاهلى إلا صورة لاختلاف الأخلاق والطباع والأذواق وتركيب الخلق ولون المعيشة، وهى أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم، والغزل المتهالك، ويدعو الجرجانى المحدثين إلى الرقة والعذوبة. وإلى تنزيل الجزالة والرقة منازلهما بحسب المعانى والأغراض والموضوعات، كما يدعوهم إلى ترك التكلف، والاسترسال مع الطبع. ويشيد بشعر البحترى وطبعه. وبما يشاكله من نسيب جرير فى الإسلاميين وامرئ القيس فى الجاهليين. ويطرح الجرجانى الاعتداد بالبديع. أو جعله أساسا لجودة الشاعر فى شعره، فهو لا يبالى بالبديع. ولا يحتفل بالصنعة، التى ألم بها القدامى، وطلبها المحدثون، ويناقش الجرجانى خصوم

المتنبى. ثم يوازن بينه وبين سواه من المحدثين: كابن الرومى وأبى نواس وأبى تمام، موازنات رائعة جميلة. ويتحدث عن السرقات الشعرية. وعما ينكره خصوم المتنبى عليه فى المعانى والألفاظ والأساليب، وفى مذاهب الشعر: أحاديث رائعة عميقة ساحرة.

وموقف الجرجانى من السرقات الشعرية، التى رمى بها المتنبى خصومه والحاقدون عليه، من أنها لا تغض من شعر المحدثين، لسبق المتقدمين إلى المعانى، ولكثرة ما تتوارد خواطرهم مع خواطر السابقين، ولإخفائهم أمر السرقة بشتى الأساليب لزيادتهم عليهم فى أحيان كثيرة، بما يأتون به من زيادة وتأكيد وتعريض وتصريح واحتجاج وتعليل، موقف جميل ويرى وجوب الأناة فى رمى شاعر بالسرقة، حتى لا يخرج الناقد عن مجال الإنصاف.

وموقفه مما ينكره خصوم المتنبى عليه من أخطاء فى المعانى والألفاظ والأساليب، وفى مذاهب الشعر وأغراضه، موقف الناقد المعتدل، الذى يبحث ويتأنى، ويدقق ويعرض، وينصف الشاعر من خصومه وأنصاره على السواء.

ناقش خصوم المتنبى فيما رموه به من التقصير واستهلاك المعنى، وغموض المراد، مما يرجع إلى بعد الاستعارة والإفراط فى الصنعة، ورأى أنه لن يكون أكثر من الفرزدق تعقيدا وغموضا.

وناقشهم فيما رموه به من المبالغة والإفراط، ورأى أن ذلك مذهب عام فى المحدثين، فهذا الإفراط عيب مشترك، وذنب مقتسم، وموقع أبى الطيب منه موقع أى رجل من المحدثين.

وناقشهم كذلك فيما اتهموه به من إبعاد الاستعارة، والإغراب فيها. ورأى أن عذر المتنبى فى ذلك هو عذر سواه من الشعراء. الذين أبعدوا فى الاستعارة إبعاده. وعلينا أن نحمل ما يجىء من كلامه وكلام المحدثين على وجوه تقربهم من الإصابة. وأن نلتمس لهم شتى المعاذير.

وناقش الجرجانى خصوم أبى الطيب فيما عابوه به من أخطاء أخرى مناقشة نقدية عميقة بالغة غاية الروعة والجمال.

فمما أنكروه عليه قوله:

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما　　　فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

قالوا: إن "ما" ليست للتشبيه، وقد سئل أبو الطيب في ذلك فذكر أن "ما" تأتي لتحقيق التشبيه، نحو ما هو إلا الأسد .. ويرد صاحب الوساطة على أبي الطيب فيقول: إن التشبيه بما محال، و"ما" لم تتعد موضعها من النفي، وليست للتشبيه ولا لتأكيده.

وقد ينكرون على أبي الطيب قوله: "فما أحد فوقي ولا أحد مثلي"، ولكن هذا يدل على شعور المتنبي بالعظمة البالغة، وهو يعبر عن تجربته هذه خير تعبير.

وينكرون على أبي الطيب قوله في كافور:

يفضح الشمس كلما زرت الشمس　　　بشمس منيرة سوداء

لأن الشمس لا تكون سوداء، والإنارة تضاد السواد، فيرد عليهم الجرجاني بأنه لم يجعله شمسا في لونه حتى يستحيل عليه السواد، وقد يكون شبهه بالشمس في العلو والرفعة ونباهة الشأن، أو في النفع والجلالة.. ثم يقول في إنصاف: غير أن في الأسلوب بشاعة وبعدا عن القبول.

وهكذا يناقش القاضي الجرجاني وينقد ويحكم.

هذا هو القاضي الجرجاني، ناقدا امتد أثره في كل ما ظهر بعده من كتب في النقد والبيان، وأديبا ارتفع بذوقه إلى منزلة عالية في الأدب، وكان منارا للأدباء من بعده.

إن لكتابه "الوساطة" الكثير من المزايا التي لا توجد في كتاب آخر.

ففي كتاب الوساطة تصوير جيد لوجوه التفاوت بين القدامى والمحدثين، وعرض لكثير من مشكلات الأدب والبيان، وحديث جيد عن النقد ومذاهبه ومناهجه وتياراته.

عرض للبديع وشعرائه وألوانه، وللسرقات الشعرية وألوانها ..

وأفاض في الكلام على المبالغة والإغراق، وبخاصة في شعر المحدثين. ورأى أن الغلو مذهب عام للمحدثين، وأنهم لا يؤاخذون به، وذلك جنوح إلى رأي قدامة في نقد الشعر الذي يستحسن الغلو ويفضله.

ويذكر الغموض فى الشعر، ويأخذ الفرزدق وأبا تمام والمتنبى به، ويشرح أسبابه، ويفرق بينه وبين ما ينشأ عن غرابة الكلام وتوحش اللفظ من غموض.

ويذكر أسلوب الالتفات، والحشو، والفصل بين الكلام، وأسلوب القلب. كما تحدث عن التكلف والتعقيد اللفظى حديثا ممتعا. ويندد بعصبية الرواة على المحدثين، ويشيد بمكانتهم فى الشعر، إلى غير ذلك من مختلف مسائل النقد والبيان، التى عرض لها، وتحدث فيها، وناقش مختلف الآراء حولها. وحديثه عن السرقات الشعرية حديث رائع عميق.

وفى الوساطة تحامل على أبى نواس وأبى تمام وابن الرومى .. ومحاولة لإنصاف أبى الطيب من جور خصومه وعصبية أنصاره.

وإذا كان القاضى الجرجانى قد نقد بيت أبى الطيب:

ما بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى

ذاكرا أنه هجاء لا مدح، فإن ذلك الرأى بحاجة إلى المعاودة والمراجعة، ولعل القاضى الجرجانى لو أعاد النظر إلى البيت لأدرك مدى جماله وسر روعته ووثيق صلته بطموح الشاعر وشعوره بالعظمة فى نفسه.

ولا ريب أن مصادر كتاب الوساطة تعود فى مجملها وأهمها إلى كتاب "البيان والتبيين لأبى عثمان الجاحظ"، وإلى "الموازنة" التى ألفها الآمدى والتى تأثر بها القاضى الجرجانى تأثرا شديدا، وإن كان "الوساطة" تغلب عليها صبغة البيان، و"الموازنة" تغلب عليها صبغة النقد، على أن "الموازنة" تمتاز بموضوعيتها وتمام المنهج النقدى فيها. أما الوساطة فهى لم تستوف بحوث النقد التى كان يجب أن يلم بها فى معرض الحكم على المتنبى وشعره ..

على أن القاضى الجرجانى لم يغفل مصدرا من مصادر الأدب والنقد والشعر، فقد رجع إلى كل كتاب سبقه، وأفاد منه.

وبعد ، فإن القاضى الجرجانى من أعلام النقد العربى، ومن قممه السامقة. وهو حرى بأن يعرف له مكانه فى النقد، ومنزلته فى الأدب. وحسبه فخرا أن كتابه أصبح مصدرا أصيلا من مصادر الموازنة والنقد والبيان والأدب.

المراجع

١-٣: ٢٨٣ يتيمة الدهر للثعالبى - تحقيق محمد محيى الدين .

٢-١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف .

٣-٩٠ - ١٠٠ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

٤-الوساطة "طبعة صبيح" .

٥-أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب .

٦-٣٥ - ٣٨ نقد الشعر لقدامة تحقيق "منون" .

٧-٢٧٧ الوساطة .

٨-النقد المنهجى لمندور .

٩-أصول النقد للمؤلف .

١٠- حكومة القاضى الجرجانى فى النقد للمؤلف .

كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى

- ١ -

كتاب الصناعتين من أشهر مؤلفات أبى هلال، وأكثرها ذيوعا وشهرة. وهو من أهم مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة، ويجمع العلماء والنقاد على فضله، وعظيم أثره على الثقافة الأدبية، منذ ألف الكتاب حتى اليوم .

وقد طبع الكتاب عدة طبعات، فى الجوائب، وفى القاهرة، حيث نشرته مكتبة صبيح، وأخيرا مكتبة دار إحياء الكتب العربية ..

ويقول أبو هلال فى صدر الكتاب : إن أحق العلوم بالتعلم علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله.

ثم يسترسل فى بيان أهمية علم البلاغة إلى أن يقول: وقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وأشهرها "البيان والتبيين" لأبى عثمان الجاحظ، فهو كثير الفوائد لما اشتمل عليه من الفضول الشريفة، والأخبار الرائعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة، مبثوثة فى تضاعيفه، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام، نثره ونظمه، وأجعله عشرة أبواب، مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا.

فالباب الأول : فى الإبانة عن موضوع البلاغة .

والثانى : فى تمييز الكلام جيده من رديئة .

والثالث : فى معرفة صناعة الكلام .

والرابع : فى حسن السبك .

والخامس : فى الإيجاز والأطناب .

والسادس : فى جودة الأخذ ورداءته .

والسابع : فى التشبيه .

والثامن : فى السجع والازدواج .

والتاسع : فى البديع .

والعاشر : فى مقاطع الكلام ومباديه .

والبلاغة عند أبى هلال : هى كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه فى نفسه، لتمكنه فى نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن.

ويؤكد أبو هلال فى الكتاب أن مذهبه فى البلاغة والأدب مذهب الأدباء من شعراء وكتاب، لا مذهب المتكلمين - ص١١ الصناعتين - طبعة صبيح .

ومما ذكره أبو هلال يتضح لنا أن كتاب الصناعتين يبحث عن موازين النقد والبلاغة، التى يحكمها النقاد والبلاغيون فى الأسلوب. ليمكنهم الحكم على كلام البلغاء، وأساليب الأدباء، بالجودة أو الرداءة .

- ٢ -

وقد نشأ أبو هلال فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى، وهو عصر نضج الثقافة الأدبية فى الشرق الإسلامى.

وتتلمذ على كثير من رجال الفكر والأدب فى عصره، وكان أظهر أساتذته خاله أبو أحمد العسكرى (المتوفى عام ٣٨٢هـ)، وينقل عنه كثيرا من شتى الروايات فى الأدب والبيان .

واتصل أبو هلال برجال الفكر والأدب فى عصره. وفى مقدمة من اتصل بهم: الصاحب بن عباد الوزير (المتوفى عام ٣٨٥هـ) وبتأثيره ساء رأى أبى هلال فى المتنبى، حيث عاب شعره وذمه فى مواضع كثيرة من الكتاب .

وأبو هلال كثير الإشادة بالصاحب بن عباد فى كتابه، وهو يستجيد أدبه وله قصائد فى مدحه، وكان مجلس الصاحب يجمع أدباء العصر من شعراء وكتاب، ولياليه كانت ندوات أدبية رائعة ازدان بها العصر البويهى.

وكان من معاصريه القاضى الجرجانى صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبى وخصومه" .. وقد اتصل أبو هلال بالقاضى الجرجانى فى مجلس الصاحب بن عباد.. وعاشا أصدقاء، ومع ذلك اختلف موقفهما الأدبى اختلافا شديدا.

أبو هلال ساخط على المتنبى، ناقد له، مبغض لشعره .. والقاضى الجرجانى يجعل كتابه "الوساطة" حكومة أدبية حول شعر المتنبى، وروح كتابه الدفاع عن المتنبى، والانتصار له ..

كتاب الصناعتين ألف عام ٣٩٤هـ كما ذكر أبو هلال فى كتابه - ص٤٤٥ طبعة صبيح - أما "الوساطة" فأرجح أن تكون قد ألفت بعد وفاة الصاحب الوزير أى بعد عام ٣٨٥هـ، كما أرجح أن تكون وفاة القاضى الجرجانى عام ٣٩٢هـ، لا عام ٣٦٦هـ الذى يذكره كثير من المؤرخين له.

أبو هلال متأثر بقدامة وابن العميد والصاحب تأثرا شديدا، ومذهبه الأدبى هو مذهبهم، من حيث العناية بالمعنى .. والقاضى الجرجانى يرجع إلى الأسلوب العربى البليغ، ويحكم عمود الشعر، ويختار البلاغة القديمة أساسا للحكم على الشعراء ويجعلها ميزانا للكلام.

ولكن المنافسة بين الرجلين كان لها أثرها عليهما، حتى إن أبا هلال لم يشر فى كتابه "الصناعتين" أية إشارة إلى كتاب الوساطة مع أهميته فى البحث حول النقد والبلاغة اللذين هما محور كتاب "الصناعتين". بل إن أبا هلال سخر فى كتابه بالوساطة وبمؤلفها على سبيل الرمز والتلميح، لا النص والتصريح، مع أن أبا هلال استجاد كثيرا من شعر القاضى الجرجانى ونوه به فى كتابه "ديوان المعانى".

ومع ذلك فنحن نجد فى الصناعتين هذا النص الذى يجب أن نقف عنده.

يقول أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع:

هذه أنواع البديع، التى ادعى من لا رواية له، ولا دراية عنده، أن المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لا يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين.

فهذه النظرية التى يشير إليها أبو هلال هى نظرية القاضى الجرجانى فى كتابه "الوساطة بين المتنبى وخصومه".

فالجرجانى هو الذى نوه فى وساطته بالمحدثين، وأشاد بهم، وذهب إلى أن وقوعهم فى الخطأ لا يحط من منزلتهم .. وهو الذى يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع، وهم الذين مهدوا سبيلها.

ولكن أبا هلال تحامل فى كلمته هذه على القاضى الجرجانى بعد وفاته تحاملا شديدا، فأسرف فى رميه إياه بأنه لا رواية له ولا دراية عنده، وفهم من إعجاب الجرجانى بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم، كما فهم من كلام الجرجانى عن البديع وفضل المحدثين فى الفطنة إليه أنه يرى أن القدماء لم يعرفوه.

وأبو هلال إذن كان يتتبع حياة القاضى الجرجانى وإنتاجه، وينظر إليه بعين المنافسة، قد قرأ "الوساطة"، ولكنه لم يعول عليها، ولم يتخذها أحد المصادر فى كتابه "الصناعتين" ولذلك لا نجد لها ظلا ولا ذكرا فى الكتاب، حتى البحوث المشتركة فى الكتابين نجد فوارق كبيرة فى طريقة تناولها، فميزان النقد عند أبى هلال مخالف له عند الجرجانى، وآراء أبى هلال فى الاستعارة والتشبيه ليس فيها أى أثر للوساطة، وكذلك بحوثه فى السرقات الأدبية ليس فيها أثر خاص لآراء الجرجانى.

– ٣ –

إن كتاب "الصناعتين" يدل على عقلية صاحبه الأدبية الكبيرة، وعلى علمه الغزير وفقهه الواسع باللغة والأدب وهو كتاب تطبيقى على قواعد البيان، يمتاز بكثرة شواهده مع الحرص على جودة الاختيار، وسلامة الطبع، مما يرشد إلى لون من ثقافة أبى هلال، حتى لقد حار الكثير من الأدباء فى كتابه: هل هو كتاب أدب أو كتاب نقد، أو كتاب بلاغة وبيان.

إن الآراء التى جمعت فى الكتاب حول النقد هى خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع ومادة الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس للأدب والنقد والبيان.

وقد نحا فيه أبو هلال منحى جديدا، فتكلم على البلاغة، ورسم المذاهب الأدبية والبيانية فى عصره، مما تأثر فيه بالجاحظ ومذهبه الأدبى فى العناية بالأسلوب ونظمه وبلاغته عناية شديدة.

على أن علماء الأدب فى القرن الرابع كانوا يكتبون فى مطلع هذا القرن فى الأدب والنقد والبيان، كما فعل قدامة فى نقد الشعر، .. والصولى فى كتاب "أخبار أبى تمام". ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان، كما فعل الآمدى فى "الموازنة"،

والجرجانى فى كتاب "الوساطة" ثم أفادوا من ذلك كله فى بحوث البيان وأصول البلاغة، فظهر أول كتاب كامل فى موضوع البيان، ووافٍ فى بحوث البلاغة، مع الإيجاز وقرب الفكرة ووضوح الرؤية النقدية وهو كتاب "الصناعتين".

- ٤ -

ومصادر "الصناعتين" كثيرة، وفى مقدمتها كتب الجاحظ: "البيان والتبيين"، والحيوان، وكتاب "البديع" لابن المعتز، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر .. إلى كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، وكتب أخرى كثيرة.

ومن مصادر أبى هلال نعرف أن ما وصل إليه البيان حتى عصر أبى هلال هو بحوث موجزة، تتصل بمشكلات البيان اتصالا وثيقا .. وكذلك كان النقد فى هذا العصر..

والبديع عند أبى هلال ألوان طريفة مستحسنة تزيد الكلام حسنا. وقد ابتكر أبو هلال منها ثمانية عشر لونا ذكرها فى كتابه، إلى الألوان الأخرى التى ذكرها النقاد كقدامة، ومن قبله .

- ٥ -

وغلو أبى هلال فى المتنبى معروف ومما قاله فيه فى كتابه "الصناعتين":

"ولا أعرف أحدا كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث. إلا المتنبى. فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام، ما عدم شيئا منها، حتى تخطى إلى هذا النوع فقال:

ويسعدنى فى غمرة بعد غمرة   سبوح لها منها عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطاق غرابة - ص١٥٣ الصناعتين - صبيح.

وهكذا يذكر أبو هلال أبا الطيب فى كتابه. ذكر اسمه فى أربعة مواضع فقط منها هذا الموضع. وذكر شعرا للمتنبى عابه وأزرى عليه فى خمسة مواضع دون أن يصرح باسمه، وكل ذلك كان من إلهام الصاحب بن عباد. لأبى هلال. رحمهم الله.

وبعد فكتاب الصناعتين. يمثل تيارا فى الأدب فى عصر أبى هلال. ويمثل اختلاف الكتاب حول الأسلوب، وبلاغته، وهل ترجع البلاغة إلى اللفظ أم إلى

المعنى، وأيهما أولى بالعناية. ويمثل كذلك الاختلاف حول قضايا الأدب الكبرى وآراء النقاد فى تلك القضايا.. إلى غير ذلك كله من مشكلات الأدب والنقد والبيان. ومن ثم فالحرص على قراءة الكتاب، والعناية بفهمه وتدبره، ضروريان لمن يريد فقها فى النقد، وفهما لأصول الأدب، ولمن يريد أن ينمى ملكة الأدب فى نفسه، وبحسبنا أنه من أمهات كتب الأدب ومصادره، وأنه ركن ركين للثقافة الأدبية اللازمة لأجيال الشباب ومن هم وراء الشباب .

فصول من الفكر العربى
فى القديم والحديث

الجزء الثالث

تصدير

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا فصول من الفكر العربى فى القديم والحديث الذى يسجل آراء السلف فى أصول الفكر العربى، ويخلد أفكار الخلف فى دعم النهضة، وبناء المعرفة، وترسيخ الحضارة .

والله ولى التوفيق ،

أحمد شوقى

بقلم سكرتيره الخاص أحمد عبد الوهاب أبو العز، وتحقيق د. محمد مصطفى سلام والأستاذ إبراهيم الجمل .

- ١ -

كتاب قيم حقًا، يعد من روائع السيرة الذاتية. يصور فيها المؤلف الملامح الخفية من نشأة أمير الشعراء أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) وشخصيته وحياته فى جميع أطوارها المختلفة وعبقريته المبدعة، ومؤلفه وثيق الصلة بشوقى، وأكثر الناس ملازمة له ومعرفة بأخلاقه وصداقاته ومواقفه وإبداعاته وآرائه فى الناس من حوله، وقد عمل سكرتيرًا خاصًا لأمير الشعراء بعد عودته من المنفى وصار فى حاشية شوقى وفى صحبته اثنى عشر عامًا (١٩٢٠ - ١٩٣٢)، وما أصدق ما قال فى مقدمة كتابه: "أريد أن أكتب عنه كإنسان كان يضرب فى الحياة، ويسهم فيها".

وإضافات المحققيْن الفاضليْن على الكتاب أعطى له الكثير من النفاسة والقيمة الأدبية والتاريخية والعلمية .. فلقد قدما للكتاب ووضعا كلمة للأستاذ فاروق شوشة فى صدره، تحدث فيها عن أهميته وقيمته العلمية والأدبية، كما وضعا فى الصدر أيضًا الترجمة التى كتبها أمير الشعراء لنفسه حتى نهايات العقد الثالث من عمره، وقدم بها ديوانه الشوقيات فى طبعته الأولى .

ويذكر المؤلف الأستاذ أحمد عبد الوهاب - رحمه الله - الكثير من أسرار أمير الشعراء مع أسرته، ومع المجتمع من حوله، داخل البيت وخارجه، وآراءه الشخصية فى العديد من الشخصيات، ويتحدث عن رحلاته وإبداعاته ومؤلفاته، وعن مبايعة الشعراء له بإمارة الشعر، وعن اللحظات الأخيرة من عمره، ومراثى المفكرين والأدباء والشعراء والصحافة فيه فى كل مكان.

- ٢ -

الكتاب حقًا وثيقة من وثائق التاريخ لأمير الشعراء قدمها المحققان للأدب وللشعر والشعراء فى أروع صورة وأجمل تنسيق.

والشكر لا يفى بحق الأستاذين الكبيرين، ولا يؤدى واجب التقدير والثناء والحمد لهما، على عملهما الجاد الهادف، ليكون الكتاب بين أيدى القراء، وحسنًا فعلاً، فأسديا لأدبنا الحديث صفحات بيضاء، تذكر فتشكر، وتظل باقية خالدة على مدى الأيام.

وأعتقد أنه لا غنى لأى باحث ودارس للأدب الحديث، ولحياة أمير الشعراء أحمد شوقى، من الرجوع إليه، والوقوف عليه، والإفادة منه.

- ٣ -

ولقد جمع شوقى الشعراء فى ظلال العمودية والكلاسيكية على تقديره والاعتزاز بإبداعاته وبعبقريته، فبايعوه جميعًا عام ١٩٢٧ بإمارة الشعر فى حفل عام أقيم بدار الأوبرا الملكية المصرية. وفى مقدمتهم شاعر النيل حافظ إبراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢) حيث أنشد قصيدته المشهورة:

أمير القوافى قد أتيت مبايعًا

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وعندما قال شوقى بيته المشهور:

جاذبتنى الثوب العصى وقالت

أنتم الناس أيها الشعراء

كان يعنى ذلك حقًا، ويرى الإنسان لا يتمثل إلا فى الشاعر وحده، وكان شوقى شاعر العبقرية كما يقول الزيات، وشاعر الإلهام كما رآه الرافعى، وكان منحة أجيال كما يقول د. على العنانى.

لقد حمل لواء الشعر أربعين عامًا والشعراء يسيرون وراءه فى جميع الأقطار العربية كما يقول د. أحمد ضيف، وفاخر به جيله الأجيال كلها كما يقول شيخ العروبة أحمد زكى باشا.

ونبه الجيل كله بشوقى كما يقول الشاعر على محمود طه، وكانت طاقة شوقى الفنية ضخمة، وموسيقاه فى جملتها أعذب من موسيقى أكبر شعراء العربية كالمتنبى. كما يقول رائد أبوللو د. أحمد زكى أبو شادى. ولقد فاق شوقى شعراء

عصره بمعانيه المبتكرة كما يقول أحمد الإسكندرى، وناهيك بعبقرية شوقى التى كانت كمنجم الماس يمتلئ بالثراء والعطاء بلا حدود.

وشوقى جمع بين أغراض القدماء وتجديد المحدثين، فكتب فى أغراض جديدة من الاجتماع والسياسة والوطنية والقومية، وعبر عن شتى النزعات الإسلامية والإنسانية، وأجاد فى وصف الطبيعة وفى شعر الحكمة والفخر والحب وفى شعر الوصف عامة، ونظم الشعر التاريخى والملحمى ونظم المسرحية والقصة الشعرية، وجدد فى بناء الشعر تجديدا كثيرا، وشعره فى وصف الآثار الفرعونية والإسلامية، بل شعره الإسلامى كله، مرحلة متقدمة فى الشعر العربى الحديث، وفاق فى موسيقاه البحترى والمتنبى وابن زيدون والشريف الرضى، وقد تابعه فى هذه الموسيقى المبدعون فى عصره كناجى وعلى محمود طه وصالح جودت (الأهرام ١٩٣٢/١٢/٥).

– ٤ –

ولما ظهرت مدرسة الديوان هاجمت بلا هوادة مدرسة شوقى هدما للكلاسيكية، وانتصارا للرومانسية، وصار شعر الحلم والرؤيا وشعر العاطفة والذكرى والوجدان على كل لسان.

أما مدرسة أبوللو فقد دعت جميع الشعراء إلى الإخاء والحب والتعاون ورأت أن الشعر يتسع لمذاهب فنية عديدة، ولا يقتصر على مذهب واحد.

– ٥ –

وبعد فإن صدور هذا الكتاب النفيس بفضل الله وفضل المحققين الجليلين الأستاذين الدكتور محمد مصطفى سلام وإبراهيم الجمل، قد أتاح لنا الوقوف على أسرار شخصية أمير الشعراء أحمد شوقى وحياته الخاصة والعامة، وعبقريته الشعرية الخلاقة، مما سيكون له أثره الكبير، فى ثراء الدراسات النقدية والأدبية حوله، وفى تصحيح الكثير من المفاهيم حول الشاعر الخالد ومنزلته فى الشعر الحديث.

شاعر الإسلام فى العصر الحديث
محمد إقبال (١٨٧٧ - ١٩٣٨)

أكتب عن إقبال لأنه أكبر شاعر إسلامى فى العصر الحديث، ولأنه صاحب فكر إسلامى رفيع متميز، ولأنه كان يتطلع بوجهه دائما شطر البلد الحرام مكة. وشطر البلد الأمين، المدينة، وشطر مصر الأزهر، ثم كانت المناسبة للكتابة عن إقبال، وهى ظهور كتاب إقبال للدكتور حازم محفوظ فى نحو ٢٧٥ صفحة، محتويات على ثلاثة فصول :

الأول : عن حياة إقبال وفكره .

والثانى : عن رحلة إقبال إلى مصر .

والثالث : عن الدراسات الإقبالية فى مصر .

وقد كان من الفال الطيب أن كتبت مقدمة الكتاب وقد جاء فى هذه المقدمة : إقبال فى مصر، حدث أدبى كبير. إقبال، هذا الشاعر العظيم، والمفكر الإسلامى الكبير، والذى رفع رأس كل مسلم عاليا إلى السماء يزور قاهرة المعز. ويحاضر فى جمعية الشبان المسلمين فى القاهرة، ويزور الأزهر، وكلياته ومعاهده فى القاهرة، فى أيام خالدات مباركات .

درس إقبال فى جامعة كمبردج الفلسفة والقانون ونال الدكتوراه من جامعة ميونخ برسالة كتبها بالإنجليزية عن "تطور الغيبيات فى فارس" وذلك عام ١٩٠٨ .

ونظم إقبال بالفارسية دواوين عديدة، منها رسالة الشرق - هدية الحجاز - رسالة الخلود .

وباللغة الأوردية نظم عدة دواوين منها جناح جبريل - ضرب الكليم - رنين الجرس.

وفى رحلة إقبال إلى مصر (الأول من ديسمبر ١٩٣١ ٠ الخامس من الشهر نفسه) ألقى محاضرة بالإنجليزية عن الفكر الإسلامى والزمان والمكان فى صميم هذا الفكر.

وسافر إقبال إلى القدس الشريف لحضور المؤتمر الإسلامى فى بيت المقدس الذى بدأت جلساته فى ليلة الإسراء والمعراج من عام ١٣٥٠هـ.

هذا وكتاب إقبال ومصر يعد موسوعة كبيرة فى دراسات إقبال الإسلامية، وهو كتاب أكاديمى يستحق الدكتور المؤلف حازم محفوظ عليه كل تقدير .

أبو العلاء المعرى
والجديد من تراثه

- ١ -

أبو العلاء (٣٦٣هـ - ٩٧٢م، ٤٤٩هـ - ١٠٥٧م) شيخ معرة النعمان، وأشهر شعراء العربية وشاعر الحكمة والفكر المتوهج، لا ينتهى حديثه، ولا الحديث عنه على مرور الأيام والأجيال.

بالأمس فتن به وبعبقريته المبدعة كامل كيلانى وطه حسين وبنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، ومن بعدهم اليوم فتن به العلامة الناقد الدكتور السعيد السيد عبادة افتتانا جاوز المدى.

فرسالته للدكتوراه التى نالها بجدارة عام ١٩٧٣ كانت عن (أبى العلاء الناقد الأدبى)، وتحقيقه لكتابى المعرى: (رسالة الإغريض، وتفسيرها) نشر عام ١٩٧٨، وصنعته لـ (فهارس الفصول والغايات) نشرت عام ١٩٩٩.

واليوم يفاجئنا العلامة الكبير د/ السعيد عبادة بكتاب جديد من تراث أبى العلاء، وهو (ضوء السقط)، الذى كان فى عداد المفقود من التراث العلائى الثمين.

إن أبا العلاء لم تنقص الأيام شيئا من وهجه الشعرى، ولا من منزلته فى الفكر العربى، ولا من كيانه الاجتماعى، وشخصيته المجددة الحرة.

وضع علامتنا الكبير فى أيدينا اليوم من تحقيقه وتقديمه كتابى أبى العلاء القيمين (سقط الزند) و(ضوء السقط) بعنوان: (سقط الزند وضوءه). ونشر: معهد المخطوطات العربية فى أكثر من ألف ومائة صفحة إصدار عام ٢٠٠٣م.

- ٢ -

"وضوء السقط" تفسير لما غمض من شعر أبى العلاء فى ديوانه "سقط الزند"[1]، وشرح للغريب منه: ألفه المعرى إجابة لطلب تلميذه أبى عبد الله

[1] السقط: أول ما يخرج من النار من الزند، فهو أول شعره وما سمح به خاطره، شبهه بذلك. وما أملاه فى شرحه سماه "ضوء السقط".

الأصفهانى - المتوفى عام ٤٩٦هـ - يقول أبو العلاء فى مقدمة كتابه (ضوء السقط)":
وسألنى (الأصفهانى) أن أشرح له ما يستعجم عليه من الكتاب المعروف بسقط الزند، فأجبته إلى ما سأل " ومن الغريب أن يكون "سقط الزند" أول إبداع المعرى الشعرى فى الشطر الأول من عمره، إذ صدر نحو عام ٤٠٣هـ، وأن يكون "ضوء السقط" هو آخر التراث العلائى الذى أملاه المعرى على تلميذه الأصفهانى عام ٤٤٨هـ قبل وفاة الشاعر العظيم بقليل على ما حققه علامتنا الجليل د/ السعيد عبادة.

وكان الضوء فى عداد المفقود من تراث شيخ المعرة، معرة النعمان، إلى أن دل المحقق عبد العزيز الميمنى على نسخة الضوء فى المكتبة الأهلية بباريس، وزاد فى التعريف بالضوء المستشرق الألمانى بروكلمان فى كتابه (تاريخ الأدب العربى) الذى ظهرت ترجمته العربية بعد ذلك، والذى ذكر مع نسخة باريس من الضوء ثلاث نسخ أخرى هى: نسخ ليدن والقاهرة واستامبول[1].

يقول المحقق د/ السعيد عبادة : "إنى أقدم الكتاب - (ضوء السقط) - لأول مرة معتمدا على ما صح من نسخه التى ذكرها بروكلمان"، وعلى ما ورد من نصوصه عند شراح (سقط الزند)، لاسيما التبريزى (٤٢١ - ٥٠٢) الذى كان أكثر نقلا عنه، حيث ذكره فى شرحه ويقول فى مقدمته: "أوردت ما ذكر شيخنا أبو العلاء من (ضوء السقط) فى مواضعه"[2].

- ٣ -

وكتاب "ضوء السقط" الذى ينشر لأول مرة، من أجل مؤلفات المعرى قدرا، ومن أعظمها أثرا، كما يقول محققنا العلامة السعيد عبادة، ويوضح ذلك فيقول: "الضوء شرح أبى العلاء نفسه لشعره، فى السقط، الذى شرحه وتأثر بصاحبه كثرة من العلماء والنقاد، من مثل: التبريزى والقزوينى والخويى والخوارزمى والبطليوسى. وغيرهم، وهو صورة لوجه المعرى الأدبى والنقدى بنقده لشعره. وهو مصدر بمقدمة لا نظير لها فى مقدمات أبى العلاء. لما تضمنته من حديث عن نفسه وعن موقف الناس منه.

---

(1) ٥/ ٤٠ تاريخ الأدب العربى - ط دار المعارف بمصر.
(2) ٤/١ شروح السقط.

ولم يشرح أبو العلاء فى ضوئه من السقط إلا المشكل أو ما سئل عنه.

ولم يشرح اللغة فحسب بل شرح اللغة والمعنى.

وبين جوانب الصنعة فى كثير من الأبيات التى عرضها عليه الأصفهانى.

وهو فى شرحه للسقط لم يكتف ببيان المعنى المراد، بل بين جوانب أخرى كثيرة، كالاشتقاق، والتصريف والاستعمال العام، وسر التعبير باللفظ، وما يحتمله من الصيغ، وما يحتمله من المعانى، وسبب التسمية به إن كان اسما.

وفى شرحه المعنى لم يكتف ببيانه مرة واحدة بل كثيرا ما عاد إلى بيانه بعبارة أخرى زيادة فى الإيضاح، وكثيرا ما دل على احتمالاته إن كانت وعلى صلته بما قبله وما بعده.

وهو فى الضوء كذلك قد اهتم بمسائل النحو والعروض والبلاغة.

وهو لم يغفل الأعلام بل عرف بأكثرها وساق المهم من أخبارها.

وقد اعتمد المحقق مخطوطة باريس[1] أصلا للضوء، وأضاف إليها الكثير مما وجده فى المخطوطات الأخرى وعند شراح السقط، وشرح التبريزى للسقط فيه من الضوء الكثير.

ويرجح المحقق أن مخطوطة باريس ترجع إلى آخر القرن السادس أو أول القرن السابع الهجرى.

ونسخة مكتبة ليدن (برقم ٦٩٣) وهى تشتمل على "سقط الزند" كله، وعلى شرح التبريزى لقصائد المعرى: "الدرعيات" التى ضمنها ديوانه "سقط الزند"، وهى لم تخلص للضوء، وإنما اشتملت على أكثره.

ونسخة القاهرة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٥٣٨ أدب فيها أجزاء من السقط وفيها من الضوء مقدمته .

— ٥ —

وعمل المحقق فى الضوء كبير: ففضلا عن التوثيق الدقيق للسقط وللضوء برواية الأصفهانى، نجد بجانب ذلك تخريجا للشواهد، وجمعا بين السقط وضوئه.

---

(١) المكتبة الأهلية فى باريس – تحت رقم ٣١١.

إذ لم يكن من المستطاع نشر الضوء بعيدا عن أصله (السقط)، ولذلك جمع المحقق بينهما - السقط والضوء - في مجموعة واحدة في آخرها فهارس عديدة منظمة.

وقد كان نشر السقط في هذه المجموعة الضخمة عملا علميا جليلا مزودا بالفهارس العلمية الثمينة، والسقط هو ديوان أبي العلاء الأول، ويمثل شاعرية أبي العلاء في طورها الأول، قبل اعتزاله وزهده، وقبل أن يكتب ديوانه الثاني: "لزوم ما لا يلزم".

- ٦ -

إن ظهور كتاب "ضوء السقط" لأول مرة على يدى العلامة المحقق السعيد عبادة عمل كبير، وكشف خطير، وإيضاح واسع لشخصية أبي العلاء الأدبية والنقدية، وزيادة في التعرف على التراث العلائي الخالد، الذى يمثل شخصية أبي العلاء الأدبية تمثيلا كبيرا.

ولا نجد ما نقوله في ختام هذه الكلمة للعلامة السعيد عبادة إلا أن نعرب له عن كل التقدير والدعاء له بالتوفيق.

قراءة فى فكر أبى العلاء النقدى

نحن مع كتاب "أبو العلاء الناقد الأدبى" الذى صدر منذ أسابيع للدكتور السعيد عبادة فى نحو ستمائة صفحة متضمنا دراسة جادة وعميقة للنقد العلائى موفقا فى عنايته الكبيرة بتوثيق الكتب المنسوبة للشاعر العربى الخالد توثيقا علميا دقيقا، حتى أنه ليفيض فى الحديث عن الكتابين "اللامع العزيزى" و"معجز أحمد" وهما شرح واختصار لديوان المتنبى مثبتا الزيف فى نسبتهما إلى المعرى، ومرجحا أنهما ليسا بالتحقيق من مصنفاته "وأن معجز أحمد" هو كتاب "معانى شعر المتنبى" نفسه، وذلك فى أكثر من خمس عشرة صفحة.

يتحدث الدكتور عن منهج أبى العلاء النقدى حديثا طويلا، سواء فى موقفه من توثيق النصوص وتحقيقها وتحليلها، أم من آرائه فى الموازنات الأدبية مستقصيا مصادر النقد العلائى: من روايات مأثورة عنه، ومن شعره، ووسائله، وكتبه، ويوضح آراء الشاعر الناقد الفيلسوف فى الصفة الفنية، والإبداع الشعرى، وموسيقى الشعر، وفى البناء الفنى، واللغة والمعانى والصور عند الشعراء، وفى القيم الجمالية والمقاييس العامة والمذاهب العامة والخاصة عند أبى العلاء.

إن اختيار المؤلف للجانب النقدى عند أبى العلاء ليكون موضوعا للبحث اختيار جديد مع أن الكتابة حول هذا الجانب لم تكن بالأمر السهل بل كانت معاناة متصلة .. قسم المؤلف الكتاب خمسة فصول :

الأول : فى المؤثرات العديدة فى الفكر النقدى عند أبى العلاء .

والثانى : فى حصاد النقد العلائى .

والثالث : فى الاتجاهات النقدية لأبى العلاء، وفى خصائص مذهبه النقدى.

والرابع : حول تأثير النقد العلائى فى أدبه.

والخامس : فى أثر الناقد أبى العلاء فى الدارسين قدماء ومعاصرين .

الكتاب على الجملة ثمرة اطلاع واسع على المكتبة العلائية، وعلى كل ما كتب عن شاعرنا الخالد وعلى اتجاهات النقد ومذاهبه وبلا ريب فهو ثمرة جهد علمى كبير.

نجيب محفوظ وأحدث دراسة عن فنه القصصى

"البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ: دراسات فى النص القصصى من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦" هو أحدث كتاب صدر للدكتور حسن البندارى عن مكتبة الأنجلو المصرية - تناول فيه بالدرس والتحليل قصص نجيب محفوظ القصيرة والقصص المطولة.

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه دراسة "متعمقة" للنص القصصى عند نجيب محفوظ تهدف إلى الكشف عن "الجوانب الجمالية" فى قصص اختارها المؤلف بدقة وبيان ما تنطوى عليه هذه الجوانب من فكر يتصل بهموم التحول الاجتماعى المصرى والمصير الإنسانى بوجه عام ورصد مقاومة الشخصيات الفنية فى تلك القصص لوقع الأخطار وإزاحتها حماية للبناء الاجتماعى وتحقيقا للاطمئنان الروحى والتوازن النفسى.

وإذا كان نجيب محفوظ قد أبدع رواياته الخالدة التى أمتعت القراء واهتم بها النقاد فى مصر وخارج مصر مثل سوميخ وأساتذة جامعة كمبردج فى دراساتهم لها - فإنه قد أبدع فى مجال القصة القصيرة والقصة المطولة وقصة الومضة عدة مجموعات جاوزن العشرين مجموعة.

درس الدكتور البندارى منها المجموعات الصادرة حتى نهاية ١٩٧٢ فى كتابه الرائد (فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ : من عام ١٩٣٤ إلى نهاية عام ١٩٧٢ وصدر عام ١٩٨٤ ثم درس فى كتابه "البنيات الكاشفة" المجموعات الصادرة من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦.

ويعمد المؤلف فى فصول كتابه الثلاثة إلى الكشف عن طبيعة الشخصية الفنية عند نجيب محفوظ فى هذه القصص بزوايا تختص بالبنية الزمنية وبنية الحلم وبنية الانعطاف إلى داخل الشخصية.

ففى الفصل الأول وهو الكشف بالبنية الزمنية: درس المؤلف طبيعة الزمن الذى تتحرك فى إطاره الشخصية الفنية من حيث "ارتدادها" إلى الزمن الماضى فى مواضع معينة من الحدث لإضاءته وتفسيره ومن حيث مستقبل الحدث لتوضيح

الحركة المرتبطة بالشخصية التى تنهض به، وفى الفصل الثانى وهـو الكشـف ببنيـة الحلم يركز المؤلف على الشخصية الحالمة الراغبة فى إزاحة الواقع الردئ الذى يشوه السيرة الحضارية للمجتمع ويطمس معالمها.

وفى الفصل الثالث وهو الكشف ببنية الانعطاف يرصد المؤلف قيمة انعطاف نجيب محفوظ إلى العالم الداخلى للشخصية الفنية لرصد أثر الواقع الخارجى عليها.

والحق أن هذا الكتاب يعد إضافـة بالغـة الأهميـة إلى "المكتبـة المحفوظيـة" بخاصة والمكتبة العربية بعامة لاسيما أنه الكتاب الثانى للمؤلف عـن قصـص نجيـب محفوظ فقد صدر الكتاب الأول عام ١٩٨٤.

فالكتابان يكشفان عن أدوات نجيب محفوظ الفنيـة ورؤاه الفكريـة وقضايـاه الاجتماعية التى تؤكد خلود فنه القصصى القصير والمطول مثلما أكـد النقـاد المصريـون العرب والأوربيون على خلود فنه الروائى .

فى الأدب والأدباء .. سوانح وآراء

الدكتور بدوى طبانة الحائز على جائزة الدولة التقديرية هذا العام - عالم كبير، وأستاذ جامعى ثرى العطاء والذى قدم للمكتبة العربية زادا كبيرا من الفكر والدراسات والبحوث والتحقيقات .. ها هو ذا اليوم فى كتاب جديد حافل بالعطاء، زاخر بالدراسات النقدية والأدبية والبلاغية وغيرها، وعنوان الكتاب "سوانح وآراء فى الأدب والأدباء"، ويقع فى ثلاثمائة صفحة، وقد صدر فى جده، والناشر له أديب كبير معروف هو "عبد المقصود محمد سعيد خوجة" وهو الكتاب الخامس من سلسلة "كتاب الأثنينية".

والدكتور بدوى طبانة عندما تقرأ له تجد الجديد دائما، وتجد الفكر العميق والباحث الدقيق، والرأى الناضج، والإلمام الواسع بكنوز الثقافة العربية، وبخاصة الثقافة الأدبية والنقدية.

والدكتور طبانة بحق أحد الرواد من أساتذة الجيل، وشهرته العلمية والأدبية فوق كل تعريف.

كتاب "سوانح وآراء" يضم خمسة أبواب رئيسية :

الأول بعنوان : رموز باقية فى عالم الأدب والفكر : طه حسين، العقاد، وأحمد تيمور، وأمين الخولى.

والثانى : بعنوان قمم عالية فى تاريخ الأدب العربى: الإمام على بن أبى طالب، بديع الزمان الهمذانى، أبو الوليد بن زيدون.

والثالث : بعنوان : "ثورة الشعر المعاصر: نظرية الشعر عند العقاد. بواكير حركة التجديد فى الشعر العربى، السياب والتجديد العروضى. مستقبل الشعر العربى، فى قضية الشعر الشعبى.

والرابع: بعنوان "سوانح وتداعيات" فى قضية المرأة، أدب الرجل وأدب المرأة، شعر الإعراب المحاكاة الجديدة بين القبح والجمال، بلاغة الجواب، البحر فى لغة العرب وأدبها.

والخامس : بعنوان "قراءات وتأملات: الفارس يرثى يمينه، شعر المهجر، الطوفان فى شعر على هاشم رشيد، مى أديبة الشرق والعروبة، نظرات فى القصة السعودية.

الكتاب يضم كنوزا ثمينة من الفكر والأدب والنقد ودراسات عميقة عن بعض الأعلام الخالدة فى تاريخنا الإسلامى والأدبى والفكرى. أو قل إنه مجموعة كتب فى كتاب مما يجعل الدراسة له صعبة للغاية، لأن الدارس لهذا الكتاب، سيطوف ولا شك بأهم القضايا فى الفكر والأدب والشعر العربى فى مختلف العصور.

يقول المؤلف د. بدوى فى تصويره لكتابه : هذه فصول عالجت فيها جوانب من الحياة الأدبية فى العصر الذى عشت فيه، وتناولت فيها كثيرا من قضايا الأدب التى شغل بها صناع الأدب ونقاده، باحثا عن أصول كل قضية وأبعادها، وما وقفت عليه من الآراء فيها، وباسطا وجهة نظرى فى كل قضية منها. وقد كان فن الشعر أكثر الفنون الأدبية التى دار حولها نقاش طويل. ولذلك حظى فن الشعر بالحظ الأوفر من التأمل والدراسة فى هذه الفصول. ولم يعدم فن القصة حظه فيها، وكان حظ النثر ضئيلا فى هذه الفصول. لأننى اكتفيت بالدراسة المفصلة التى كتبتها فى هذا الموضوع، وضمنتها فصلا كاملا فى كتابى "التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى" بعنوان "لغة الأدب" وقد عنيت فى هذه الفصول بالأدب الحديث وبخاصة فن الشعر وقضاياه. كما عرضت لبعض الاتجاهات الفكرية والأدبية التى تبناها جماعة من دعاة التجديد. كما عرضت فى هذه الفصول للتنويه ببعض الشعراء والمفكرين فى هذا العصر، وقد اجتذبتنى شخصيات من أعلام الأدب القديم فخصصت بعنايتى ثلاثة من أولئك الأعلام هم: الإمام على، وبديع الزمان الهمذانى، وابن زيدون".

وبإلمام واسع، وعمق كبير، تحدث لنا المؤلف عن الكتاب وما تضمنه من دراسات قيمة خصبة، أدلى فيها عالمنا الجليل برأيه بصدق وقوة واستقلال ووضوح شخصية الأستاذ الجامعى الأصيل.

إن كتاب الدكتور بدوى طبانة الذى نقدمه اليوم يعد من أوفر الكتب عطاء ودراسة وبحثا، ومن أشملها رأيا وحوارا ونقاشا علميا جادا هادفا.

ولا أملك إلا أن أقول لمؤلفنا الجليل: مرحبا بهذا السفر النفيس فى عالم الكتاب .

مواقف فى حياتى[1]

ما صورة مصر منذ أوائل القرن العشرين حتى اليوم؟

وما مدى النشاط الثقافى والأدبى والتأليفى والنشر فى هذه الفترة ؟

ومن أشهر أدباء القرن وكتابه ؟ كل ذلك يجيب عنه الأستاذ سعيد جودة السحار فى كتابه (مواقف فى حياتى) بأسلوبه السهل اللطيف الممتع، وصياغته الفنية الممتعة، وصياغته الفنية التى تقترب فيها الفصحى من اللغة الشعبية الذائعة ويقص علينا المؤلف فى كتابه قصة الحياة المصرية وقصة حياته هو فى هذه السنوات الطوال من القرن العشرين.

وسعيد جودة السحار لا ينسى الدقائق واللفتات الذكية، والمواقف العجيبة فى حياته منذ طفولته حتى اليوم ..

والمؤلف أديب وكاتب ومؤلف، وهو كذلك من رواد النشر فى العالم العربى اليوم وهو قد اتخذ النشر وصنعة الكتاب هواية له منذ تخرج من الجامعة حتى اليوم، حيث يعمل منذ ستين عاما بجد وعزيمة قوية فى هذا المجال، معتقدا أن للناشر العربى رسالة يجب أن يؤديها لبلاده ولأبناء أمته.

والمؤلف بعبقريته وحبه للعمل والإنتاج أثرى الثقافة العربية إثراء حقيقيا قلما كان له نظير فى ذلك.

أنشأ عام ١٩٣١ أثر تخرجه مباشرة مكتبة مصر وفى عام ١٩٤٠ أنشأ دار مصر للطباعة. واشترك عام ١٩٤٣ مع شقيقة عبد الحميد جودة السحار فى إنشاء لجنة النشر للجامعيين التى مهدت لظهور جيل جديد من الأدباء الكبار أمثال نجيب محفوظ وباكثير، وعبد الحليم عبد الله، ويوسف السباعى، وإحسان عبد القدوس. وعبد الحميد جودة السحار وغيرهم.

---

[1] جريدة الرأى العام ١٩٩٣ م.

ولقد مرت الأيام على المؤلف بحلوها ومرها، وبخيرها وشرها، ومع اختلاف الشخصيات والمستويات الخلقية والفكرية، وهو بابتسامته الرقيقة. وبعوده الصلب، وبحبه للعمل ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وقد نشأ المؤلف محبا للكتاب وللثقافة وللأدب، ينظم الشعر والزجل، ويقرأ ويكتب القصص والروايات .. ترجم بعد تخرجه من كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣١ خرافات أيسوب، وإبراهيم لنكولن. وغيرهما.

الكتاب سيرة ذاتية صادقة، ويتميز بأسلوبه القصصى. وبعمق تجاربه التى صورها، وبكثرة الحركة والمفاجآت والصراع فى شتى مواقفه .

وإنى لأحمد الله أن سجل سعيد السحار ذكرياته ومواقفه فى كتاب كهذا الكتاب. فهى صورة أمينة وصادقة لحياتنا الفكرية والثقافية والأدبية فى بلادنا طيلة ثلاث أرباع القرن الحالى.

وأعود فأهنئ المؤلف والقراء بصدور (مواقف فى حياتى) الذى منحنا السعادة والنشوة ونحن نقرأ فصوله وصفحاته.

وتحية لسعيد جودة السحار، وتحية لأدبه ولكتابه .

"مقاهى الأدباء فى الوطن العربى" وإحياء الماضى فى الذاكرة"[1]

(١)

يقودنى الحديث حينما أتحدث عن كتاب (مقاهى الأدباء فى الوطن العربى) للأديب العربى رشيد الذوادى إلى الأسس التى تقوم عليها نظرتى النقدية من خلال ما كتبته من بحوث ودراسات فى النقد ..

ومن رأيى أن الناقد المنصف عليه أن يتعامل مع التراث النقدى العربى تعاملا عميقا، والنقد لابد أن يتجه إلى (النص) وإلى الصورة والمحتوى .. وأنا مع الواقعيين فى اهتماماتهم بالمضمون ومحتواه الاجتماعى .. وأوردت هذه الآراء أكثر من مرة فى كتابى : (مدارس النقد الأدبى الحديث).

وبما أن الناقد هو الآخر (مبدعا) وبأشكال مختلفة، فعليه أن يحدد استعمالات الكلمات ويوضح مقاصد الألفاظ حينما تكون رموزا .. ومخائيل نعيمة نفسه يؤكد فى (الغربال) على هذه المعانى، حيث يقول: (لا قيمة للغة فى ذاتها ونفسها، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر وعاطفة).

والناقد فى تقييمه لأى (نص) عليه أن ينفذ بروحه الشفافة إلى (جوهر النص ومضمونه)، والصورة والمضمون عند بعض كبار النقاد العرب وجها النموذج الأدبى، والفصل بينهما غير ممكن بالمرة .. وهذه هى فلسفة الجماليين.

(٢)

وبناء على هذه المفاهيم ووسط هذا الإحساس بتقديم كتاب هام صدر أخيرا أقول:

ظلت علاقة الأديب رشيد الذوادى بالتاريخ حية دائما .. وهى علاقة تلق، وبحث، وإنتاج موصول. وشغف الذوادى بالحقائق وبما ينير الحاضر .. ومن هذا المسعى تفاعل مع أصناف عديدة من التفكير والإبداع. وانعكس كل هذا فى هذا

---

[1] الصباح التونسية ٦/ ٥/ ٢٠٠١.

الترصد للأسبقيات، وفى كل ما هو يفيد فى التلاحم والتواصل والاقتراب بين العرب وأقول عن كتابه الجديد: (مقاهى الأدباء):

لم يلق كتاب جديد صدر فى خلال الفترة القريبة رواجا وذيوعا فى العالم العربى مثل كتاب (مقاهى الأدباء)، حتى لقد أصبح العثور على نسخة منه أمرا صعبا.

والأستاذ رشيد أديب معروف فى العالم العربى ومكانته الأدبية تزداد رسوخا بفضل وفرة علاقاته الأدبية هنا وهناك، وقد حقق بفضل هذه العلاقات امتزاجا بين ذاتية المبدع الفنان وذاتية المكان.

وأشهد أنه منذ أكثر من شهرين كلفت أحد أدباء مصر وهو الدكتور محمد أبو النصر ليتولى إلقاء بحث فى ندوة عامة برابطة الأدب الحديث بالقاهرة عن هذا الكتاب، وحاول الحصول على نسخة منه لكن دون جدوى، فأعرته نسختى بصفة خاصة، وتمكن عندئذ من مطالعة الكتاب ومن إلقاء بحث ضاف عنه فى إحدى الأمسيات الأدبية.

وكما هو متعارف فللأديب رشيد الذوادى كتب عديدة وصدر بعضها فى مصر، وهى مشهورة ومتداولة، ومعظمها فى الدراسات الأدبية وفى التعريف ببعض (الأعلام التونسيين).

(٣)

و(أندية الأدب) و(مقاهى الأدباء) لم تكن بالمرة أطلالا أو صخورا، إنما هى منابع للتأمل. وتهدف فيما تهدف إليه: تعرية المتناقضات، وإذكاء روح المثابرة، والإسهام فى تعلم أبجديات التشكيل، والارتقاء بكيانات التفاعل عن طريق النقاش والحوار والتواصل.

لهذا كله كان لمقاهى الأدباء دور وريادة وإضافة وقدرة فائقة على تشكيل الأحداث ورسم معالم الطريق : طريق الأحرار والثوار .. والإمام محمد عبده نفسه كان أحد رواد هذه المقاهى وقد واظب على الحضور فى (مقهى متاتيا) الكائنة بالقرب من (حى الأزبكية) بالقاهرة.

والمقهى الأدبى، مثل جزءا من تاريخ الأمة العربية، وشكل حيزا هاما فى إثراء الأدب العربى الحديث وكل هذا لا يخفى على الخبير المجد والباحث الأصيل الأستاذ رشيد الذوادى الذى حدثنا فى كتابه هذا عن كل طريف فى هذه المقاهى .. وحدثنا عن الندوات والروابط والجماعات والجمعيات الأدبية، التى تعمل فى حقل الأدب لخير الأدب والأدباء ..

وما أكثر ندوات الأدب فى أنحاء العالم العربى! .. ومناولات رشيد الذوادى فى هذا الكتاب لها كانت وليدة سنوات من البحث والمثابرة، وأمكنه من خلال مطارحاته العديدة أن يطلعنا عن الجديد والمفيد، الذى يحيلنا إلى كينونات أخرى وقد تحتاج هى نفسها أيضا إلى إضاءات وإلى تنوع فى الأسئلة والإجابات وقد نرى فى بعضها تحليلات متعاطفة مع القضايا العادلة أو ما ينتهى بسؤال كأين يوجد الخلل فى الحياة؟..

والمهم هو أن الأديب رشيد الذوادى كان فى كل ذلك متحدثا بارعا وبدقة وتفصيل واهتمام، فعرف الناس والأدباء بماض مجهول، وبحاضر موصول، وبجهود كبيرة بذلت فى أكثر من قرن فى خدمة أدبنا العربى، وأدباء النهضة الأدبية المعاصرة.

ولسنا ننسى (مقهى الفيشاوى) فى القاهرة، ولا (مقهى ريش)، ولا (مقهى باب اللواء)، و(لا مقهى الحلمية)، ولا (مقهى عبد الله) فى الجيزة .. وأقصد الأدباء من أمثالنا.

أما أدباء الشباب اليوم فلا يعرفون شيئا من ذلك كله كـ (مقهى المسيرى) فى "دمنهور" مثلا والذى لا يعرفه إلا الكبار فى السن من أمثالنا.

وكان نجيب محفوظ يعقد ندوته الأولى فى القاهرة فى (مقهى الأوبرا) صباح كل يوم جمعة وكنا نواظب على حضورها ولـ (مقهى متاتيا) القديم فى القاهرة أثر كبير فى النهضة المصرية الحديثة، وكان فيها يلتقى رواد التنوير الأول كعبده والأفغانى.

ونحن فى القاهرة لا نعرف عن جماعة "تحت السور فى تونس" إلا من كتاب الأديب رشيد الذوادى الذى صدر منذ زمن طويل بهذا العنوان. ويحكى عن

قصة نشأة جماعة أدبية تونسية كبيرة عاشت فى الثلاثينات والأربعينات. وكان مقهى (جماعة تحت السور) حافلا أو يحفل بصفوة من الأدباء والفنانين والصحفيين فى عاصمة تونس ممن كانوا يواجهون الاستعمار فى بلادهم مواجهة فكرية مباشرة ومؤثرة.

(٤)

و(مقهى الأدباء فى الوطن العربى) ذو الصفحات ٢٣٦ الصادرة بالقاهرة عن الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٩ بمقدمة للأديب العربى العالمى نجيب محفوظ كتاب ذو شهرة فاقت كل الحدود .. ويحتوى على تعريف من المؤلف بكتابه، ثم بفصل ثان عن (العرب والصورة الخالدة) لإسهامات أدباء العربية فى إذكاء مرجعية الحضارة الإنسانية، حيث تحدث المؤلف عن الكتب والمكتبات والمخطوطات، ومنزلة العلماء والأدباء فى الفكر العربى والعالمى. ثم يردف المؤلف بعد ذلك بدراسة عن المنتدبات الأدبية والفكرية القديمة كأسواق العرب، و(سوق عكاظ) من بينها خاصة، وهو الذى تحاول (الجنادرية المعاصرة) اللحاق به.

ولا ينسى الذوادى الحلقات الدينية والمجالس الأدبية والفكرية القديمة، ولا (منتديات النساء الأدبية) على وجه الخصوص كـ (منتدى سكينة بنت الحسين) و(مجلس عائشة بنت طلحة) .. وفى الأندلس كان منتدى (حفصة الركونية) فى غرناطة، و(منتدى ولادة بنت المستكفى) فى قرطبة وسواهما ..

ويخص المؤلف بالذكر فى فصل خاص المنتديات والصالونات الأدبية حتى العصر الحديث بفصل كصالون نازلى فاضل فى القاهرة وتونس. و(منتدى مريانا مراش) فى حلب، و(منتدى الكسندر الخورى) فى الإسكندرية و(صالون مى زيادة فى القاهرة)، و(ندوة العقاد) (صباح كل يوم جمعة)، و(منتدى جماعة أبولو)، و(منتدى محمود تيمور)، و(ندوة رابطة الأدب الحديث) مساء كل ثلاثاء.

وهناك فى القاهرة ندوات أخرى كـ · (ندوة المقتطف) صباح كل يوم جمعه و(ندوة دار الحكمة) وغير ذلك ..

والنصف الأول من هذا القرن كانت القاهرة تعج بالندوات، وكانت منازل العظماء فى الحلمية الجديدة حافلة بشهودها من كبار الشخصيات حتى ليصح أن نقول: أن القاهرة كانت آنذاك مجتمع الندوات والمنتديات.

ويحدثنا رشيد الذوادى فى فصله: (المقاهى ورائحة الزمن) عن ظاهرة انتشار المقاهى الأدبية فى أوروبا وبخاصة: باريس، وبالرمو، والبندقية.

ثم بعد نحو ثلث الكتاب يتحدث المؤلف عن (مقاهى الأدب فى الوطن العربى) بدءا من تونس، والجزائر، ومصر، وسوريا ولبنان، والأردن، والسعودية، والعراق.

و(مقهى جماعة تحت السور) فى تونس : (١٩٢٩ - ١٩٤٣) له منزلة خاصة عند المؤلف لأنه يمثل ثوابت الفكر التونسى قبيل الاستقلال بقليل.

(٥)

فهذا الكتاب مغر بالقراءة، لمنزلة مؤلفه الكريم أولا، ولأسلوبه الجميل البليغ ثانيا، ولأنه يعيدنا إلى ذكريات قديمة وإلى ذكريات حديثة فى تاريخنا قد تكون نسيناها بتطور الأيام والزمان والأحداث.

والمؤلف وفق كل التوفيق فى التذكير بمرجعيات هامة فى تاريخنا المعاصر، وفى تحديد رسالة الإنسان فى الزمان والمكان وفى الذاكرة الإنسانية. وفى تقديم نص ثرى وفر زادا معرفيا للباحثين فى هذا المجال.

وأحسن المؤلف صنعا فى جمعه لشتات هذه الذكريات فى عقد واحد أطلق عليه اسم (مقاهى الأدباء فى الوطن العربى)..

ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية
وعلاقتها بالأصول الثلاثية

- ١ -

الدكتور أمين محمد فاخر أستاذ أصول اللغة وفلسفة العربية، وعميد كلية اللغة العربية، الكلية الشامخة بجامعة الأزهر الشريف.

ولا أزيدك - أيها القارئ - تعريفا به، فهو ابن الأزهر حقا، وسليل الفحول من علماء اللغة، الذين أنجبهم الأزهر على مر السنين والأجيال.

ويمكن - أيها القارئ العزيز - أن تتعرف عليه، وعلى فلسفته اللغوية، فى بعض مؤلفاته الشامخة؛ من مثل كتابه :

-دراسات فى المعاجم العربية.

-دراسات لغوية لمؤلفات من التراث اللغوى العربى وهى : الخصائص - الصاحبى - المزهر.

-الألفاظ المشتركة فى العربية، وهى دراسة معجمية إحصائية.

[أو فى مؤلفه، الشامخ : ابن فارس اللغوى. منهجه، وأثره فى الدراسات اللغوية]، الذى طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية منذ عام ١٩٩١م - ١٤١١هـ، وقدم له مدير الجامعة آنذاك العلامة الشيخ الدكتور/ عبد الله عبد المحسن التركى، أثابه الله خير الثواب .

أو فى كتابه الذى نحن بصدده الآن فى هذه الكلمة الموجزة وهو : "ثنائية الألفاظ فى المعاجم اللغوية وعلاقتها بالأصول الثلاثية" المطبوع عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- ٢ -

وهذا الكتاب فى صفحاته العشرين والثلاثمائة يبحث فيه المؤلف الدكتور/ أمين محمد فاخر موضوعا جديدا لم يتناوله الباحثون فى الأصول اللغوية التناول

العلمي الذى يستحقه، ولم يكتب فيه كتاب مفرد من قبل؛ مع أنه ظاهرة لغوية كبيرة، وأصل من أصول العربية الأولى.

ومن المعلوم أن اللغة العربية - أو قل: "المعجم العربى" - تتألف من الألفاظ، والألفاظ تتألف من الحروف.

وهنا يتساءل الباحثون :

هل الألفاظ أصلها حرفان أو ثلاثة ؟

جمهرة اللغويين يرون أن أصل الألفاظ العربية ثلاثي الحروف. وما قل عن ذلك أى ما جاء على حرفين فهو محذوف منه حرف، ولا يمكن أن تجيء الألفاظ على حرف واحد، فمثل أب حذف منه حرف، يظهر فى توليدات الكلمة كالمثنى: أبوان، وكالنسب مثل : أبوى.

وفى هذه القضية وحدها - ثلاثية الألفاظ أم ثنائيتها - كتب المؤلف هذا الكتاب لبحثها وتمحيص الرأى فيها، يقول الدكتور فى مقدمة كتابه: هذه دراسة معجمية لقضية لغوية شغلت أذهان الباحثين من علماء اللغة المحدثين، وهى قضية الثنائية والثلاثية فى لغتنا العربية، تلك التى تبحث فى أصول الألفاظ، وهل كانت هذه الأصول فى أول وضعها على ثلاثة حروف أو كانت على حرفين، ثم تطورت حتى وصلت إلى تلك الألفاظ الثلاثية التى أصبحت تمثل جانبا كبيرا من ألفاظ العربية.. ويهدف هذا البحث إلى إثبات نظرية لغوية دعا إليها كثير من علماء اللغة دون أن يحاولوا إثباتها من واقع المعاجم اللغوية، وهى وجود علاقة قوية فى المعنى بين الألفاظ الثنائية والألفاظ الثلاثية المشتركة معها فى حرفين وإثبات أن هذا الثنائى فى كثير من مواد اللغة أصل الثلاثى. وليس كما يدعى كثير من الباحثين من أن الثلاثى هو الأصل .

- ٣ -

ويقول المؤلف الكبير : ظللت سنوات طويلة أدرس آراء العلماء فى نشأة الألفاظ، وهل هى من أصل ثنائى أو من أصل ثلاثى، وكنت أميل إلى الرأى القائل بأن أصل الكلمات كان على ثلاثة أحرف، كما كان يميل إليه كثير من الباحثين المحدثين، بل كنا ننظر إلى الرأى القائل بأن أصل الكلمات كان على حرفين اثنين.

على أنه ضرب من الخبال، ولا ينطبق على واقع اللغة. وعندى أنه لا ينبغى أن يكون هناك رأيان فى ذلك بل رأى واحد، هو أن الكلمات الثلاثية التى ظهرت فيها العلاقة واضحة بينها وبين الأصل الثنائى القريب منها فى اللفظ والمعنى هى من ذلك الأصل الثنائى، وما لم تظهر فيه هذه العلاقة فأجدر بنا أن نقول: "إنه قد وضع هكذا"، وعلى علماء اللغة أن ينقبوا عن ذلك فى المعاجم ليوجدوا الصلة بين هذه الكلمات، ويبينوا كيف تطورت حسب قوانين التطور اللغوى، لا أن يظل العلماء منقسمين إلى فريقين، ويبطل كل منهما كلام الآخر .. ثم يقول: "ولعل الجديد فى هذا البحث - أو هذه الدراسة الإحصائية لمواد اللغة - أنها تقوم على فكرة تطبيق هذه النظرية، - وهى الربط بين الثنائى والثلاثى - على مواد اللغة بطريقة تكاد تكون حاصرة للثنائيات ومطردة فيها".

ومن أجل ذلك كله وإثبات أن فكرة الثنائية قديمة، وأن الثنائى المضعف هو من باب الثنائى لا الثلاثى، وتطبيق الثنائية على مواد اللغة بطريقة حاصرة، يبدأ المؤلف بحثه بترتيب المواد اللغوية: الهمزة - الباء، التاء - .. إلخ. حتى يصل إلى الواو .

- ٤ -

وفى خاتمة البحث يقول المؤلف فى هذه الدراسة الجديدة: "أحصيت فى هذه الدراسة كثيرا من الألفاظ الثنائية المضعفة، وصل عددها إلى مائتين وخمسة وعشرين لفظا، باحثا عن تلك العلاقة المعنوية التى تربط بين الثنائى المضعف وبين الثلاثى المشترك معه فى حرفين وقد ظهرت العلاقة واضحة فى هذه الألفاظ التى تقرب من نصف الألفاظ الثنائية، وقد ظهرت فيها تلك العلاقة المعنوية التى تربط بين الثنائى المضعف وبين الثلاثى المشترك معه فى حرفين. أما الألفاظ الثنائية التى لا تظهر فيها العلاقة واضحة بينها وبين الأصول الثلاثية وغيرها. فربما يرجع ذلك إلى أسباب كثيرة، ذكر المؤلف أهمها.

والهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن العلاقة المعنوية بين أصول الألفاظ المتشابهة من الناحية اللفظية. وخاصة ما بين الأصول الثنائية والثلاثية من تقارب.

مما يؤدى فى نهاية الأمر إلى إيجاد الربط الطبيعى والمنطقى بين الألفاظ فى لغتنا العربية.

وهذه الطريقة التى اتبعها المؤلف فى بحثه - وهى محاولة الربط بين الأصل الثنائى المضعف والأصل الثلاثى، وتوضيح العلاقة المعنوية بينهما هى - كما يقول المؤلف - أمثل الطرق وأقربها فى الاستدلال على أصالة الثنائى فى كثير من المواد.

إن اللغة كائن حى فلابد من تدرجها حتى تصل إلى الكمال، وهذا يتطلب أن يوجد المضعف أولا، ويليه الأجوف لتفرعه عنه بوضع حرف علة مكان أحد المتماثلين .. والمزيد يساير المضعف فى معناه، والحكم بزيادة حرف أليق من الحكم بنقص حرف.

- ٥ -

ويسترسل المؤلف فى خاتمته إلى القول بأن: الحق أنه ينبغى أن نقف فى ذلك موقفا معتدلا، فلا ننادى بما نادى به بعض الباحثين من أن الثنائية لم تكن سوى مرحلة تاريخية وأن العربية لم تعتمد على شىء سوى الثلاثى، وأن هذا الثلاثى هو الأصل فى نشأة الألفاظ. ولا نقول إن الثنائى فى كل ألفاظ العربية هو الأصل، فقد أثبتت هذه الدراسة أن الثنائى فى جزء كبير من المعجم اللغوى أصل لكثير من الألفاظ. ولكن الجزء الآخر منها لا يتضح فيه هذه العلاقة ولا يزال يحتاج إلى دراسة.

إن هذا الكتاب، أو قل إن هذه الدراسة اللغوية العميقة، جديدة كل الجدة، وواضحة الهدف والمنهج، وهى لا تلغى جزءا من ألفاظ المعجم العربى - الثنائيات - بل تجعله أصلا جاءت عليه عوامل التطور اللغوى فأصبح أصلا للكثير من الألفاظ الثلاثية، وصار بذلك له كيانه الواضح المستقر فى المعجم اللغوى.

ولا شك أن المؤلف فى هذه القضية وفى منهجه الواضح فى درسها وشرحها وحلها، كان موفقا كل التوفيق وكان مجددا أعمق تجديد فى دراسته، وكان واضحا كل الوضوح، ومستقل الرأى فى منهجه وفى موقفه من هذه القضية .

محمد لطفى جمعة
ورحلته للديار المقدسة

الكتاب عنوانه "الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة"، وهو رحلة للحج والزيارة إلى الأراضى الحجازية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود - طبعة القاهرة - ١٩٦٩م والمؤلف هو المفكر الإسلامى الكبير محمد لطفى جمعه - المتوفى فى يناير ١٩٥٣م - صاحب المؤلفات المشهورة، مثل "الشهاب الراصد"، و"مقدمة قانون العقوبات"، و"حياة الشرق" و"مائدة أفلاطون وسواها".

وكان محمد لطفى جمعة من أشهر المحامين فى مصر، ومن كبار المفكرين الإسلاميين، ومواقفه فى نقد الفكر الاستشراقى مواقف خالدة لا تنسى على مرور الأيام .

المؤلف واحد من أشهر المفكرين الإسلاميين وصاحب مواقف مشهودة فى نقد الفكر الاستشراقى.

وهذه الرحلة كانت بهدف تأدية فريضة الحج فى المقام الأول، وفى شتاء عام (١٣٥٩ - ١٣٦٠هـ - ١٩٤٠ - ١٩٤١م) أى منذ نحو ستين عاما، إلا أن المؤلف أراد منها كذلك استكمال مباحثه التاريخية والجغرافية والدينية فى السيرة النبوية أن طبع الجزء الأول من كتابه عن سيد الأنبياء؛ وكذلك هدف من وراء الرحلة مشاهدة الأماكن والبقاع التى ورد ذكرها فى كتب السيرة، للحديث عنها حديث من رأى بعينه، وانفعل بقلبه وروحه ووجدانه.

وقد وصف المؤلف فى هذه الرحلة مناسك الحج وشعائره منذ الوصول إلى مكة المكرمة، ثم زيارة المدينة المنورة، وسجل مشاهده وخواطره ومشاعره، وانفعالاته العقلية والنفسية والروحية عند كل مشهد وكل بقعة وكل شعيرة كما سجل المؤلف لقاءاته بالملك عبد العزيز آل سعود، ونائبه الأمير فيصل، واستقبالهما له وأحاديثه معهما بالقصر القديم، وبخاصة حديث الملك عن العلاقات بين مصر والسعودية، وبين الشعبين السعودى والمصرى.

وصف مؤثر :

وصف المؤلف المآدب التى أقامها الملك لكبار المدعوين من حجاج بيت الله الحرام بقصر المعابدة والقصر العالى، وسجل الكلمات التى ألقاها الملك فى هذه المناسبات الكريمة، كما سجل المؤلف خطبته التى ألقاها هو فى حضرة الملك العظيم.

ووصف المؤلف فى كتابه موكب قدوم الملك إلى البلد الحرام لتأدية فريضة الحج مع أنجاله الأمراء ومع وزرائه ورجال حاشيته، وخروج الشعب وأعيان جدة والطائف ومكة للقائه، ثم طوافه طواف القدوم بالكعبة المشرفة. وسعيه فى ضوء المشاعل بين الصفا والمروة، فكان - كما يقول المؤلف أرفع الطائفين والساعين قامة، وأكبرهم هامة، وأكثرهم جلالا وهيبة، مع التواضع لله والشعور بعظمته، سبحانه وتعالى بحيث يجمع بين روعة الإيمان، وسكينة الخشوع، مما جعل لهذا المشهد هيبة وجلالا، حتى صار بالغا غاية الجمال والجلال. مع بساطته التى لا حد لها.

وتحدث المؤلف فى رحلته عن لقائه بالعديد من أمراء البيت الملكى ورجالات الدولة، كالأمير مساعد. والأمير فيصل. كما سجل لطفى جمعه لقاءه بالشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ قاضى القضاة فى نجد، وشيخ الإسلام، وهو من سلالة الإمام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، عليه رحمة الله ورضوانه.

ولم يفت المؤلف أن يتحدث فى رحلته عن الكثير من مظاهر الحياة الفكرية والثقافية والأدبية والاجتماعية فى المملكة العربية السعودية على عهد الملك عبد العزيز، وأن يذكر لقاءاته بالعديد من أدباء السعودية وكتابها وشعرائها فى مكة والمدينة وجدة .. ووصف المؤلف مظاهر النهضة الحديثة فى المملكة فى مختلف الجوانب فى عهد الملك عبد العزيز وأشاد المؤلف فى رحلته وخطبه التى ألقاها بين يدى الملك بالأمن الذى يسود كل أنحاء المملكة وبتنفيذ الحدود. وتطبيق الشريعة فى البلاد. والمساواة التامة بين الكبير والصغير فى إقامة الحدود وتنفيذها. حتى انقطعت الجرائم والسرقات والموبقات. وساد الأمن سيادة مطلقة، مما جعل المملكة مضرب الأمثال فى هذا السبيل.

ويسجل المؤلف فى كتابه مقالته عن الملك عبد العزيز، حين زار القاهرة عام ١٩٤٥م، وعن أعماله فى تأمين الطرق إلى بيت الله الحرام، ونشر العدالة والمساواة بين الناس، والنهوض بالبلاد فى جميع النواحى.

وتكتسب هذه الرحلة أهميتها الخاصة من أنها تعتبر وثيقة تاريخية جليلة، ومن المصادر التاريخية الهامة فى حياة البلاد وتاريخ المملكة على عهد الملك عبد العزيز، رحمه الله تعالى.

يصف المؤلف رحلة الحج الأليمة قبل عصر الملك عبد العزيز، حيث كان الحج تجارة رابحة للحاكم، وكان الحاج فريسته، فمن الضرب والقتل إلى التعدى على المال والسرقة، والخطف ونهب الثياب والطعام واصطناع الحيل لسرقة أمتعة الحجاج، بل وقتلهم؛ يذكر المؤلف ذلك (ص٣٣) ثم يقول: أما الآن فقد تبدل الحال غير الحال، حيث ينعم الحاج اليوم بالأمن والاستقرار اللذين يسودان ربوع البلاد مما صار مضرب الأمثال فى جميع الأوساط الدولية. بعد أن كان الحجاز فى يوم من الأيام مضرب الأمثال على اختلال الأمن، واضطراب حبل النظام، كان أول عمل قام به الملك عبد العزيز بعد أن فتح الحجاز سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٣م إرساء قواعد الأمن على أسس قوية متينة مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله - ﷺ - فأعلن فى جموع الأهالى ورؤساء القبائل وزعماء العشائر أن دستور البلاد هو كتاب الله وسنة نبيه وأنه سوف يضرب بيد من حديد وبلا رحمة ولا شفقة على كل من تسول له نفسه العبث بالأمن؛ وركز بصفة خاصة على توفير الأمن والطمأنينة لحجاج بيت الله الحرام فى جميع المشاعر والمناسك والطرقات المؤدية إليها. وقد حرصت الحكومة السعودية أشد الحرص على تقديم أفضل الخدمات للحجاج، لكى يؤدوا مناسكهم فى يسر وأمن واطمئنان؛ وأصبح الحجاج الآن يعودون إلى أوطانهم فى مشارق الأرض ومغاربها وألسنتهم تلهج بحمد الله وشكره على أن عبد العزيز قد حقق الأمن فى بيت الله الحرام وأن ذلك لم يكن يتم إلا على أيدى البطل الملك عبد العزيز. وأصبح الحاج يقبل على الأراضى المقدسة فى هذه الأيام بالروح والجسد فيجد السلام فى المجتمع. والأمن فى الطريق، والأمانة فى الأيدى. والوئام فى الأسرة، والكرامة فى النفوس، والسكينة فى القلوب، والرضا فى العيش، والثقة فى الحاكم. لقد أحيا

الملك عبد العزيز التشريع السماوى، فكان أثر ذلك الخير والطمأنينة والأمن والأمان للناس أجمعين.

معالم البلد الحرام :

يصف المؤلف الحياة فى جدة وفى مكة المكرمة الآمنة وصفا دقيقا، ويتحدث عن كل المعالم فى البلد الحرام عن دار الأرقم، وغار حراء، ودار أبى سفيان التى صارت مستشفى، ودار عثمان بن عفان، وعن شوارع مكة، وبيوتها وأسواقها، وعن حجاج بيت الله، من كل الأجناس والشعوب، ويذكر حديثه وحواره مع شخص يمنى عجيب، اسمه ناصر بن حسن المحويتى الصنعائى .

ويذكر المؤلف لقاءه بالشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ شيخ الإسلام وقاضى القضاة فى نجد .

ويثبت محمد لطفى جمعه مقابلته للملك عبد العزيز بصفة خاصة بالقصر القديم صباح الثلاثاء الثالث من ذى الحجة عام ١٣٥٩هـ أول يناير عام ١٩٤١م حيث الملك محاط بالأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة، ومصافحة الملك له وحديث الملك وهو يتكلم بصوت رقيق، ويقول: نحن لا يهمنا شىء غير طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ وقد ضحينا بكل شىء فى سبيل إعلاء كلمة الحق ورفعة شأن المسلمين. ونحن نحب مصر والمصريين، وإن العلاقة بيننا وبين مصر قوية ومتينة، وقال الملك: أنه لا يهمه الملك وأن الحب كله منصرف إلى رسول الله فحبه مفروض علينا من الله. ثم تكلم عن حالة المسلمين وأمله فى اجتماع كلمتهم وتوحد رأيهم. وهذه المضامين أكدها الملك فى خطابه المرتجل البليغ، ومما قاله الملك فى هذا الموقف إن هذه الألقاب التى تعارف عليها الناس من ألقاب الملوكية وأمثالها من المصطلحات ليست محببة إلينا، وإنما المحبب إلينا أن نكون عباد الله، وأن نبذل أنفسنا وحياتنا فى سبيل الله ويرتجل المؤلف خطبة بليغة أمام الملك يذكر فيها ما رآه من أمن وطمأنينة ومحبة تسود البلاد، ومن ثقة بالحاكم وتعاون معه على العمل من أجل النهوض بالأمة والدولة والشعب.

على مائدة الملك :

وتناول المؤلف العشاء على مائدة الملك مع كبار الضيوف من وفـود بيت الله الحرام فى اليوم السادس من ذى الحجة، ويذكر حديث الملك إلى الضيوف، وقام المؤلف وألقى خطبة قيمة بين يدى الملك، كما ألقى الشاعر أبو الإقبال البعظوبى الفلسطينى قصيدة جاء فيها :

بلـد آمـن وبيـت أمـان
ومليـك دسـتوره القـرآن
لم يـر النـاس مثـل عصرك عصـر
أزهـر الديـن فيـه والإيمـان
قبـس مـن شـريعة الله عـدل
لاح فيـه التوحيـد والبرهـان
قـد تجلـت فيـه الشـريعة نـورا
وتجلـى للنـاس منـها البيـان
أيدتـه عنايـة الله حتـى
رسـخت فـى بنائـه الأركـان
وأقـام الديـن الحنيـف قويمـا
فتعـالى بفضلـه البنيـان

كما يذكر المؤلف لقاءه بالأمير فيصل ورجال الدولة وأحاديثه معهم.

ويدعوه الشيخ محمد سرور الصبان إلى مأدبة فى داره وهناك يلقى خطبة طويلة، أمام الحاضرين.

ولا ينسى المؤلف أن يتحدث عن صور من الحياة فى مكة آنذاك، وعن اللغة والأدب والشعر فى الحجاز وعن شمائل أهل مكة، ويخص بالحديث طواف الملك عبد العزيز بالبيت الحرام، بعد قدومه من الرياض، وسعيه بين الصفا والمروة. ويقول كان منظر الملك وهو يطوف ويسعى بالغا غاية الجلال والجمال مع بساطته التى لا حد لها.

ويذكر دعوة الملك لضيوفه فى منى فى قصره الملكى ثانى أيام العيد، حيث ألقى المؤلف خطبة قيمة بين يدى الملك فى هذا اللقاء استهلها بمخاطبته للملك بياطويل العمر، وكرر ذلك فى جميع فقراتها ..

ويذكر المؤلف ما دار من حوارات فى هذا اللقاء، ثم انصراف الجميع قبل صلاة الظهر إلى الجمرات.

أيام فى المدينة :

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن زيارته المدينة وعن ما شاهده فى الطريق إليها، وعن وقفته أمام المسجد النبوى الشريف، ويقول إن كل ما رأيته فى حياتى بعد أن سمعت به وجدته أقل مما تخيلته إلا الحرمين : الكعبة ومسجد الرسول، ويصف المسجد وعظمته وصفا جميلا دقيقا، ويدعى إلى مأدبة عشاء فى قصر أمير المدينة الأمير عبد الله السديرى، حيث ألقى بين يدى الحاضرين خطبة قيمة شكر فيها الأمير ووصف مشاعره حيال كرم الدولة على حجاج بيت الله الحرام.

ويطوف المؤلف بمشاهد المدينة ومزاراتها وأوديتها وجبالها، وبالخندق، وسقيفة بنى ساعدة، وغير ذلك.

ثم يركب الباخرة كوثر للعودة إلى أرض الوطن، وفى الباخرة يخطب المؤلف فى الحجاج خطبة طويلة يشكر فيها الله عز وجل على ما أنعم الله به عليه وعليهم من نعمة الإيمان، ومن التوفيق لأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة المدينة - ومسجد رسول الله خاتم النبيين وسيد المرسلين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين.

والكتاب بصفحاته السبعين والمائتين يعد موسوعة تاريخية عن المملكة والملك والدولة السعودية فى عهد الملك عبد العزيز - رحمه الله.

وهو كذلك وثيقة من وثائق التاريخ تعطى الكثير من الحقائق عن هذه الفترة الحافلة الخالدة من حياة المملكة والدولة والشعب السعودى الطموح ..

وفى الجملة فإننا نضع هذا الكتاب القيم بين الكتب التاريخية التى تسجل تاريخ الملك عبد العزيز وتاريخ المملكة السعودية فى عهده وهو جدير بأن يحتل مكانا بارزا فى المكتبة التاريخية لعصر الملك عبد العزيز، وإن كان الهدف الأول منه الحديث عن رحلة الحج والأيام المبرورة فى البقاع المقدسة .

المكتبات الكبرى فى مصر

المكتبة جزء أصيل من تاريخ الإنسانية وتاريخ الحضارة .. وقد عرفت الحضارات القديمة المكتبة .. وأنشأت بعضا من المكتبات للقراءة والبحث والمطالعة.

وتبدأ المكتبة فى الحضارات القديمة بجمع بعض النصوص الدينية والأدعية والابتهالات فى مكان واحد وبخاصة فى المعابد ولدى رجال الدين لقراءتها والرجوع إليها.

وقد عثر على مكتبات فى مصر من أقدمها .. مكتبة خوفو ومكتبة خفرع .. ومكتبة حوتب .. ومكتبة الإسكندرية القديمة ذائعة الصيت ولها شهرتها وتاريخها وتأثيرها الحضارى فى العالم وفى الحضارات كلها. وقد أنشأها بطليموس الأول مؤسس أسرة البطالمة فى مصر - وازدهرت فى عهد ابنه بطليموس الثانى ازدهارا كبير - وبحسبنا أنها كانت تحتوى على ما يقارب خمسمائة ألف مجلد ثم استمرت تنمو حتى أصابتها حرائق أتت على أغلبها قبل الإسلام بنحو قرنين أو يزيد. وقد نسب بعض المؤرخين إحراقها إلى عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب.. وأول من ذكر ذلك عبد اللطيف البغدادى ثم تلاه القفطى وابن العبرى . وهو وهم كاذب - لأنه عندما قدم عمرو بن العاص بجيشه لفتح مصر - لم يكن هناك أثر لمكتبة الإسكندرية - وقد أثبت ذلك فى بحث نشرته منذ أكثر من ثلاثين عاما .. ويؤكد براءة عمرو بن العاص والخليفة عمر والإسلام نفسه من تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية عديد من ثقات المستشرقين والمؤرخين المحدثين.

وفى التنقيب على الآثار فى وادى الفرات عثرت إحدى البعثات الأمريكية على مكتبة تحوى نحو ثلاثين ألف آجرة - لبنة من الطين المجفف - مكتوب عليها بالخط المسمارى بعض الشئون الإدارية والأدبية والفنية .

وفى الإسلام نشأت المكتبة مع نزول الرسالة والوحى. وكانت أولى المكتبات فى الإسلام بيت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .. فقد كان يجمع فيه ما يدونه كتاب الوحى من سور القرآن الكريم وآياته المنزلة .. ثم نقلت هذه المدونات من بيت رسول الله بعد وفاته إلى بيت أبى بكر .. ثم إلى بيت الخليفة عمر .. ثم إلى

بيت الخليفة عثمان - الذى استعارها من أم المؤمنين حفصة بنت عمر ونسخ عنها المصاحف التى بعث ببعضها إلى الأقاليم - ذلكم هو مصحف عثمان الجامع.

وكانت بيوت الصحابة بمثابة مكتبات خاصة تحفظ فيها صحف من القرآن الكريم وتفسيره .. وصحف من الحديث النبوى الشريف ثم نشأت مكتبات فى المساجد الكبرى وفى مقدمتها : المسجد النبوى والمسجد الحرام .. ومسجد البصرة الجامع .. ومسجد الكوفة الجامع .. ومسجد الفسطاط (أو مسجد عمرو بن العاص).. والمسجد الأموى .. ومسجد عقبة بن نافع فى القيروان ..

ومن مكتبات الصحابة الخاصة : بيت سعد بن عبادة الأنصارى (١٥هـ) - وكان فيه العديد من الكتب التى تحتوى على طائفة من الحديث النبوى الشريف .. وبيت ابن مسعود - وفيه صحف بخطه وصحف مصحف ابن مسعود .. وبيت أبى هريرة - وكان فيه كتب فى الحديث .. وبيت ابن عباس .. وعبد الله بن عمرو بن العاص - وكان يحفظ كتبه وصحفه فى صناديق لها حلق .. وبيت عروة بن الزبير (٢٢ - ٩٣هـ) وغير هؤلاء كثير.

المكتبات فى مصر :

نشأت المكتبات فى مصر إذا فى المساجد وفى مقدمتها "مسجد الفسطاط الذى تحول إلى جامعة إسلامية كبرى منذ إنشائه عام ٢١هـ - ٦٤١م.. وكان يجلس فى حلقاته كبار الصحابة من رجال الفتح الإسلامى أمثال عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٢هـ) وكانت حلقته العلمية من أكبر الحلقات وأكثرها تأثيرا .. وفى جامعة الفسطاط نشأ أبو تمام - وكان للشافعى (١٥٠ - ٢٠٤هـ) حلقة فيها وبمرور الأيام نمت مكتبة جامع الفسطاط وأفادت العلماء والطلاب والباحثين فائدة جلى .. وقد بقيت الحلقات العلمية فى جامع الفسطاط حتى نهايات القرن الثامن الهجرى ثم لم يبق لها أثر بتدمير مدينة الفسطاط وخرابها .

وعندما أنشىء الأزهر فى القاهرة المعزية عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م صاحب إنشاءه قيام مكتبة كبيرة فيه تخدم الطلاب والدارسين والباحثين والعلماء، ونمت هذه المكتبة نموا كبيرا.. ولازالت تحتفظ بتراثها وأهميتها حتى اليوم[1].

---

[1] تفاصيل مكتبة الأزهر وتاريخه ونفائسها .
راجع كتابى عن الأزهر فى ألف عام (٣ أجزاء) .

وقد أمر الإمام محمد بجمع الكتب المطبوعة والمخطوطات من أروقة الأزهر الشريف لتجديد إنشاء مكتبة أزهرية كبيرة، وتم ذلك على يديه بفضل الله عز وجل واستهدى بعض العلماء ورجالات مصر مكتباتهم الخاصة لتوضع فى مكتبة الأزهر الشريف ومن بينهم: إسماعيل أباظه باشا وسواه .

وفى عهد الحاكم الفاطمى أمر بإنشاء بيت الحكمة أو دار الحكمة - ويطلق عليها اسم "دار العلم" تقليدا لبيت الحكمة فى بغداد الذى أمر الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ) بإنشائه ونما في عهد المأمون والخلفاء من بعده - وكان من أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى[١] .. كما كانت "دار العلم" فى القاهرة من أعظم خزائن الكتب فى العالم الإسلامى - وكانت مكتبة وبمثابة أكاديمية علمية أو جامعة كبرى ظلت قائمة إلى عام سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ.

وقد اشترى القاضى الفاضل (٥٩٦هـ) وزير صلاح الدين الأيوبى أكثر كتب هذه الخزانة حيث أوقفها بمدرسته الفاضلية التى أنشأها فى القاهرة[٢].

وبقيام المدارس الكبرى فى القاهرة فى العصر الأيوبى بجوار الأزهر لتسانده فى أداء رسالته الإسلامية الكبرى قامت فيها مكتبات كبيرة خدمة للطلاب والباحثين.. هذا إلى مكتبات كبار العلماء والحكام - وحسبك مكتبة الإمام جلال الدين السيوطى (٨٤٩ - ٩١١هـ) ومكتبة شيوخ الأزهر وكبار العلماء .

وكان لعلى مبارك باشا (١٢٣٩هـ : ١٨٢٣م) - (٥ جمادى الأولى ١٣١١هـ: ١٤ نوفمبر ١٨٩٣م) أثر بارز فى النهضة الثقافية والعلمية وبخاصة فى عصر إسماعيل وعباس باشا الثانى - فهو الذى أنشأ دار الكتب المصرية ودعمها بالآلاف من الكتب والمخطوطات فى مختلف فروع الآداب والفنون والعلوم التى جمعها من المساجد الكبرى فى مصر ومن تبرعات العلماء والوجهاء والأعيان .. وقد أضيف إليها مكتبة شيخ العروبة أحمد زكى باشا .. ومكتبة العلامة أحمد تيمور باشا -وهما مكتبتان ثريتان بالكتب وبخاصة المخطوطات منها .

ويطلق على المكتبة الأولى اسم "الخزانة الزكية" وعلى الثانية اسم "المكتبة التيمورية".

---

(١) صبح الأعشى ٤٦٦ / ١ .. تاريخ الإسلام السياسى ٢٧٤/ ٢، ضحى الإسلام لأحمد أمين (٦١/ ٢)
(٢) ٤٦٧ / ١ صبح الأعشى للقلقشندى .

ومن المكتبات الكبرى فى مصر بعد مكتبة الأزهر ودار الكتب المصرية:

★ مكتبة بلدية الإسكندرية

★ مكتبة بلدية دمياط ومكتبة المعهد الدينى فى دمياط .

★ مكتبة بلدية طنطا، ومكتبة المعهد الأحمدى الأزهرى فى طنطا ومكتبة المسجد الأحمدى فيها .

★ مكتبة بلدية سوهاج وفيها مكتبة رفاعة الطهطاوى .

ومكتبات أخرى كثيرة عامة كمكتبة جامعة الأزهر ومكتبة جامعة القاهرة .. ومكتبة جامعة عين شمس .. ومكتبة جامعة الإسكندرية .. ومكتبة جامعة المنصورة وجامعة أسيوط ..

ولكل كلية فى مختلف الجامعة المصرية مكتبة كبيرة تحتوى على آلاف الكتب - وبخاصة نسخ مخطوط من البحوث العلمية ومن رسائل الماجستير والدكتوراه.

وفى معهد الدراسات العربية فى جاردن سيتى مكتبة قيمة ضخمة - وكذلك فى كلية دار العلوم إحدى كليات جامعة القاهرة .

وفى القاهرة معهد المخطوطات العربية .. ومكتبة حافلة بصور لأنفس المخطوطات فى العالم .

وتشهد مصر حاليا مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة - وهو مشروع كبير بدىء بتنفيذه ويستغرق أكثر من خمس سنوات .

هذا إلى المكتبات الخاصة الموجودة فى بيوت العلماء وأساتذة الجامعات ورجال البحث العلمى وهواة القراءة ومحبى اقتناء الكتب والمخطوطات فى القاهرة وعواصم الأقاليم.

وقد صارت أزمة المساكن وأزمات الحياة الحاضرة فى مصر تهدد الكتب والمكتبات الخاصة تهديدا خطيرا ولكن الاهتمام بالكتب وبالمكتبات الخاصة فى مصر يزداد بتوالى الأيام.

والكتاب هو زاد الشاب والشيخ .. والرجل والمرأة والطفل.. والاهتمام به هو اهتمام حضارى بالحاضر والمستقبل وبالإنسان العربى والمسلم بل بالإنسان نفسه فى كل مكان وزمان .

فن المقال الصحفى
فى أدب طه حسين

طه حسين (مارس ١٨٨٩ - الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣) مزاج قوى بين حضارة الشرق وحضارة الغرب، وعصارة طيبة من معهدين مختلفين : الأزهر والسوربون .. ومن نبع المعرفة الإنسانية نهل طه حسين من الثقافات العالمية وتعمق فى دراسات الآداب القديمة والحديثة على السواء .

وتتركز ملامح شخصية طه حسين فى فكره الحر المستقل وروحه الكبيرة الطموح، وهيامه بالفن والجمال والأدب كما يقول محمود تيمور فى مقالة له عن طه حسين نشرت فى الهلال عدد فبراير ١٩٦٦.

ويمثل طه حسين ورفاق له مدرسة جديدة فى الأدب المصرى، بل وفى الفكر المصرى المعاصر .

وطه حسين يصطنع فى البحث المنهج الديكارتى - نسبة إلى ديكارت - وقد شغف طه بفلسفته وتأثر بها، وسار على ضوئه فى دراسته للشعر الجاهلى.

ولطه حسين نظرياته فى الأدب والنقد والثقافة ومن أساتذته سيد بن على المرصفى والشيخ محمد المهدى وأحمد زكى باشا وحفنى ناصف، وقد أخذ عنهم فهم النص، وتذوق بلاغته، وكذلك المستشرقان نينو وفييت وأخذ عنهما فهم الأدب العربى وأطواره وكل المقومات الأدبية التى تأثر بها هذا الأدب. وفى فرنسا حضر محاضرات فوكو فى علم النفس فى جامعة مونبليه. ومحاضرات أميل دوركايم وشلستان بوجليه فى علم الاجتماع، وتحت إشرافهما كتب رسالته فى الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون. ودرس الفكر اليونانى وكتب عنه وألف فيه. كما تأثر بفلسفة ابن خلدون وأبى العلاء، واحتذى حذو أحمد لطفى السيد فى تفكيره .. وفى كتبه : أديب - الحب الضائع - فصول فى الأدب والنقد - ألوان - من بعيد - صوت باريس - لحظات، صور من تأثره بالثقافة الفرنسية .

وصلة طه حسين بأدب المنفلوطى صلة وثيقة، ومع أنه نقد المنفلوطى فى مجلة اللواء ثم العلم عام ١٩١٠، فإنه كان يقول: لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا

يوم ينشر فيه "نظرة" أو "أسبوعية" فقد علم الله أنى كنت أشغف بـه كـل الشـغف، وأقبل عليه كل الإقبال (الهلال عدد فبراير ١٩٦٦ ص٨٧).

والحديث عن طه حسين طويل ومتشعب ولا ينفد بحال.

دراسة جديدة :

وقريباً من عيد ميلاد طه حسين الثامن والتسـعين (١٨٨٩ - ١٩٨٧م) يظـهر فى دراسة أدب طه حسين كتاب جديد للدكتور الناقد عبد العزيز شرف بعنوان "فـن المقال الصحفى فى أدب طه حسين فـى نحـو ثلاثـين وأربعمائـة صفحـة مـن القطـع الكبير، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والكتاب دراسة جديدة، غير مسبوقة، استخدم فيها د. عبد العزيـز شـرف منهجه فى التفسير الإعلامى للأدب، وحرص على الرجوع إلى الأدب الذى لم ينشـر فى كتب لعميد الأدب العربى د. طه حسين.

وقد استطاع الباحث أن يستقرىء أشكالا جديـدة لفن المقـال، تـثرى فنـون التحرير، وتؤصل هذا الفن فى تراثنـا، وتحـدد منهجـه فـى تحقيـق التعادليـة بـين الأصالة والمعاصرة، وجهد المؤلف فى إظهار الخصائص الفنيـة لأدب المقالـة، وسـيلة لتأصيلها فى تراثنا، ولتأصيل هذا الفن فى التراث أيضا.

ويقول المؤلف فى صدر بحثه (ص١٠) : حاولنا فى هذا البحث أن نتعـرف على الأسس الجوهرية والتيارات الفكرية العامة، والنواحى الفنية الهامة التـى أسـفر عنها الفن الصحفى فيما يخص المقـال الصحفـى فـى أدب طـه حسـين، مـن حيـث تحريره وغايته فى الارتباط بالجماهير، فضلا عن عمومية وسـيلة الاتصـال الصحفـى ودوريتها، والرؤية الوظيفية التى تدفع الفـن المقـالى، وتحـدد شـكله ومضمونـه. وقـد اتخذ طه خسين من الفن الصحفى وسيلة للاتصـال بالجماهـير فـى تحقيـق التقـارب والتواصل، القائم على أن الفكرة فى دلالتها الاجتماعية، والكلمة فى صيغتها العملية من أقدم الوسائل لتحقيق ما ينشد .

دوره فى إبراز النهضة :

ويقول المؤلف : إن طه حسين أحـد الطلائـع الذيـن اسـتوت علـى أيديـهم معالم النهضة المصرية الحاضرة، فكانت مراحل حياته المختلفة، كما كـانت جـهوده

الصحفية مظهرا لإيمانه بهذه المثل، ومصداقا لعمله على التعبير عنها في الوصول بمصر إلى الغد المشرق، وفي تعزيز صلاتها بالفكر الإنسان على تعدد آفاقه، وفي مقاومة العزلة بجميع ألوانها. ويمثل مقاله الصحفى هذه الرؤيا فى الميدان الفكرى والميدان العملى على السواء (ص١١).

ويقول كذلك : لعل فى ذلك ما حدا بكثير من المستشرقين إلى توكيد الارتباط بين الجوانب المختلفة في كتابات طه حسين ونبوغه الفنى فى كتاباته الثقافية والسياسية والأدبية على السواء (ص١١) .. ولقد تقاضانا المنهج العلمى فى دراسة فن المقال الصحفى فى أدب طه حسين أن ننطلق من فهم عملية الإعلام على أنها عملية اتصال بين كاتب وقارئ الأمر الذى يجعل دراسة المقال الصحفى فى مكانه من عملية الإعلام (ص١٣).

المستشرقون وطه حسين ويقع الكتاب فى عدة فصول:

فالفصل الأول: عن طه حسين ومدرسة الجريدة.

والثانى : عن طه وبيئة المقال الصحفى فى مصر .

والثالث : عن طه وبلاغة الاتصال بالجماهير .

والرابع : عن أساليب التحرير فى مقال طه .

والخامس : عن طه حسين وفن العمود الصحفى .

والسادس : عن فن اليوميات الصحفية فى أدب طه حسين .

والسابع : عن فن المقال الرئيسى الافتتاحى .

والثامن : عن فن المقال الرئيسى النزالى .

والتاسع : عن فن المقال الرئيسى الكاريكاتيرى .

والعاشر : عن المقال التحليلى والتقويم الصحفى .

وفى المقدمة ذكر المؤلف أن فى الدور الذى قام به طه فى نهضتنا الصحفية الحديثة ما يلقى الضوء على تقدير المستشرقين لدوره. حتى لقد ذهب الأستاذ سبرنجلنج إلى أنه لم يظهر من عصر هوميروس إلى الآن من نبغ نبوغ طه وعده "برجشسترسر" فخر الأدب بمصر. وجعله المؤلف هو وسقراط والجاحظ أشد الناس صلة بروح المقال الصحفى (ص٢٥).

ويدرس المؤلف بيئة الجريدة التى عمل فيها طه وبيئة كوكب الشرق، والوادى، والكاتب المصرى فى الفصل الثانى.

ويشرح فى الفصل الثالث : عناصر الأصالة والتجديد فى فن المقال الصحفى عند طه حسين، وبلاغة المقال الصحفى، وبلاغة الاتصال بالجماهير فى مقاله، والأسلوب الواقعى والاستقصائى والاستقرائى والصحفى فى أدب المقال عند طه حسين .. وذلك فى الفصل الثالث .

وفى الرابع يستعرض المؤلف المقال القصصى والوصفى، والرمزى والرسائل المقالية فى أدبه الصحفى وخصائص كل لون، وذلك فى دقة، وعمق تناول.

وفى الخامس يعرض لفن العمود الصحفى ولفن العمود الرمزى وخصائصهما.

وفن اليوميات الصحيفة موضوع الفصل السادس حيث يعرض المؤلف لفن المقال الاعترافى وفن اليوميات الصحفية وخصائصها فى أدب طه حسين.

وفى السابع دراسة للمقال الرئيسى الافتتاحى وخصائصه فى أدب طه حسين الصحفى.

والمقال النزالى وخصائصه عند طه حسين يشمل للفصل الثامن.

ودراسته للمقال الكاريكاتيرى وخصائصه وعناصره فى أدب طه حسين فى الفصل التاسع جديرة بالتأمل.

والمقال التحليلى والتقويم الصحفى مما عرض له المؤلف فى الفصل العاشر عرضا جيدا وجذابا وعميقا.

والمصادر والملحقات والمصورات شىء كبير، وعمل علمى كثير الأهمية وهى فى الكتاب جديرة بالتأمل والوقوف عندها.

تحديد أبعاد فن المقالة :

وماذا أقول عن هذا السفر القيم النفيس الذى يأخذ بزمام القارىء والدارس، ولا يترك له مجالا، أخذا شديدا.

ولهذه الدراسة الواسعة العميقة لفن المقال الصحفى فى أدب طه حسين فضل تحديد أبعاد الفنون المقالية واستقرائها من تراثه الصحفى: فن المقال التنويرى وفن المقال النقدى والعمود الثقافى، والمقال القصصى والمقال الوصفى، والتقرير

الصحفى، وفن العمود الصحفى وفن اليوميات الصحفية، وفن المقال الاعترافى، والرئيسى الافتتاحى، والنزالى، والكاريكاتيرى، والتحليلى.

كما حرصت هذه الدراسة على التزام الحيدة العلمية حرصا شديدا.

وعلى الجملة فالكتاب معلمة كبيرة عن طه حسين وفن المقال الصحفى فى أدبه.

وهو جدير بالقراءة والتأمل العميق ويصدر فى ذكرى ميلاد طه حسين الثامنة والتسعين .

وقد أزعم أن تراث طه حسين قد كسب اليوم جديدا من الدراسة، وأنه سيبقى معلما من معالم دراسات أدب طه حسين أديب العربية الأكبر فى العصر الحديث ..

ملحق الكتاب

هذا وقد ألحقت بتراثنا العربى كتابين لكاتبين عربيين ناصروا قضايا الحق والعدل العربية، ووقفوا مع الإنسان العربى المظلوم فى كل مكان، وأحد الكتابين عن فلسطين المناضلة، وثانيهما عن يهود الخزر الذين يتمسح بهم يهود اليوم مدعين أنهم من سلالتهم ، وما أقبح هذا الادعاء .

من تاريخ الإسلام فى العصور الوسطى
كتاب القبيلة الثالثة عشرة[1]

"وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه : أن اضرب بعصاك الحجر، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم" ١٦٠ من سورة الأعراف .

اليهود اثنتا عشرة قبيلة أو أسباطا، أو أمما .. أما الشىء الذى حدث أخيرا، وبعد الرسالة فهو ما يمكن أن يسمى "القبيلة الثالثة عشرة" .. وهى التى يقص علينا هذا الكتاب قصتها العجيبة الغريبة حقا ..

الدولة الخزارية :

إنها الدولة الخزارية التى قامت فى القرون الوسطى .. قوامها الشعب الخزرى، وهو شعب من أرومة تركية، كانت له إمبراطورية قديمة ذات مركز قوة ضخمة فى وسط آسيا وفى أوروبا الشرقية، عصر شارلمان إمبراطور الغرب الذى بعث بسفارة سياسية إلى الرشيد عام ١٨١هـ/ ٧٩٧م، ولقد امتدت هذه الإمبراطورية من البحر الأسود إلى بحر قزوين أى من القوقاز إلى الفلوجا، وكانت تقع بين إمبراطوريتين عظيمتين : الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية الرومانية الشرقية. وكانت إمبراطورية الخزر هى القوة الثالثة العالمية من القرن الثامن حتى القرن الثانى عشر الميلادى.

من هو مؤلف الكتاب؟:

يبحث تاريخ هذه الإمبراطورية السياسى والدينى، كاتب متعمق، هو آرثر كويستلر، فى هذا الكتاب الخصب، الذى جمع مادته من مختلف المصادر، عربية ويهودية وغربية وشرقية، حتى الأساطير والتراث الشعبى الخزرى رجع إليه المؤلف ليكمل منه حلقات التاريخ حين كان يصمت المؤرخون عن أحداث هذه الفترة العجيبة .

---

[1] تاليف : آثر كويستلر ، وترجمة : إبراهيم زكى خورشيد .

والمؤلف مجرى من مواليد ١٩٠٥م من أصل يهودى ودرس دراساته الجامعية فى فينا، ومنح عام ١٩٦٨م جائزة "سونتج" من جامعة كوبنهاجن، لما أسدى من خدمات للثقافة الأوروبية، وانتخبته الجمعية الملكية الأدبية فى إنجلترا، من الزملاء العشرين فى الأدب، وأعيد طبع مؤلفاته جميعها فى عشرين مجلدا، كما يقول مترجم الكتاب .

التعريف بالكتاب :

"القبيلة الثالثة عشرة" هذا الكتاب الصغير الحجم، الغزير المادة التاريخية، الوثيق المصادر، الذى يكشف عن مجهولات كثيرة قد أثار ضجة كبيرة فى جميع الأوساط العالمية، وأسخط الصهيونيين وأنصارهم سخطا شديدا، ووصفه صحفى بريطانى بأنه من الكتب التى تحدث الانفجار كتبه أستاذ من الأساتذة القادرين على تبسيط الآراء العلمية.

.. هكذا ذكر المترجم فى تصديره للكتاب ..

"المترجم هو من أعلام الثقافة الحديثة، وممن عملوا فى خدمة التراث العربى الإسلامى، وخدمة التراث الإنسانى مدة طويلة، وهو أحد أصحاب "دائرة المعارف الإسلامية" الذين قاموا بترجمتها ونشرها باللغة العربية، فأسدوا بذلك فضلا كبيرا للعقل العربى الحديث.

افتراء اليهود على التاريخ :

هل تعرف الرأى الذائع الذى يذهب إلى أن الفريق الأكبر من الشعب اليهودى الحديث عاش أجداده فى فلسطين، وهاجروا منها إلى أوروبا، ثم هم اليوم يعودون إلى أرضهم التى هاجروا منها، ليكونوا فيها الشعب الإسرائيلى من جديد.

إن هذا الرأى محض افتراء على الحقيقة والتاريخ والحضارة الإنسانية. والمؤرخون المحدثون سواء كانوا نمساويين أم إسرائيليين أم بولنديين. يؤكدون أن الشعب اليهودى الحديث، ليس أصله من فلسطين، بل من القوقاز. وليس أصله ساميا، بل أصله خزرى، كما أن المد الأكبر للهجرات اليهودية لم يفض من البحر المتوسط عابرا فرنسا وألمانيا إلى الشرق وها هو ذا ينقلب راجعا مرة أخرى فى خطى ثابتة من الشرق إلى الغرب، من القوقاز عابرا أوكرانيا إلى بولندة ومنها إلى أوروبا...

بل أن الشواهد المجتمعة تجعل الإنسان ميالا إلى الاتفاق مع إجماع المؤرخين البولنديين فى رأيهم بأن "الفريق الأكبر من اليهود فى العصور الأولى أصلهم من بلاد الخزر، ومن ثم فإن نصيب الخزر فى التكوين السلالى لليهود، كان عنصرا أساسا، بل كان فى جميع الاحتمالات هو العنصر السائد كما يقول المؤلف للكتاب ص١١٠.

صلات الشعب اليهودى بالخزر :

والصلة بين شعب الخزر واليهود صلة تاريخية، فإن ملك الخزر فى عام ١٢٢هـ/ ٧٤٠م هو وحاشيته والطبقة العسكرية الحاكمة، قد اعتنقوا اليهودية وأصبحت هذه الديانة هى ديانة دولة الخزر الجديدة التى اختاروها لهم بدلا من الوثنية التى كانوا فيها، وكانوا يحذرون من ديانة القوتين العالميتين اللتين تجاورانهم: الديانة الإسلامية التى تؤمن بها الشعوب الإسلامية، والديانة المسيحية التى تؤمن بها شعوب الإمبراطورية البيزنطية.

وإذا كانت القوى العالمية، قبيل ظهور الإسلام متمثلة فى ثلاث: الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية البيزنطية، التى انتهى أمرها بنصر عظيم على جيوش فارس عام ٦٢٧م بعد الهزيمة الساحقة التى أنزلتها بهم فارس عام ٦١٩م، والقوة الثالثة هى مملكة الأتراك الغربيين التى كان الشعب الخزرى هو القوة الفعالة فيها، ثم لم يلبث هذا الشعب أن خلفها، فإن القوى العالمية، بعد ظهور الإسلام تركزت فى قوى ثلاث أيضا: القوة الإسلامية، والقوة الرومانية الشرقية (البيزنطية) والإمبراطورية الخزرية .

وقد اصطدمت الجيوش الإسلامية بالخزر على حدود الخلافة مرارا. وكانت الدولة الخزرية، هى التى حمت جناح الإمبراطورية البيزنطية طويلا، من القوة الإسلامية، واعترفت بيزنطة بفضل الخزر عليهم، فتزوج ولى عهد الإمبراطور البيزنطى أميرة خزرية، قدر لابنها أن يحكم بيزنطة باسم ليو الخزرى.

الرحالة العرب وشعب الخزر :

وقد تحدث عن شعب الخزر طويلا. الرحالة العربى ابن فضلان. فى رحلته أو سفارته السياسية التى قام بها. فى عصر الخليفة العباسى المقتدر بالله عام ٣٠٩هـ/ ٩٢١ - ٩٢٢م إلى بلاد بلغار الفولجا، وكان الطريق المباشر من بغداد إلى

الفولجا. يمر بجبال القوقار وبلاد الحرر. ومر ثم تحاشى ابن فضلان المرور بأرض الخرر. فقام بدورة كبيرة حول الشاطئ الشرقى لبحر قروين وقد حيل بين ابن فضلان وزيارة العاصمة الخررية. وكان السبب المباشر فى هذه الرحلة هو خطاب دعوة موجهة من ملك البلغار. إلى الخليفة المقتدر. يسأله فيه أن يبعث إليه بعلماء يعلمون شعبه أصول الإسلام. وأن يساعده على إقامة قلعة عسكرية تعينه على أن يتحدى مولاه الأكبر ملك الخزر

وكانت عاصمة الخرر فى أول الأمر هى مدينة بلنجر فى السفوح الشمالية لجبال القوقاز. ثم نقلت بعد غارات العرب المسلحة فى القرن الثامن الميلادى على بلادهم إلى مدينة "سمندور". على الشاطئ الغربى للقوقار. ثم إلى "تل" على مصب نهر العولجا

بواعث اعتناق اليهودية :

وكان اعتناق الخرر لليهودية عام ١٢٢هـ/ ٧٤٠م لبواعث سياسية. خوفا من القوتين المجاورتين لهما القوة الإسلامية فى دمشق والهند والصين. والقوة المسيحية إلى الغرب فى بيزنطة وأوروبا

وكان المساعد الأكبر فى إدارة الدولة الخررية للإمبراطور الخررى يهوديا. وهو الذى أقنع ملكهم باعتناق اليهودية

ويتحدث البكرى فى كتابه "المسالك والممالك" عن السبب المباشر فى اعتناق ملك الخزر اليهودية. فيقول إن أحد كبار رجال حاشية الملك الخررى. أقنعه بأن يدعو علماء من أهل الكتب المقدسة الإسلامية والمسيحية واليهودية. إلى حوار أمامه. يتضح منه الأمر له. ليكون اختياره للدين الجديد مبنيا على أساس متين. وإن الملك حاور أسقفا نصرانيا. فلم يرتض كلامه ثم حاور فقيها مسلما متكلما بارعا يجيد الجدل. ولكن رجل الحاشية وهو يهودى استمال الملك إلى دينه حتى اعتنق اليهودية

ولا ريب أيضا أن الخرر قد رأوا فى عقيدتهم الوثنية. ضربا من الجنون الذى لا يتفق مع رغبتهم للملك. وبنائهم الدولة. لأن عقيدتهم الشامانية البدائية. ما هى إلا عقيدة همجية لا تصلح لبناء الملك

وصارت الدولة الخزرية اليهودية مناط أمل كل يهودى. ورحل إليها اليهود من كل مكان

وبلغت الدولة الخزرية أوج قوتها فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى بعد تهود الملك بولان

ولم يلبث التاريخ أن سارت دورته. وظهرت القبائل الروسية على حدود الدولة الخزرية، وكانت مصادمات وحروب بينهما استمرت طويلا وكان الروس وثنيين أيضا، ولم يلبثوا أن اعتنقوا المسيحية . حيث دخلت فيها (أولجا) أميرة كييف. وأرملة الأمير (إيجور) بمناسبة زيارتها للقسطنطينية عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م ونجحت بيزنطة فى سياستها مع الروس. من حيث فشلت جهودها من قبل. مع الخزر. وكان مبعوثون مسيحيون من قبلها إلى الخزر. ومنهم دوتمار الذى وكل إليه الإمبراطور ميخائيل الثالث. هو وأخوه الأكبر. القديس ميثوديوس القيام بمهمة الدعوة إلى المسيحية. فى بلاد الخزر. وأقيمت الحفلات والمآدب الضخمة فى بيزنطة للأميرة الروسية "أولجا" والتى دخلت فى المسيحية ولكن ابنها "سيناتوسلاف" عاد إلى الوثنية. مخالفا لسياسة أمه. وهو الذى استولى على مدينة كييف الخزرية، عام ٩٦٢م. ودمر مدينة "اتل". عاصمة الخزر عام ٩٦٥م كما دمر قلعة "سركل" الخزرية أيضا فى العام نفسه. وبعد وفاته عاد ابنه فلاديمير إلى عقيدة الكنيسة الرومية الأرثوذكسية عام ٩٨٦م وكانت تتنازعه الديانات الكبرى الإسلام والمسيحية واليهودية، فبعث إليه ملك البلغار بعثة من العلماء المسلمين. لشرح الإسلام أمامه فلما أخبروه بتحريم الخمر ولحم الخنزير فى الإسلام قال إن الشراب متعة الروس، وهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدونه، وحاوره وفد مسيحى ألمانى. على مذهب الروم الكاثوليك. فلما شرحوا له الصيام فى مذهبهم رفض الدخول فيه وجاء دور اليهود الخزر. فقال لهم أنتم مشردون فى الأرض. فلا نقبل دينكم. وإلا شردنا مثلكم. وجاء دور الوفد المسيحى البيزنطى. فتردد الأمير فلاديمير فى قبول مذهبهم. ولكن الإمبراطور البيزنطى وعده أن يزوجه أخته. فتنصر الأمير الروسى

وكان ذلك من التحولات العجيبة. بل كان هذا إيذانا باضمحلال قوة الخزر، فيما بين عامى ١٢٤٥ و١٢٤٧م كان المغول قد أقاموا أكبر إمبراطورية بدوية. رآها العالم، وامتدت هذه الإمبراطورية من هنغاريا إلى الصين.

وحوالى هذا الوقت نفسه انضم الهنغاريون والبولنديون والإسكندناويون إلى الكنيسة اللاتينية فى روما.

التحريض على غزو فلسطين :

وقامت الحروب بين كييف الروسية ودولة الخزر، واستمرت طويلا وساعدت بيزنطة الروس على الخزر، ثم كانت حملات جنكيز خان على الشرق وأوروبا وعلى بلاد الخزر، فقد غشيهم الغزو المغولى ودمر إمبراطوريتهم الضعيفة تدميرا تاما.

على أنه حدث فى القرن الثانى عشر الميلادى. فى بلاد الخزر حركة بدائية، لحرب صليبية، ترمى إلى غزو فلسطين بقوة السلاح. وكان المحرض على هذه الحركة، هو سليمان بن روحى وابنه مناحم. وهما يهوديان: وكتبا رسائل إلى جميع اليهود فى كل مكان فى الأراضى المجاورة لهما يقولان فيها: أنه قد حان الوقت لجمع شتات إسرائيل من جميع البقاع فى مدينة أورشليم المقدسة. وكان لهذه الحركة أثر ضئيل، ومع أنها نشأت فى بلاد الخزر، فإن مركزها انتقل سريعا إلى كردستان. وتسمى مناحم باسم داود، الذى جمع جيشا من اليهود المحليين فى كردستان، لتنفيذ أحلامه، ولكنه لم يستطع عمل شىء وينسب "درع داود" المسدس إلى "داود" هذا، منذ القرن الثالث عشر الميلادى. وظهر هذا الشعار على العلم اليهودى فى براغ عام ١٥٢٧م.

الهجرة إلى أوروبا الشرقية :

وقبل الفتح المغولى لبلاد الخزر، كان الشعب الخزرى قد استطاع أن يقيم فى النهاية مراكز يهودية كبرى فى أوروبا الشرقية

ويقول مؤلف كتاب "القبيلة الثالثة عشرة" أن معظم من اعتنقوا اليهودية فى القرون الوسطى، كانوا من الخزر. وقد هاجر عدد كبير منهم إلى بولندا وإلى ليستوانيا وهنغاريا والبلقان، حيث أقاموا الجماعات اليهودية الشرقية، التى أصبحت بدورها

الأغلبية الغالبة من الشعب اليهودى فى العالم، حتى أن المؤرخين ليتفقون على أن الهجرة من بلاد الخزر، كانت بلا شك من أسباب نمو الشعب اليهودى البولندى، فالفريق الأكبر من السكان اليهود البولنديين، أصلهم من بلاد الخزر. بل يذهب الكثيرون من المؤرخين إلى أن اليهود الشرقيين كلهم، من أصل خزرى. فإن الشعوب اليهودية الخزرية قد هاجرت صوب بولندا، ثم انتشرت خلال عدة قرون فى أنحاء أوروبا الشرقية .

الخلاصة :

وبعد فإن هذا الكتاب "القبيلة الثالثة عشرة" كتاب مثير حقا : والقسم الأول منه يدور حول إمبراطورية الخزر، واعتناقها لليهودية ثم سقوطها

والقسم الثانى منه يتناول تراث الخزر بالشرح

ففى الباب الأول من الكتاب تتبع المؤلف تاريخ إمبراطورية الخزر معتمدا على المصادر القليلة التى بقيت فى التراث الإنسانى

وفى الباب الثانى . جمع الشواهد التاريخية التى تدل على أن قوام الشعب اليهودى الشرقى، ومن ثم العالمى، ينتمى إلى أصل خزرى تركى. أكثر من انتمائه إلى أصل سامى.

وفى الفصل الأخير من الكتاب حاول المؤلف أن يوضح. أن الشواهد المستقاة من علم الإنسان تؤيد التاريخ. فى دحض الاعتقاد الذائع. بقيام جنس يهودى ينحدر من القبيلة المذكورة فى التوراة.

والكتاب مع صغره حافل بشتى المصادر التاريخية. وبالمادة العلمية الواسعة التى يعجز المحققون من علماء التاريخ عن جمعها.

إنه ثمرة عميقة لعمل علمى جاد متواصل. لا نملك معه إلا الإعجاب. وإلا المزيد من التقدير للمؤلف وللمترجم، ولكل من عمل على طبع هذا الكتاب القيم النفيس .

فلسطين فى ضوء الحق والعدل

تأليف هنرى كتن بالإنجليزية وترجمة وديع فلسطين إلى العربية تقديم أكرم زعيتر نشر مكتبة لبنان - بيروت - ١٩٧٠م - مطابع هيدلبرج بلبنان - ٣٢٠ صفحة.

- ١ -

سفر نفيس، من أجل المراجع العلمية فى قضية فلسطين، منذ أصبحت فلسطين قضية ، حتى اليوم .

إنه موسوعة تاريخية وقانونية، قل أن يكون لها نظير فى مكتبتنا العربية، ومن بين الكتابات والكتب التى صدرت عن مأساة فلسطين خلال نصف قرن من الزمان.

وقد استحالت قضية فلسطين - بفضل هنرى كتن - إلى حق وعدل واضحين، يؤيدهما القانون الدولى تأييدا مطلقا : ومن هنا وضحت الرؤية، وتتضح أمام جيلنا المعاصر، وصار فى إمكان العالم كافة، بل فى إمكان كل إنسان، مهما كان لونه وجنسه وموطنه، أن يعرف كيف أصبحت فلسطين قضية معروضة للبحث فى كل محافل العالم الدولية والقانونية .

وقد نشر الكتاب فى لندن بالإنجليزية عام ١٩٦٩، ثم ظهرت هذه الترجمة العربية فى طبعتها الأنيقة البيروتية عام ١٩٧٠، واعتمد الترجمة كل من المؤلف ونقيب المحامين السابق فى دمشق طاهر القاسمى وأصبح فهم القضية الفلسطينية على وجهها الصحيح العادل فى إمكان كل ذى ضمير إنسانى منصف يجب أن يسود السلام والعدل والحق هذه المنطقة الضخمة من العالم ..

وإذا كان فولتير قد قال : إن الكتاب نور يضىء أو نار تحرق، فإن كتاب فلسطين فى ضوء الحق والعدل - يضيف أمام كل باحث ومثقف وعادل منصف ضوءا جديدا فى الصراع العربى الإسرائيلى ولن يكون هذا الضوء فى صالح إسرائيل فى يوم من الأيام ..

إن كتاب فلسطين فى ضوء الحق والعدل سجل جامع لأدوار القضية الفلسطينية، وتحليل دقيق لكل عناصر الموقف المتفجر الحالى فى الشرق الأوسط.

يقول أكرم زعيتر فى تقديمه للكتاب بأن قضية فلسطين لم تظفر فى المحاماة عنها بخير من هذا الكتاب، إيضاحا لحقيقتها، وإثباتا لحقانيتها. وقد توفر للكتاب الأسلوب الذى يجعله مؤثرا فى ضمير الأجنبى. بل وجدان العربى وهو يبرهن العالم على أن فلسطين كانت عربية منذ فجر التاريخ. وأن اليهود بيئة طارئة عليها، ناسفا بذلك الزعم الذى انتحله الصهيونيون تسويغا لباطلهم. وفيه تفنيد بليغ للزعم بأن الانتداب قد جاء لإنقاذ الفلسطينيين. الذين كانوا يتمتعون بحقوقهم السياسية كاملة فى العهد العثمانى. والذين كانوا على قدر من الحضارة والمستوى يؤهلهم للاستقلال. ولكن جهود الانتداب انصبت على إقامة دولة يهودية فى فلسطين، تحديا لحقائق التاريخ والعدل وحقوق الفلسطينيين أو بحسبك أنه لم تكن هناك منذ خمسين سنة مشكلة تدعى مشكلة فلسطين

إن الكتاب بحق – كما قال زعيتر - مكتبة فى كتاب ويقول عنه المترجم الأستاذ وديع فلسطين فى المقدمة التى كتبها لترجمته العربية أنه حمل إلى القراء فى أوروبا وأمريكا صوتا عربيا بليغا فى أمانته سليما فى منطقه. قويا فى حجته

– ٢ –

والمؤلف من أسرة عربية مقدسية عريقة ويعد من كبار علماء القانون فى العالم العربى .. ولقد عمل فى فلسطين قبل النكبة. وعاش أحداثها بعد النكبة. فكان ممثلا لعرب فلسطين أمام الأمم المتحدة، بتكليف من الهيئة العربية العليا فى الدورة الخاصة لعامى ١٩٤٧ و١٩٤٨ : وندب من قبل جامعة الدول العربية عضوا فى وفدها الذى بحث قضية فلسطين مع وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت وله مؤلفات قانونية مشهورة

ولقد كان المؤلف فى كتابه مؤرخا وعالما حقوقيا. وسياسيا يعرض القضية الكبرى للوطن العربى والإسلامى من مختلف جوانبها التاريخية والسياسية والقانونية بوضوح شديد. وحجج بليغة ووعى فقهى عميق وفى أسلوب مؤثر مهذب .

وما أجل ما يقول فى منطق قانونى بليغ: إن إسرائيل مخلـوق غـير شـرعى وغير طبيعى، وإن إقحامه وسط خضم عربى كبير فـى قلـب العـالم العربـى، محـض مغامرة جنونية تنذر بمزيد من الحروب والكوارث وكما ينبذ الجهاز الإنسـانى جسـما غريبا عنه فإن العالم العربى نبذ هذه الدولة العنصرية ..

وإذا رددت إسـرائيل دعواهـا المعروفـة، وهـى أن عقـارب السـاعة لا يمكـن إرجاعها إلى الوراء مرة أخرى : فإن المؤلف يرد على ذلك ردا بليغا فيقول : بلى لقد رجعت إلى الوراء فى الجزائر مثلا، ولابد لإقامة العدل فى فلسطين وإعادة السلام إلى الشرق الأوسط من إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء.

المؤلف بحق، وكما يقول زعيتر: فقيه دولى موهوب، متمكن، يعرفـك الفـرق بين سيادة قانونية حقانية وسيادة واقعية: فالسيادة كما وردت فى الدستور الفرنسـى الصادر فى ٣ مـن إيلـول ١٧٩١م - واحـدة لا تتجـزأ، ولا يمكـن التفريـط فيـها، ولا يجرى عليها التقادم - وعليه فإن ملكية فلسطين تعـود إلى سـكانها الأصليـين الذيـن استقرت لهم السيادة، بمجرد انفصال هذه البلاد عن تركية، وسيادتهم على أرضـهم المتوارثة هى واحدة لا تتجزأ، ولا يمكن التفريط فيها، ولا يجرى عليها تقادم، وهـى تشمل فلسطين بكاملها على الرغم من أى تقسيم أو احتلال أو اغتصاب أو تقادم.

إن وضوح الرأى أمـام المؤلـف جعلـه يقـف متمكنـا مـن الأحـداث والتـاريخ والأزمات والمشكلات، قويا فى حجته، رائعا فى بلاغته، عميقا فى فقهــه ومنطقـه، مما يعد مكسبا للقضية ذاتها، وربما للعرب كافة.

- ٣ -

والمترجم وديع فلسطين أديب عربى متمكن أصيل، وإجادتـه التامـة النـادرة لأدب الترجمة يذكرنا بطبقات المترجمين الكبار فى عصرنا الراهن، وفـى عصـر نقـل الثقافات العالمية إلى لغة القرآن الكريم فى ذروة الحضارة العباسية.

وله كتب عدة مترجمة من العربية إلى الإنكليزيـة وبـالعكس، تشـهد بذوقـه اللغوى الرفيع، وبحثه البيانى الدقيق.

وهو مع ذلك أديب وكاتب وصحفى وناقد متمـيز بالدقـة والعمـق والأصالـة. وكتابه قضايا الفكر فى الأدب المعاصر - مشهور .

لهذا كله كان قيامه على ترجمة هذا السفر القيم من الإنجليزية إلى العربية عملا جليلا أضاف إلى بلاغة المؤلف فى الأصل الإنكليزى بلاغة المترجم فى الأصل العربى ورأينا فى هذه الترجمة جهدا مبذولا صادقا وقويا لتكون الترجمة ببلاغتها ودقتها وقوة تأثيرها مكملة لكل ما احتواه الكتاب من مضمون ومحتوى تاريخى وقانونى وفقهى، وبذلك أضفى المترجم النابغة على النص الأصلى للكتاب الكثير من فصاحته الكلاسيكية الأصيلة الأمينة الدقيقة وهو ربح وأى ربح للقارىء، وللغة العربية الجليلة - لغة القرآن الكريم.

- ٤ -

ومما يدعو إلى الحمد والإعجاب جميعا هذه المنهجية العلمية التى أضفاها المؤلف على كتابه، دقة فى التبويب، فى المصادر فى حقائق التاريخ، فى السرد القانونى، فى فهم النصوص واستخلاص الحقائق منها .

وأمامنا الكتاب ..

مقسم إلى أبواب رئيسية ، وكل باب مكون من عدة فصول ..

ولنمش مع الحركة العلمية والذاتية للكتاب .

الباب الأول : عن النزاع بين العرب واليهود يتكون من فصول ثلاثة :

الأول : فى النزاع قبل قرار التقسيم الصادر فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٤٧.

والثانى : فى قيام إسرائيل وحرب ١٩٤٨م.

والثالث : عن إجلاء اللاجئين الفلسطينيين .

والمؤلف فى هذا الباب يؤكد أن الفلسطينيين بعد الحرب العالمية الأولى، كانوا أهلا للاستقلال ويذكر التصريح البريطانى الفرنسى - ١٩١٨/١١/٧ إن موقف الدولتين الكبيرتين آنذاك قد أعطى الاستقلال الكامل النهائى للشعوب وإقامة حكومات وطنية .

يشير إلى التناقض بينه وبين تصريح بلفور فى نوفمبر ١٩١٧ - وأن تصريح بلفور هذا مناقض للتصريح الثنائى الذى أشرنا إليه، وما أجمل ما وصف به هذا التصريح البلفورى بأنه يتلخص فى أن أمة قطعت وعدا رسميا على نفسها لأمة أخرى بأن تمنحها بلاد أمة ثالثة . ويقول :

إن هذا التصريح ينص على إنشاء وطن لا دولة ويؤكد أن هدف الصهيونية هو إقامة دولة فى فلسطين منذ مؤتمر بال المنعقد عام ١٨٩٧م وبذلك يبلور هنرى كتن القضية الفلسطينية بلورة حقيقية.

ويذكر المؤلف كذلك فى هذا الباب نسبة اليهود إلى السكان العرب فى فلسطين ونسبة ما يملكون إلى أملاك العرب ..

فى عام ١١٧٠م كان عددهم ١٤٤٠ وفى عام ١٨٠٠م صار عددهم ثمانية آلاف .

وفى عام ١٨٤٥ بلغوا أحد عشر ألفا وفى عام ١٨٨٠ بلغوا عشرين ألفا وفى عام ١٩١٨ صاروا ٥٦ ألفا بنسبة هى أقل من ١٠٪ من مجموع السكان .

ويرد المؤلف فى هذا الباب كذلك على خطأ شائع، اختلق عمدا. وهو أن عرب فلسطين كانوا غزاة لها فى أثناء الفتح الإسلامى العربى. لأن هذا الزعم الباطل غير صحيح تاريخيا فإن العرب الفلسطينيين هم السكان الأصليون لهذه البلاد..

ويرد كذلك المؤلف على كثير من الأباطيل التى روجت لها الدعاية الصهيونية، ويعرض لمذبحة دير ياسين المشهورة، وهدف إسرائيل منها - ص٤٦ و٤٧ الكتاب .

والباب الثانى من هذا الكتاب القيم عنوانه عشرون عاما من التوتر - ١٩٤٨ - ١٩٦٧. وهو كذلك مقسم إلى عدة فصول

الأول : فى إخفاق الوساطة والتوفيق .

والثانى : فى حرب ١٩٥٦ ونتائجها .

والثالث : عن رفض إسرائيل إعادة اللاجئين إلى ديارهم .

والرابع : فى مساعدة اللاجئين وإنشاء هيئة إغاثة اللاجئين - التابعة لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٩م

والخامس : فى مصير ممتلكات اللاجئين التى قدرت تقديرات مختلفة حسب الأهواء والظروف. والتى قال عنها ستيفن بنروز رئيس جامعة بيروت

الأمريكية أنها لابد أن تبلغ رقما مذهلا يتفاوت بين مليارين وثلاثة مليارات من الجنيهات الإنجليزية - ٨ أو ١٢ مليار دولار -

وفى هذا الباب كثير من الحقائق الماسة والمآسى المفجعة، التى احتوت عليها القضية الفلسطينية، والتى لم يحدث مثلها فى التاريخ .

أما الباب الثالث من الكتاب فيتعلق بحرب عام ١٩٦٧، وهو فى ثلاثة فصول:

الأول : فى أسباب الحرب .

والثانى : عن مأساة أخرى للاجئين .

والثالث : فى آثار الحرب .

والباب الرابع : يتعلق بالحل الصحيح للقضية الفلسطينية. وهو فى أربعة فصول.

الأول : فى جوهر النزاع ، وهو الظلم الأساسى للعرب الفلسطينيين الذى وقع فى عام ١٩٤٨، والذى تفاقم بسبب حرب ١٩٦٧ .

والثانى : فى مفاهيم خاطئة للحل، من مثل :

-قبول العرب للوضع الراهن .

-توطين اللاجئين خارج بلادهم .

-تعويض اللاجئين .

والثالث : عن الالتزامات التى فرضتها الأمم المتحدة ومبادىء القانون الدولى وتعهدات إسرائيل للأمم المتحدة، سواء كانت هذه الالتزامات متعلقة بالجلاء عن الأرض، أو بإعادة اللاجئين إلى ديارهم، أو برد ممتلكات اللاجئين، أو بتعويضهم.

والرابع : عن إمكانية التسوية وشروطها ، من مثل :

-عقد صلح بين العرب وإسرائيل .

-أو إجراء تسوية سياسية وشروط الحل العادل أو التسوية المنصفة مما يمكن تلخيصها فيما يلى:

١-تصحيح الأخطاء التى ارتكبت فى فلسطين .

٢–اتخاذ قرار دولى يحدد الإجراءات الكفيلة برفع المظالم.

٣–التنفيذ على أيدى الأمم المتحدة .

وليس من غرضنا هنا أن نستقصى أو أن نتتبع كل فكرة عرض لها المؤلف. وكل حديث تاريخى من أحداث القضية، فحسبنا أن نشير، وأن نلفت نظر القارىء إلى أهمية هذا الكتاب فى دراسة القضية الفلسطينية، وفهم أبعاد النزاع العربى الإسرائيلى، ونتائجه القريبة والبعيدة على حد سواء .

– ٥ –

إن كتاب – فلسطين فى ضوء الحق والعدل – من أهم ما ظهر عن قضية الشرق العربى، وقضية فلسطين، حتى اليوم، وهو مادة ثقافية ضرورية لكل عربى يعيش حياته وعصره ومشكلات أمته ويريد أن يفهم حقائق الصراع العربى الإسرائيلى..

ولابد من أن تقوم وزارات المعارف والتعليم العالى والثقافة والإعلام فى جميع دول الشرق العربى بطبع الكتاب طبعات عدة، وبطبعه كذلك طبعة صغيرة توزع مجانا على جميع طلبة الجامعات وأساتذتها وعلى جميع المتفوقين فى مراحل التعليم الثانوى، وعلى مختلف الهيئات الثقافية فى مختلف أنحاء الوطن العربى والإسلامى، وتوزع كذلك على جميع موظفى السلك الدبلوماسى والإعلامى فى بلادنا. وعلى المثقفين فى الغرب من أنصار العرب وقضيتهم الكبرى.

إن حقائق القضية وجوهر النزاع فيها وأبعاد الصراع حولها، لا يصح أن تظل بمعزل عن فهم وإدراك كل شاب مثقف يعيش فى رقعتنا العربية.

لابد من توعية قومية ثقافية حول قضية العالم الإسلامى قاطبة، قضية فلسطين المسلوبة، وهى القضية، التى نناشد الضمير الإنسانى فى كل مكان أن يجد لها الحل العادل الأساسى، فى أقرب وقت، وقبل أن تحمل الإنسانية كلها وزر هذه الجريمة الكبرى، التى ارتكبت على أرض فلسطين العربية.

تهنئة للمؤلف هنرى كتن وتحية للمترجم وديع فلسطين .

وتقديرا للكتاب كتاب - فلسطين فى ضوء الحق والعدل

عن أعلام العصر

- ١ -

"وديع فلسطين يتحدث عن أعلام العصر" كتاب جديد فى جزءين كبيرين صدر هذه الأيام عن دار القلم بدمشق، حافلا بكل مثير وكل جديد عن العديد من أعلام العصر - عرف بهم المؤلف وروى قصص حياتهم وأسرار شخصياتهم .

ووديع فلسطين رائد كبير وعلم من أعلام الحياة الأدبية والفكرية فى حياتنا المعاصرة .

وهو أديب وناقد ومؤرخ وصحفى، ويعرف الكثير والكثير عن حياة العديد من أعلام العصر الذين عرفهم أو التقى بهم. وكانت بينه وبينهم صلات مودة وصداقة. وهو عضو فى المجمع العلمى بدمشق. ومجمع اللغة العربية بعمان. وله العديد من الإصدارات الأدبية والفكرية .

لقبه بعض المعاصرين بسفير الأدباء. وقال عنه : إنه الحبل الواصل بين أعلام العصر وأدبائه ومفكريه، وأشهر شخصياته .. وهو حجة فى الأدب المهجرى اتصل بأعلامه، وصادق الكثير منهم، وعرف الخفى من أسرارهم. وكان ذا صلة وثيقة بالدكتور/ أحمد زكى أبو شادى رائد مدرسة أبولو . وهو صعيدى ولد فى سوهاج عام ١٩٢٣. والتحق بقسم الصحافة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة التى تخرج منها عام ١٩٤٢، ليعمل فى ميدان الصحافة الرحب. وأسهم فى الكتابة فى معظم الصحف والمجلات العربية فى الوطن العربى والمهجر. وعمل مدرسا لعلوم الصحافة فى الجامعة الأمريكية على مدى عشر سنوات .

ألف وترجم العديد من الكتب الشامخة. منها :-

- قضايا الفكر فى الأدب المعاصر.
- مختارات فى الشعر المعاصر.

وأسهم فى إعداد بعض الموسوعات العربية المعاصرة كرمته الإثنينه فى جدة ورائدها الكبير الشيخ / عبد المقصود خوجه. كما كرمته رابطة الأدب الحديث بمناسبة بلوغه الثمانين، وصدرت عنه وعن شخصيته العديد من المؤلفات

والدراسات، ويعرفه الكثيرون من الأدباء والمستشرقين فى أنحاء العالم، وبحسبه هذه الشهرة الذائعة، والسمعة الطيبة، والفكر الواسع الأفق، والشائع الإحاطة بالكثير من المعارف والثقافات.

يقول ناشر الكتاب فى مقدمة الجزء الأول منه : هذا الكتاب إضافة حقيقية إلى تاريخ هؤلاء الأعلام وإلى تاريخ نهضتها الحديثة : ويجمع مقالات رائعة كان المؤلف يتحف بها قراءه من خلال جريدة "الحياة".

ويقول المؤلف فى مقدمته لكتابه : قصاراى أن أرسم صورة شبه حيه لكل علم من الأعلام الذين عرفتهم من واقع تواصلى الشخصى معهم، وهى صورة ذاتية تومئ إلى شيء عرفته، وقد تغفل أشياء لم أعرفها، والكتاب ليس كتاب تاريخ، بل هو انطباعات ذاتية عن أعلام كان لكل منهم إسهام فى الحياة الفكرية المعاصرة.

ومن الشخصيات الذين تحدث عنهم فى الجزء الأول: المازنى، وناجى، والزيات، وأبو شادى وألبير أديب، وإلياس فرحات، وبدوى طبانة. وبشر فارس، وجميلة العلايلى، والمستشرق جورج رنس وجورج صيدح، وحافظ وهبه، وحبيب جاماتى، وخليل مطران، والشاعر القروى، وزكى قنصل، وزكى مبارك، وزكى المحاسنى، وسلامة موسى، وسيد قطب، وطه حسين، والعقاد، وعادل الغضبان، وعبد الرحمن صدقى، وعبد العزيز الرفاعى، والمستشرق عبد الكريم جرمانوس، وأبو القاسم كرو. وغيرهم من الأعلام البالغ عددهم ٤٧ علما .

وفى الجزء الثانى تحدث عن عبد الله كنون. وعبد المسيح حداد وعثمان أمين، وعجاج نويهض، وعدنان الخطيب، وعزيز أباظة، وباكثير، وعلى أدهم، وعلى الغاياتى، وعلى هاشم رشيد، وعيسى الناعورى، وفدوى طوقان وفيليب حتى، وقدرى طوقان، وكامل السوافيرى ومحمد صبرى السوربونى، ومحمد عبد الغنى حسن، ومحمد لطفى جمعه، ومحمد مندور، ومحمود أبو الوفا، ومحمود تيمور، ومحمود حسن إسماعيل، ومى زيادة، وميخائيل نعيمة، ونجيب محفوظ، ونجيب العقيقى، ونظير زيتون، ونقولا يوسف، ووداد سكاكينى، والشاعر البدوى. وسواهم ويبلغ عددهم ٤٥ علما .

فجملة الأعلام الذين تحدث عنهم المؤلف فى الجزءين ٩٢ علما، أضاء حياتهم، ورسم صورة شبه حية لشخصياتهم، وعرف بهم تعريفا مميزا يرجع إليه الباحثون والدارسون.

- ٣ -

الكتاب بجزئيه موسوعة أدبية رائعة حقا، وهو جدير بالتقدير والحفاوة والاهتمام - ولا شك أنه موسوعة تاريخية شامخة.

في حديثه عن أبي شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) يتحدث الأستاذ وديع عن بدايات صلته بأبي شادي، وبدايات عمل أبي شادي في نيويورك بعد هجرته من وطنه عام ١٩٤٦، وبعد وفاة زوجته الإنجليزية، وعن تكريم أكاديمية الشعراء الأمريكيين وجمعية الشعر الأمريكية له في نيويورك بعد ظهور ديوانه (من السماء) وهو الديوان الوحيد الذي صدر له في المهجر في حياته بعد هجرته. وتكلم وديع فلسطين عن أسباب هجرة أبي شادي، وعن هجوم بعض الأدباء في القاهرة على أبي شادي ورد أبي شادي عليهم. كما تحدث عن رابطة منيرفا التي أنشأها أبو شادي في نيويورك .

ويقول المؤلف : عرفت أبا شادي بعد هجرته عندما أطلعني صديقي مصطفى عبد اللطيف السحرتي وهو من أركان أبولو على أخبار الحفل الضخم الذي أقيم لتكريم أبي شادي في فندق أستوريا بنيويورك، فحرصت على نشر وقائع هذا الحفل في صفحة كاملة من جريدة المقطم، وعلى أثر ذلك تلقيت رسالة شكر من أبي شادي ثم اتصلت بيننا المراسلات .

ويتحدث الأستاذ وديع عن الكثير من أسرار حياة أبي شادي وعن مكتبته ومؤلفاته في المهجر.

ولم يذكر المؤلف أنه هو المصري الوحيد الذي زار مقبرة أبي شادي في واشنطون في أثناء زيارته لأميركا وتحدث عنها ووصفها في فصل أدبي رائع كتبه في هذه المناسبة .

- ٤ -

إن كتاب وديع فلسطين الذي هو موضوع هذه الكلمة "وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره" كتاب مثير حقا، ويعد من أجل إصدارات المؤلف، بل من أشمخ إصدارات هذا العام .

فتحية للكتاب ولمؤلفه ،

خاتمة الكتاب

حمدا لله وشكرا .

هذه هى نهاية الجزء الثالث من كتابنا "فصول من الفكر العربى فى القديم والحديث" وبانتهائه سينتهى الكتاب بأجزائه الثلاثة الذى يعد موسوعة كبيرة فى الفكر العربى، ومعلمة ضخمة من سجلات الخالد من أعلام النهضة العربية. وبناة الحضارة الإسلامية، فى قديمها وحديثها.

والفكر العربى ببيئاته ورواده وأعلامه هو الذى أضاء الدنيا، وأثل المجد العربى فى المعرفة والنهضة والحضارة، وهو الذى وصل العالم الجديد بالعالم القديم. وأقام الحضارة الغربية على أسس متينة من حضارة الإسلام ، والله ولى التوفيق، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الفهـرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تم بحمد الله